رواية

السَّيدةُ التِي حسِبتْ نفْسها سُوسَة

شيماء هشام سعد

مكتبة

دار المعرفة

السيدة
التي حسبت نفسها سوسة

تأليف

شيماء هشام سعد

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط!

رقم الإيداع : 2021/ 15369

الترقيم الدولي: 978-977-764-208-8

تنبيه

إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

مكتبة
t.me/soramnqraa

دار المعرفة

خلف الجامع الأزهر بجوار مسجد عليش

01141212805 - 01111322668 – 01008584820

E-mail : elmarafa@hotmail.com

التقطت لي من زاوية غريبةٍ عليَّ صورةٌ دونَ أن أنتبه، وحينَ أُعطيتُها ونظرتُ إلى نفسي فوجئتُ بكِ في ملامحي للمرةِ الأولى، وقد كنتُ أظنُّ أنني أبعدُ أخواتي شبهًا عنكِ. تنطوي الأمومةُ على سحرٍ كهذا إذن؛ أن تتحولَ البنتُ إلى نسخةٍ من أمِّها بمرورِ الوقت!

من النسخة الأكثر تعقيدًا والأقلّ جودةً منكِ.. آسفةٌ لأنَّ نضارةَ شبابي كلفتكِ في المُقابلِ أن تُنفقي نضارتكِ أنت، ولأنَّ البناتِ يتغذَّينَ على أيَّامِ الأمهاتِ حتى يبلغنَ من العمرِ مثلَ ما بلغتُ.

إلى الأمومة،

وإلى آمال فتحي أحمد علي

مكتبة
t.me/soramnqraa

"اسحب كُرسيَّك إلى حافةِ الهاوية؛ سوف أروي لكَ قصة"

سكوت فيتزجيرالد

التقرير الثامن للجنة متابعة التأقلم

كل شيء تحت السيطرة، وباستثناء حالات إعاقةٍ معدودة يتم التعامل معها بما يلزم، فإن وطنَنا المقدس يُبدي استقرارًا جديرًا بالفخر بعد محاولات المتمردين الخائبة، وإذا كان حريًّا ببلاد العالم قبل قرنٍ من الزمان أن تغبطنا على إنجازنا العظيم بالعبور بسلاسة من عصر الدمار الكليّ إلى هذا العهد الجديد كليًّا، فإنه حريٌّ بها اليوم أن تغبطنا على دحر محاولات المتمردين والخونة الذين أرادوا العودة بالبلاد إلى الوراء بعد كل ما أنجزته وما تحملته في سبيل ذلك من تكاليف، حريٌّ بالعالم كله أن يغبط هذا البلد على حفاظه على أمنه طوال السنوات الخمس الماضية رغم كل المحاولات الهدامة.

عدد المنتكسين الذين سعوا للتمرد والذين تم ضبطهم من قبل لجنة متابعة التأقلم خلال الشهرين الأخيرين هو سبعمائة وخمسة عشر معاقًا فقط، ستتم إذاعة أسمائهم بعد هذا البيان مباشرةً، تمثلت مظاهر إعاقتهم في استخدام التقويم القديم سواءً في مذكرات شخصية أو كتابة تواريخ قديمة على صور فوتوغرافية، أو الاحتفال بأعياد الميلاد حسب تقويم العصر البائد، أو، وهو الأبشع؛ ذكر أحداث من ذلك الزمن الموبوء في كتب تداركتها الرقابة قبل نشرها.

هذا، وتهيب اللجنة بالمواطنين الأعزاء أن يضطلعوا بالدور المنوط بهم بالإبلاغ عن أي حالات إعاقةٍ يصادفونها أو يطلعون على أعراضها، وتطلب منهم سرعة التواصل على أرقام الخط الساخن للإبلاغ عن أي بادرة شكٍّ في حالة، من أجل المساعدة في الانتقال التام لعصرٍ لا ذكر فيه لأصغر شاردة من تفاصيل الزمن الماضي.

معًا من أجل الحفاظ على إنجاز بلدنا العظيم وحكومتنا المجيدة في الانتقال للعهد الجديد كليًّا، ولمجابهة أي عناصر فاسدة أو معطوبة تعوق تحولنا المقدس.

لجنة متابعة التأقلم

الفصل الأول

"أولُ ما تتميزين به كسوةٍ هو رأسُك، وهو أسرعُ ما تموتين به".

(1)

الثامنة والربع صباحًا..

ما زلتُ غير قادرة على التصديق، كلما فكرتُ في الأربعين يومًا الأخيرة وما حصل فيها، كدتُ أفقد عقلي! لم أستطع النوم ليلة أمس، غفوتُ فقط فرأيتُ أنني أتحول إلى حمامةٍ من الحمامات التي حكيتُ لكَ عنها، ورأيت البهلول يخبط بعصاه على الأرض خبطاتٍ متسارعةً ويلقي تعويذته، ثم حاولت الطيران فتخبطتُّ في جدران الصالة ودرتُ حول نفسي، انفجر قلبي في النهايةِ وسقطتُّ على الأرض، لكنني لم أمت، حدق البهلول فيَّ بفزعٍ وذهول، ارتد إلى الخلف خائفًا وهو يراقبني أقومُ كحمامةٍ وأكدسُ نفسي في الحقيبة!

عندما استيقظت نظرتُ في المرآة، ولم يكن في المرآة أحد، وشعرتُ بأن قلبي مفقوءٌ ومُصفًّى تمامًا.

رئيفة علاء الدين

القاهرة – العباسية

15 سبتمبر 118 ع.ج

(السنة الثامنة عشرة بعد المائة من العهد الجديد)

(2)

عزيزي محمد..

كيف يمكن لإنسانٍ أن يتبخر فجأةً كما يتبخر خيط من الدخان، ثم يتلاشى أثره كأنه لم يكن موجودًا قط، ويستغرب الناس سؤال أحبائه عنه ويلومونه عليه، وكأن اختفاءه كان أمرًا مفروغًا منه بمقاييس الفيزياء وقوانين الطبيعة؟

لم أترك مكانًا من المحتملِ -أو المستبعدِ حتى- أن تتواجد فيه ولم أبحث فيه، قصدتْ كل المشافي وأقسام الشرطة ودور الإيواء والفنادق لأسأل عنك، راجعت قائمة معارفك القلة، وتواصلت معهم دون جدوى، بعضهم كنت أرى في عيونهم وألمح في أصواتهم مزيجًا من الأسف والرغبة في الهروب، والباقون ينفون أنهم يعرفون أحدًا باسمك. كنت أذكرُهم بمواقف شهدتُها لك معهم، ثم طفح الكيل يا محمد، واليوم كسرتُ كأسًا زجاجية على رأس مصطفى محيسن، زميلك ذاك في الكلية وشريك مكتبك، ذهبت وسألته عنك، أنكر أنه يعرفُك، ذكّرتُه مرارًا..

"كيف لا تعرف أحدًا بهذا الاسم؟ محمد! محمد فريد إسلام! الذي كان يجلس على مكتبه مقابل مكتبك، هنا في هذه الغرفة!"

"لا أعرف عمن تتكلمين، لم يكن في هذا المكتب سواي منذ خمس سنين"

"هل تمزح؟ كيف تنكر الرجل الذي هاتفتْه في أبريل الماضي وشكوت له تعنت رئيس القسم معك؟ محمدًا الذي قابلته وإياي في المنتزه وعتبت عليه أنه لم يدعُك لزفافه، كيف لا تعرفه؟!"

"يبدو لي أنك مخطئة أيتها السيدة، إما أنك تقصدين أحدًا غيري أو أنكِ مريضة"

لم أطق صبرًا أمام إصراره على إنكار معرفته بك، درت بعينيَّ في الغرفةِ فرأيت كأسًا زجاجية على منضدة، التقطتُّها وضربته بها على رأسه فانكسرت الكأس وسال دمه، صرخ فاقتحم بعض الموظفين المكتب. طلبوا أمن الكلية، والذي طلب بدوره الشرطة، وهناك فُتح لي محضر، وكان زميلك يصر على أنني لا بد أن أسجن أو أُدخل مصحًّا عقليًا، ولولا توسط ليلى جاد الحق لكنت الآن بائتةً في زنزانةٍ ما، قالت لزميلك إن أعصابي تالفة منذ موت صديقتي قبل ثلاثة أشهر، ولولا إلحاحها عليه لما تنازل عن دعواه ضدي.

هل ترى يا محمد؟ لقد بدأت أفقد صبري واحتمالي لاختفائك وإنكار الناس إياك، اليوم ضربتُ رجلاً على رأسه، وغدًا سوف أقتل رجلاً آخر، هذا وقد بدأت تراودني الشكوك بشأنك، أقول لنفسي لو كنتَ حقيقيًا لوجدتُ أثرك في مكانٍ آخر غير رأسي وحياتي، ولكن يبدو أنكَ لست حقيقيًا، لأنه لا أحد غيري يعرفك. متى سيحلو لك أن تحل هذه المسألة من جذورها وتمحو وساوسي؟ هل بعدما أضيعُ نفسي؟ اسمع، لا يحق لك

أن تفعل هذا بي، لست إلى هذا الحد ضعيفة أو عاجزة، إنني أستطيع أن أستأصلك وألقيك خارج دماغي وأنسى، وأحبُّ أن أكون الوحيدة التي تؤمن بوجودك عندما ينكرك الجميع، وهذا يتوقف عليك.

قل لي: ماذا فعلت لكي يتنكر لكَ الآخرون ويصروا على أنك لم تكن موجودًا في يومٍ من الأيام؟ أو ماذا فعلت أنا لتودي بي إلى هذا الجنون؟ أنا لا أبالي بما يقوله الجميع، يهمني فقط أن أعرف الحقيقة، افعل شيئًا ما.

رئيفة علاء الدين

القاهرة – العباسية

17 سبتمبر 118 ع.ج

10:20 مساءً

(3)

عزيزي محمد، لقد عادت أختي هِندة.

رن جرس الباب ليلة أمس في العاشرة وخمس وأربعين دقيقة، وعندما فتحت وجدتها أمامي مثل قضاء الله إذا نزل، جمدتني المفاجأة! في يدها حقيبة سفر وعلى وجهها ابتسامة ظفر لطالما أشعرتني بعدم الراحة، تلك الابتسامة التي كانت تبتسمها عندما تريد أن تقول لي: أرأيت؟ تبين أنني على حقٍّ من جديد وأنك المخطئة!

أول ما رأيتها أدركت أنني في مشكلةٍ حقيقية؛ إذ كيف سأقنع ليلى بأن تقبل إقامة امرأة مثل أختي في بيتها؛ غريبة الأطوار، فظة، عدائية، شريرة، تفتقر إلى الذوق والأدب، فوضوية وخطرة أحيانا؟ هذا كثير على ليلى، وبخاصةٍ بعد ما جرى أمس في قسم الشرطة واضطرارها في الأسابيع الأخيرة للركض خلفي وانتشالي من المآزق التي أضع نفسي فيها، ليست مجبرةً على تحمل أيٍّ من هذا كله، كما أن لديها من الهموم ما يكفيها ويزيد!

إنك لا تعرف أختي هندة، لم أخبركَ عنها لأنها ليست أحدًا أحب كثيرًا أن أتكلم عنه، وما دامت علاقتي بها قد انقطعت قبل ثلاث سنوات من لقائنا فإنني لم أجد داعيًا لإخبارك عنها، ثم ماذا كنتُ لأقول لو أنني أردت ذلك؟ هل أقول: عندي أخت شريرة وليس بوسع قوة في العالم أن

تمنعها من ارتكاب الحماقات وتدمير أشياء الآخرين تماشيًا مع رغباتها الرعناء؟ هذه فكرة سيئة، أسوأ من عودتها نفسها!

سألتها كيف عرفت مكاني؟ فنظرت إليَّ وابتسمت ابتسامتها تلك، كان سؤالاً غبيًا؛ ألا أعرف أختي؟ تستطيع فعل أي شيء تريده.

بعد أن تجاوزتني ودخلت -متجاهلةً بالطبع طلبي منها أن تخلع حذاءها- راحت تتأمل المكان وهي تصفر بشفتيها اللحن الذي كانت تهدهدني به عندما كنت طفلة، أخذت تحدجني بنظرة من حين لآخر، ثم تفحصت بعض عناوين الكتب على الأرفف بلا مبالاةٍ وتعالٍ دون أن تتوقف عن الصفير، تفاقمت عصبيتي من صفيرها، لو أنني فقط أمتلك الجراءة الكافية لمددتُ يدي إلى عنقها ولم أتركها حتى تلفظ روحها!

"إذًا فقد وجدت السُوسة بيتًا آخر تدخله!"

قالت وهي تغمز لي بعينها اليسرى، ازدردت ريقي ولم أفُه بكلمة.

"ألا تشعرين بالسعادة لعودة أختك الكبرى؟"

أردفَت، بينما تمرر أصابعها على كعوب الكتب دون أن تنظر إليّ. كان بوسعي أن أرى أظافرها طويلة، مبرودة، ومطليةً بالأحمر. هي تعرف ما قد أشعر به تجاه عودتها، سؤالها ليس حقيقيا!

"أنا سعيدة بالطبع، أهلا بكِ يا أختي"

أجبتُها وأنا أحاول اخفاء ارتباكي وضيقي.

"أعرف أنكِ سعيدة"

ردت بعد أن التفتت إليَّ وضحكت ضحكةً قصيرةً وهي تُميل رأسها إلى اليسار وتزم شفتيها وتتفحص وجهي.

"ثمة شيءٌ ما تغيرَ فيكِ"

خفت. إن بإمكانها أن تُعري دواخلي بنظرة، تذكرتُ عندما قالت لي من قبلُ إن بنتَ عمنا تقابل رجلاً، سألتها ساعتها كيف عرفت، فقالت أنه لا توجد امرأةٌ تستطيعُ أن تخفي الآثارَ التي تركها عليها رجلٌ، عن عين امرأةٍ يقظة، وأنها مهما حاولت سيظهر في نظراتها، في حركاتِها، أو في اشارات يديها. فورًا أغمضتُ عينيَّ وشبكتُ يديَّ خلفَ ظهري؛ أحاول أن أُخفي أي آثارٍ قد تستدلُّ بها عليك.

أنقذني رجوع ليلى إلى البيت في تلك اللحظة، كنت أفكر عندما دخلت ماذا بوسعي أن أقول لها عن أختي التي أتت مع حقيبة سفر دون سابق خبر، لكنها نظرت إليها نظرةً متفحصةً طويلة ثم نقلت عينها إليَّ بنظرة متفحصة أخرى، ومرت إلى غرفتها دون أن تقول شيئًا.

"متعجرفة!"

قالت أختي بحنقٍ ظاهر، بينما كنت أفكر كيف ستكون ردة فعل ليلى فيما بعد، لعلها الآن تقول في نفسها إنني أعاني كثيرًا هذه الأيام، ولا تريد انتقاد أفعالي، لكن معرفتي بها تؤكد أنها لن تمرر هذا الأمر دون وضع حدود.

بالطبع أخبرت أختي عنك، لم تسألني صراحةً لكن كان عليَّ أن أخبرَها بكلِّ شيء حدث منذ تركتها قبل خمس سنين، لو لم أفعل لعاقبتني، ولا أستطيع أن أخبرك كم هو رهيب عقاب أختي هِندة.

حكيتُ لها كلَّ شيء، وهي تسمعني مكتفيةً بتأملي وأنا أتكلم، كأنها تسبر أغواري لتستشفَّ إذا ما كنتُ صادقةً أو أحاول خداعها، وإذا ما كنت أخبرها كل شيء أو أقلص مساحة الحقيقة وأنا أسردها عليها.

لم تبدُ لي متفاجئة بما كنت أقول، فقط كانت تُثبِّتُ عينيها عليَّ مثل حربتَين، أشعر بوخز نظراتها على جلدي، حتى أنني للحظاتٍ خلتُ العرقَ الذي يتقاطر على وجهي دمًا، ولولا أنني مسحتُه بظهر كفي ونظرتُ فيها ولم أجد لونًا أحمر، لأُصبتُ بنوبة هلع.

عندما انتهيت من سرد كلِّ شيء سكتُّ منتظرة ردها، لم أكن أستطيع التنبؤ به، وأنا جالسة أمامها مثل سجين ينتظر نطق القاضي بالحكم، فظيع أن يكون لك أخت مثل أختي هِندة!

كنت أسمع صوت أنفاسي في انتظار كلمةٍ منها، مرت ثوانٍ كأنها سنواتٌ قبل أن تتحرك أخيرًا، صفعتني صفعةً شعرتُ بها داخل دماغي ووجدت زلزلتها في أذني..

"لا زلتِ غبيةً ومُختلةً كما أنتِ، غبية ومختلة تماما!"

قالت بالهدوء نفسه الذي يستطيع به المرء أن يسوق حقيقةً مسلمًا بها ولا تحتاج إلى الشرح.

لكم أكره أختي!

رئيفة علاء الدين

القاهرة – العباسية

21 سبتمبر 118 ع.ج

الثالثة ظهرًا

(4)

كيف حالُك يا محمد؟

إنني أشعر بخزيٍ رهيبٍ بسبب الكلام الذي قلته لك عن أختي هِندة في الرسالة السابقة، لقد كنت متحاملةً عليها، ولعل ذلك كان بسبب طزاجة غضبي منها عندما صفعتني، تعرف أن الإنسان عندما يغضب من شخصٍ -وإن كان يحبُّه- يراه أسوأ واحد على وجه الأرض حتى ولو كان ملاكًا بجناحين، فكيف إذا كان إنسانًا بسيطًا مليئًا بالعيوب والخطايا؟ أعتقد أن بشريةَ الذين نحبهم تساعدنا وقت الغضب على مَنطَقة شعورنا العدائي تجاههم، وكلما زاد حظُّهم من العيوب ساعدنا هذا على شيطنتِهم وتبرير كراهيتنا اللحظية الخاصة.

لا أزعم أنني شُفيتُ من تلك الصفعة، لا زلت أجد أثرها على وجهي وطنينًا خفيفًا في أذني، وصُداعًا لم تُفلح المُسكِّنات في تخفيفه منذ أمس، لكنني الآن لستُ حانقة عليها، ولا يسعني أن أكون جاحدةً إلى هذا الحد، لا، لست تلك المرأة التي تنسى أفضال أختها عليها بسبب صفعةٍ واحدة صفعتها إياها خوفًا عليها!

حسنًا؛ إن أختي لا تخلو من الفظاظة والحدة، وأحيانًا كثيرة تُخيفني تعبيراتها وتصرفاتها، لكنها مع ذلك أختي الكبرى التي تحملتني كثيرًا وحمتني من اليأس والموت والجنون، وما زالت تعتني بي حتى أصبحت

الجدار الذي أستند إليه وأستظل به، ولولاها ما كانت في هذه الحياة رئيفة منذ زمن بعيد.

إنها ليست سيئة، صدقني، صحيح أنها شديدةٌ عليَّ بعض الشيء لكني أؤكد لك أنها تحبني وتخاف عليَّ وتحرص على حمايتي حتى من نفسي. لا زلت أذكر كيف واستني واحتضنتني بعد وفاة أبي وأمي، وكيف كانت تخفف عني قسوة زوجة عمي وتسليني عندما نأوي إلى الفراش ليلاً، كانت تقصُّ عليَّ حكاياتٍ مشوقةً للطفلةِ التي كنتها فتساعدني على التخفف من بشاعة حياتي، أذكر حكاية البقرة الكاذبة التي نالت عقابها والقرد المشاغب الذي وقع في شرِّ أعماله، حكاية البنت اليتيمة التي وجدت كرةً سحريةً ودلفت منها إلى غابةٍ جميلةٍ وعاشت مع الحيوانات وتكلمت لغتهم، وحكاية الجِنِّيَّة التي أحبَّتْ بشريًّا فتنازلت عن قدراتِها الخارقة لتكون معه في عالمِه فحوَّلها إلى دميةٍ صغيرة، وظلت تبكي طوال حياتِها دون أن ينتبه لها، رغم أنها أمامه طوال الوقت.

كلما تذكرتُ الكلام المشين الذي قلتُه عنها أمس تفاقم شعوري بالعار من نفسي، وأجدني الآن مسؤولةً أمامك عن تبرير موقفي المخزي منها، فأرجو أن تتفهَّمني ولا تتخذ منها موقفًا. إن أختي هي أهم شخص في حياتي بعد وفاة والدَينا، أدين لها بالفضل في بقائي حيةً حتى الآن، إذ كان وجودها الشيء الوحيد الذي يُهونُ عليَّ تعاستي وشقاء طفولتي..

"سوف ينتهي كلُّ هذا ويمر يا رئيفة، صدقيني"

"متى سينتهي؟"

"لا أستطيع أن أعرف، لكنه سينتهي"

"وماذا بعد أن ينتهي؟"

"سوف نرى أيامًا سعيدة"

"سعيدةً كيف؟"

"سوف يكون لنا بيتٌ يخصُّنا، بيتٌ ننتمي إليه كأصحابٍ أصيلين لهم كامل الحق فيه لا كالسُّوس الذي يُشمأز منه وتُتخذُ الحيلُ للتخلص منه، بيت يحبُّنا ونُحبُّه"

"وهل تُحِبُّ البيوت؟"

"بالطبع! تُحِبُّ أصحابها إذا أحبوها واعتنوا بها، ونحن سنحبُّ بيتَنا ونعتني به، سوف نُبقيه دائمًا نظيفًا، مُرتَّبًا، أنيقًا وذا رائحةٍ فوَّاحة، ولن نسمح لأحدٍ بغيضٍ أو مُتطفلٍ أن يدخلَه ويُضايقَه، ولذلك سيُحبُّنا"

"هل تتضايق البيوت؟"

"نعم، تتضايق إذا تُطفِّل عليها وفُضحت أسرارُها، وإذا دخلها أحدٌ لا يُحبُّ أصحابها"

"وماذا أيضًا؟"

"سوف يكون لدينا الوقت الكافي لنتمطى في السرير بسعادة قبل أن ننهض صباحًا، لن تكون هناك امرأةٌ شمطاء نخاف منها ونصحو على صوتِها فزِعتين خائفتين من العقاب، وعندما تفتحين عينيك سيكون أول ما ترينه ابتسامتي وأنا أغني لكِ كما كانت تفعل ماما فور استيقاظنا صباحًا:

"صباح الخير يا جبنة طرية..

"يا عسل أبيض من قلب الخليَّة..

"هل ستكون عندنا فساتين كثيرة مُلونة؟"

"بالتأكيد!"

"وأكل كثير لذيذ؟"

"وحلوى من التي تُحبينها أيضًا"

"وأمي؟"

"لا، هذه لن تكون عندنا أبدًا، وعليكِ أن تدركي هذا جيدًا وتقبلي به".

***

لولا أختي هِندة لانتهيت منذ زمن بعيد يا محمد، لقد كانت جارات زوجة عمي يسألنني دائمًا وأنا طفلة كيف بوسع صغيرةٍ هشةٍ مثلي ونحيلة أن تصمد أمام تعذيبها، وكنت أقول إن أختي هِندة تحميني وتتلقى الضربات عني، كن يضحكن لي ويقُلن إنني محظوظةٌ جدًا، ولطالما كنت كذلك بالفعل.

أرجوك؛ انسَ كلَّ ما قلتُه في الرسالة السابقة عن أختي لأنه ليس صحيحًا، ليست ذلك الشخص السيء الذي حاولتُ أن تبدو عليه.

رئيفة علاء الدين

القاهرة – العباسية

22 سبتمبر 118 ع.ج

السادسة صباحًا

(5)

عزيزي محمد..

لماذا لم يُتَح لنا الوقتُ الكافي ليشبعَ أحدُنا من حبِّ الآخر على مهل؟ أمس قلتُ لنفسي أن الحياةَ غيرُ منصفة، لكن مقولتي هذه لم تعجبني وسرعان ما تراجعتُ عنها.

ما زلت لا أجد نفسي في المرآة، ما زلت أقف أمامها فأراها فارغةً تمامًا رغم أني فركتُها بأوراق الجرائد طوال عشرين دقيقة، ولم يكن ذلك مجديًا. عندما يئستُ من الحصول على انعكاسٍ يُثبت لي أنني لستُ هواءً في هذا العالم ولستُ سُوسةً أصغرَ كثيرًا من أن تظهرَ في مرآةٍ جلستُ على طرف السرير وبكيت، بكيتُ كثيرًا حتى تصدَّع رأسي ونفد مخزوني من الدمع دون أن ينفد مخزوني من الحسرة.

لم تكن أحلامي عصية، ولا كان فيها ما يكدر صفو البلاد ولا ما يخل بنظام العالم، كنت أريد فقط أن يكون لي مأوى، أن يكون للسوسة التي عاشت حياتها غير مرغوبة بيت لا يلفظها، أن أفتح نوافذه في الصباح الباكر وأعد مائدة فطور، أن تشرق الشمس رويدًا من الشباك فتستلقي ظلالُها على أثاث حجرة المعيشة، أن نجلس معا لتناول الإفطار ولو صامتين، أن أودعَك إلى عملك وأدعو لك بالسلامة، أن أنظف الأرضيات التي أعرفُ أنها لي، وألمع الأثاث الذي نجلس عليه أنا وأنت، وأنفض

الفراش الذي يحتضننا. أردتُ أن أطبخ لك، رغبتُ كثيرًا أن أطبخ لك، ولم أطبخ لك كثيرا بقدر رغبتي، أردتُ أن أغسلَ ثيابك، أن أنتظرَ دوران مفتاحك في الباب آخرَ النهارِ وصوت قدومك، أن نتبادل أطراف الحديث قبل النوم، وأن نشيخ معًا على وسادةٍ واحدة، رغبتُ بشدةٍ أن نكون معًا حتى الموت، والآن لا أدري كيف حيل بيني وبين ما أردتُ بعد أن أصبح أخيرًا عيشي وحياتي، إنني حتى الآن لم أفهم، لم أستوعب حقًّا ما يجري!

ماذا حصل يا محمد؟ هل طالت أحلامُ يقظتي حتى ظننتها حقيقة ثم أفقتُ فجأة؟ هل كانت كل أيامنا معًا مجردَ أوهامٍ في خيالي؟ هل كنت أنت؟ تُرى لماذا تقسو علينا أقدارنا إلى هذا الحد؟ إذا كان ذنبًا ارتكبتُه فلأعرفْه لأتوب منه، ربما ينقشع عني هذا الكابوس، إنني أكاد أموت تحت وطأة هذا الحزن يا ربي، أكاد أُجن!

كم من المضحك أن يتخلخل وعي امرأةٍ فجأة فلا تعودَ تفرق بين الوهم والحقيقة في شأن رجلٍ ورغم ذلك تترك له عنوانها في كل مرة، ومع ذلك سأظل أفعل، إذا كنت حقيقيًّا فأنا أترك لك عنواني يا حبيبي، دائمًا.

رئيفة علاء الدين

القاهرة – العباسية

26 سبتمبر 118 ع.ج

الواحدة ليلاً

(6)

عزيزي محمد..

اعذرني في تأخر رسالتي إليك، إنني أستطيع بصعوبة الإفلات من مراقبة ليلى وأختي هندة، كما أن معظم وقتي مشغول بالبحث عنك، وكالعادة دون جدوى.

كلما استرجعتُ حياتنا معًا أحسست بالتشويش وقلتُ لنفسي: "هذا ليس حقيقيًّا"، وعلى الرغم من ذلك لم أستطع أبدًا أن أقبل ما أقوله لنفسي. أختي هِندة أيضًا ترى أنك لستَ إلا وهمًا اختلقتُه في رأسي، وعندما سمعتني أكلم نفسي وأنكرُ وجودَك في الحقيقة لم تُفوِّتْ ذلك، أيَّدتْ ما قُلتُ بشدة، لم تُخفِ فرحتْها ووضعتْ يدها على يدي بحنانٍ كنتُ قد اشتقتُ إليه، قالت لي أنها تُريدُ صالحي وأنني لن أجني خيرًا من وراء الاعتقاد بوجودك والبحث عنك، وأنني أسدي معروفًا إلى نفسي إذْ أعترف بهذه الحقيقة وأُخرجك من دماغي.

لقد فرحتُ بإبداء أختي هِندة تلك العاطفة نحوي أخيرًا، وافقتُها على ما تقول، نعم، وافقتُ على إخراجِك من رأسي، قلتُ أنني سأنسى أمرك تمامًا، وأنك إذا لُحتَ لخيالي سأتجاهلُك وأتشاغل عنك حتى تتبدد، سامحني أرجوك، إنني لا أحتملُ ضغطَها عليّ، ثم إن.. ثم إن هذا الرضوخَ مهم حتى ترتخي قبضتُها عني وأستطيع البحث عنك بأريحية أكثر، لا تزعل

مني، إنني حقًّا لا أنوي أن أخرجَك من رأسي، وحتى لو أخرجتُك من رأسي يا محمد فمن يُخرجُك من صدري؟ إنك مُقيمٌ هنا مثل عصفورٍ بنى عشَّه منذ بدء الخلق.

أحيانًا أحاول التشبُّث بأي أثرٍ تركتَه لي كي أدلل لنفسي على وجودِك، أقول: "ليس موجودًا هنا والآن، لكنه بالتأكيد يتنفسُ في مكانٍ ما، يضحك ويتكلمُ ويغضبُ ويكتب كأنما يُطلق الرصاص في مكانٍ ما". لكنني أعود فأذكر أنني لم أكن يومًا متأكدة من وجودك حتى عندما كنت معي، وكنت دائمًا أتردد وأقول لنفسي: "هو مجردُ شخصيةٍ اختلقَها خيالي وليس موجودًا خارج رأسي" وأطمئن إلى هذا الرأي، إذ وجودُك الآن في الحقيقة بهذه الظروف يُعدُّ كارثة وأنا تعبتُ من الكوارث، لذلك حبذا لو كنت مجرد شخصٍ غريبٍ في رأسي، على الأقل الآن.

هل قلتُ لكَ إن ليلى تنظرُ لي نظراتٍ تثيرُ شكي في نفسي؟ أحيانًا أظنها نظرات إشفاق، وأحيانًا أحسبُها تتوجسُ مني، ولمراتٍ كثيرةٍ تراءى لي أنها تُفتشُني بعينيها، تُفتشُ عينيَّ ووجهي ويديَّ ومسامَ جلدي وشعري كما يُفتش شُرطيٌّ جيوب لص، وعندما أفسرُ نظراتِها على هذا النحو أخاف من أن تجدك هناك؛ في عينيَّ أو في يدي أو مسام جلدي أو شعري، إنها تربكني!

لماذا أرتبك وأخاف أن تجدكَ فيّ؟ لا أدري، ربما لأنني لستُ متأكدةً من وجودك، أو ربما متأكدةٌ ولكنني لا أملك الدليل الذي يسعني أن

أواجهها به، ولذلك أتعامل بحذر وأحرص على ألا أذكرك أمامها وألا أقول حتى إنني أبحث عنك، لا أحتمل أن يقول لي أحد آخر إنني أبحث عن سراب وأنك لست سوى وهم، وأن ينصحني بالتخلي عما ليس له وجود خارج رأسي، لقد تعبت!

عندما بُحتُ بمخاوفي هذه لِلَميس قالت لي إنني أتوهم وأن أعصابي مُتلفة وأنني ما زلت أعاني اضطراب ما بعد الصدمة، أكدت أنني ينبغي أن أغير الهواء الذي أتنفسه وعرضت عليَّ أن تستضيفني لأسبوعٍ في بيت أبيها بالقرية، وكأن المشكلة في الهواء يا محمد!

منذ أيام وأنا أُحسُّ بشيءٍ ما في جسمي، شيءٍ يُنهكُني ويجعل خطواتي أثقل، أُحسُّ بجسمي أشد كثافة وأنني مُختَرَقةٌ على نحوٍ مُريع! ثمةَ شيءٌ لا أعرفُ ما هو يتمددُ فيَّ براحةٍ ويسبب لي تعبًا غامضًا، يا للهول! أشعرُ الآن وأنا أكتبُ لك أنني بتُّ مسكونةً تمامًا، وأخافُ من هذا الشعور.

رئيفة علاء الدين

القاهرة – العباسية

5 أكتوبر 118 ع.ج

الواحدة ظهرًا

(7)

عزيزي محمد..

حتى الآن لا أجدُ نفسي في أي مرآة داخل الشقة أو خارجها، ولا أعرفُ إلى متى سيستمرُّ هذا الوضع، لقد بدأتُ أشكُّ في وجودي، ورغمَ هذا الشك ما زال جسمي يتقلَّبُ في غرابةِ أطوارِه.

كانت أختي هِندة تهتمُّ بي في الأيامِ الماضيةِ اهتمامًا بالغًا في الظاهر،لكني كنت أعرفُ ما وراءَ هذا الاهتمام؛ إنها تحاولُ مُحاصرتي، كنتُ وعدتُها بأن أُخرجَكَ من دماغي لكنَّ ذلك كانَ مجردَ حيلةٍ للتخلصِ من غضبِها، إنكَ في صدري، في صدري، لا يُمكنُني أن أتخلصَ منك حتى لو أردتُ ذلك، بوسعِ أختي هِندة أن تُحاصرَني، أن تُراقبَني وتفرضَ سيطرتَها عليَّ، لكنها أبدًا لن تستطيعَ أن تنتزعَكَ من رأسي ولا من صدري، ليس لأني لا أستطيع فقط، بل لأني حتى لو استطعت فأنا لا أريد أن أنساك، حتى وإن كنت وهمًا فإنني لن أتخلى عنك.

البارحة ضبطتني وأنا أكتب رسالةً لك، استشاطت غضبًا ودفعت الحاسوب بيدها في غيظ لكنني أنقذتُه، حتى لقد كادت تضربُني. قالت لي إنها ستكسرُ رأسي إذا رأتني أكتبُ لك مرةً أخرى، وعندما هدأت قليلاً لانتْ نبرتُها وصارت أكثر لطفًا، جلست إلى جانبي ووضعت يدها على

خدي وطلبت مني بهدوء أن أخرجَك من رأسي، عندما قلت لها إنك زوجي ولا يُمكن لي أن أنساك بهذه السهولة استشاطت غضبًا من جديد!

"أنتِ تُدمرين نفسَك، لطالما خفتُ عليكِ من رأسِك اللعين هذا!"

"أنتِ لا تعرفين شيئًا ومع هذا تتسلطين على حياتي وتأمرينني فيما لا تعرفين وتنتظرين مني دائمًا أن أُطيعَك!"

"الآن بتُّ متسلطةً يا رئيفة؟!"

قالت بنبرةٍ عاتبةٍ فوخزني خجلٌ شديدٌ وندمتُ على انفلاتِ لساني.

"هل تستطيعين أن تُريني دليلاً واحدًا ملموسًا على وجود هذا الرجل على أرض الواقع، أعني خارجَ رأسِك؟"

"نعم". قلتُ بعد تفكير..

"لديَّ بالطبع دليلٌ على وجوده".

ضيقت عينيها متشككةً.

"وثيقة الزواج".

"أرينيها".

التقطتُّ المفتاح من قلب المزهريةِ وفتحتُ ضلفةَ المكتب وأخرجتُ صندوقي الخشبي الذي أحتفظ فيه بأشيائي الثمينة والمهمة، فتحتُه، بحثت، لم تكن هناك أي وثيقة زواج!

"لقد أخذتِها!".

"مَن أخذ ماذا؟!"

"أنتِ أخذتِ وثيقة الزواج!"

"هراء"

"أنا متأكدة، لقد سرقتِها مني!"

"هل أنتِ مجنونة يا بنتي؟ متى أخذتُها ومن أين لي العلمُ بها أصلاً!"

"لا أعرفُ متى فعلتِ ذلك، لكنك تعرفين عنها لأني أخبرتُك بزواجي من محمد ليلةَ عُدتِ، لا بد أنكِ بحثتِ عن الوثيقةِ وأخذتِها!"

"طيب.. إذا كنتُ بحثتُ عنها وخمنتُ أنها في هذه الخزانة لأنها مُغلقة، كيف لي أن أعرف مكان المفتاح؟ إنك تحفظينه في مكانٍ لا يخطر على بال الجن الأزرق!"

"ليس صعبًا أبدًا أن تعثري على المفتاح"

"لقد جُننتِ فعلاً!"

"لا تُحاولي خداعي. أين الوثيقة؟"

"لا أعرف، ولم أعرف عنها إلا حين أخبرتِني أنتِ الآن، ثم لماذا سآخذُها؟"

"لأنكِ لا تُحبين محمدًا"

"ولماذا برأيكِ لا أُحبُّه؟"

"لأنكِ تعتقدين أنه يؤذيني". قلتُ بارتباكٍ بعد تفكير..

"ولماذا أعتقد أنه يؤذيكِ؟"

"لأنكِ لا تعرفينه، لو عرفتِه لأدركتِ أنه من المستحيل أن يؤذيَني"

"جميل، هذا جميل، ولماذا لا أعرفُه؟"

"لأنكِ لم ترَيه"

"بالضبط، هذا هو، بالضبط: لم أرَه؛ لأنه ليس موجودًا إلا في رأسِك!"

"بل موجود، موجود ويُحبني وتزوجنا"

"أين هو؟"

"لا أعرف أين هو الآن، لكنه موجود"

"أرأيتِ؟ لا تعرفين حتى أين الرجل الذي تزعمين أنه حقيقيٌّ وأنكِ تزوجتِه، وعلى الرغم من هذا تريدين مني أن أصدقَ هذه الأوهام!"

"لن تفهميني!"

"بل المشكلةُ أنني أفهمُك يا رئيفة، وهذه ليست أول مرةٍ تختلقين فيها شخصًا في رأسِك ثم تُخرجينه على الورق وتُكلمينه وتؤلفين حكاياتٍ عنه وتزعمين أنها حدثت لكِ معه، هل تذكرين مُوشكا؟"

"مُوشكا كانت صديقةً خيالية، كل الأطفال يتخذون لأنفسِهم أصدقاء خياليين"

"وماذا عن الفتى المدعو زاي؟"

"لكنَّ الفتي المدعو زاي حقيقي، أنتِ تعرفين ذلك!". قلتُ مُحتجَّة!

"ليس حقيقيًّا ولم يكن له وجودٌ قط!"

"بل حقيقيٌّ وهو الذي أنقذني يوم الحريق!"

"فتى وهميٌّ وبقدراتٍ خارقةٍ أيضًا!". قالت ساخرة!

"لا تسخري منه، لقد أنقذني، ومن بعدها صار يأتي بعد أن ينام الجميع ويعطيني خرزةً كل ليلةً حتى صنعتُ ذلك العقد"

"أنا من أنقذتُك يوم الحريق، والخرز كنتِ تجمعينه بالليل من الثياب القديمة لزوجةِ عمك، هل تذكرين الليلةَ التي استيقظت فيها وضبطتُك وأنتِ تسرقين الخرزَ في غرفةِ الأغراض القديمة؟ هل تذكرين كيف ارتبكتِ وبكيتِ؟"

"لم أسرق، وارتبكتُ لأنني خفتُ أن تَرَي الفتى المدعو زاي فيكفَّ عن المجيء إليَّ"

"إذا كان هو مَن كان يعطيكِ الخرز فلماذا كنتِ تذهبين إلى غرفةِ الأغراض القديمة؟"

"لأن الفتى المدعو زاي كان يعيشُ في الأغراض القديمة"

"كان يعيش! وأين يعيش الآن؟"

"لا أعرف؛ لقد كفَّ عن المجيء منذ تلك الليلة لأنك دخلتِ الغرفة فجأة"

"لكنني لم أرَه عندما دخلت!"

"هذا لأنه كان صديقي أنا، ولكي يراه أحدٌ غيري كان يجب أن أُعرِّفَك عليه أولاً"

"ولماذا لم تعرفيني عليه؟"

"لأنك لستِ شخصًا يحبُّ الآخرين بسهولة، وكنتِ ستُعاملين صديقي بطريقة سيئة"

"خطأ، لم تعرفيني عليه لأنه لم يوجد إنسان حقيقي اسمُه زاي"

"إنك مثلما كنتِ دائمًا ولم تتغيري؛ لا تريدين تصديق ما لا يروقك، كل ما تفعلينه هو فرض ما تريدين رؤيته كأمر واقعٍ حتى ولو لم يكن كذلك!"

"يا رئيفة؛ إنكِ بنتٌ عاقلة وكبيرة، كيف تقتنعين بهذه الأفكار؟ كيف لا ترين كم غريبٌ أن يكون في حياتك أشخاص لا يراهم ولا يعرفهم غيرك؟ ألا ترين الأمر غريبًا؟ أسماءهم العجيبة والأوقات التي يظهرون لك فيها بمعزل عن الناس ثم الظروف التي يختفون فيها دون أن يتركوا أي أثر؟ كيف تُقنعين عقلك بهذا كله يا حبيبتي؟"

"لا تُتعبي نفسك، لن تفهم إحدانا الأخرى"

"لقد تغيرتِ كثيرًا يا رئيفة!"

قالت بنظرةٍ سارحةٍ وهي تتأملُني وعلى وجهها أسفٌ رهيب!

"لكنكِ ما زلتِ تعيشين في خيالِك أكثر مما تعيشين في الواقع، أي أنكِ لم تتغيري من هذه الناحية"!

إن أختي هِندة تستغلُّ أحداثًا قديمةً لم تقتنع بها لتنفيَ الواقعيةَ عن قصتِنا يا مُحمَّد، أنا أُدركُ أن تلك الأحداث لا تبدو منطقيةً أو معقولة، لكنها حصلت رغم ذلك، ولا أستطيعُ إنكارَها فقط للتخلصِ من المتاعب التي يُسببُها لي الكلامُ عنها، ومع ذلك ليس من الأخلاقي استخدامُ تلك الأحداث التي نختلف حولَها أنا وهي لإنكارِ أحداثٍ أخرى لم تكن مُعاصرةً لها.

اكتب إليَّ في أقرب فرصةٍ، إنكَ مُجبرٌ على ذلك وليس أمامنا خيارٌ آخر، اكتب لي لكي أستطيعَ العيشَ ولكي تكفَّ أختي هِندة عن تبكيتي وتوبيخي، لقد مللتُ من محاولاتِ ترقيعِ أدلةِ وجودِك، تعبتُ من الصراخِ بأنكَ حقيقيٌّ وأنَّها فقط لم تُقابلك، اكتب لي أرجوكَ لأنني لا أعرفُ إلى متى سأصمدُ وأخافُ أن أُصدِّقَ أنكَ موجودٌ فقط في رأسي!

يا مُحمَّد؛ لا تضربني بإيماني بك.

مكتبة
t.me/soramnqraa

رئيفة علاء الدين

القاهرة – العباسية

29 أكتوبر 118ع.ج

السابعة صباحًا

(8)

عزيزي محمد..

لا يُمكنُنا أن نتخلَّصَ من الخوفِ إلي الأبد، لكن بوسعِنا أن نتخطاه في كلِّ مرة، صحيحٌ أنَّنا سنتجاوزُه لنصطدمَ بخوفٍ آخر، لكنَّ تتابعَ المخاوفِ أفضلُ من التوقُّفِ مثلَ سيارةٍ مُعطلةٍ عندَ خوفٍ واحد.

لقد قرَّرتُ الاستقلالَ بحياتي، سأتركُ "شقةَ البناتِ" وأسكنُ في مكانٍ آخر، يعزُّ عليَّ أن أتركَها لكنَّها لم تعدْ بعدَ زينب وكاميليا "شقةَ البناتِ" التي كنت أحبها على كلِّ حال. إلى أين سأذهب؟ هذا هو السؤالُ الذي كنتَ لتسألَنيه لو كنتَ حقيقيًّا وتقرأُ رسائلي في الجانبِ الآخرِ من العالم، وكنتُ سأُجيبُكَ بأنَّني أبحثُ عن شقةٍ لأستأجرها في وسط البلد، رأيتُ إعلاناتٍ كثيرة على الانترنت وجمعتُ أرقامَ هواتفِ المالكين وسأجري الاتصالاتِ الليلةَ وأذهب غدًا لأراها وأختار شقة منها، ادعُ لي أن أجدَ مكانًا حلوًا وأليفًا.

أنا في غايةِ الحماس لهذه الخطوة الكبيرة في حياتي، لا يُمكنُك تصوُّرُ الإثارةِ التي يُسببُها كونُ رئيفةَ الطفلةَ التي تعرفها ستتصرفُ في حياتِها كامرأةٍ راشدةٍ وكبيرة للمرة الثانية في حياتها، أنت تعرف بالطبع أن المرةَ الأولى التي تصرفتُ فيها كراشدةٍ وكبيرة كانت عندما تزوجتُك.

لقد حسبتُ حسابَ كلِّ شيء، أنت تعرف أنني كنتُ أخططُ للانتقالِ منذ أكثر من عامٍ، قبلَ أن نتزوج، وكنتُ أنتظرُ الوقتَ المناسب الذي تتم

فيه استعداداتي، كانَ من المفترض أن تُلغى خطط انتقالي لأنني معك، كان من المفترض أننا نعيشُ الآن في بيتٍ واحد. لا بأس، خلّنا في اللحظةِ الحاضرة؛ يبدو لي أن بعض الأشياء أخيرًا تسير على ما يرام منذ فترة طويلة.

الآن؛ أنتَ تعرفُ أني أخافُ من العيشِ وحدي، ويبدو موحشًا جدًّا أن أُقيم بمفردي في بيتٍ ما، حسنًا؛ لكنني لستُ وحدي، معي هِندة، صحيحٌ أنَّها أحيانًا تَخنقُني بتحكماتِها وسعيها الدءوب لفرض سيطرتِها عليَّ، لكنني واثقةٌ أنها تُحبُّني، وأنا أيضًا أُحبُّها بالرغمِ من كلّ شيء.

وحتى إذا لم تكن أختي هِندة موجودة ماذا بوسعي أن أفعلَ حيالَ الوحدة؟ عليَّ أن أعتادَ على ذلك ما دمتُ متروكةً وحدي في هذه الحياةِ كغصنٍ يابسٍ على قارعةِ الطريق، وما دمتُ أعرفُ أنَّ أختي قد تختفي من حياتي في أيِّ لحظة دونَ أن تحسبَ حسابًا لشيء؛ هذه أفعالٌ تناسبُ شخصيتَها تمامًا وينبغي أن تُتوقَّع منها.

إنني أحبك، دائمًا وإلى الأبد.

رئيفة علاء الدين

القاهرة – العباسية

7 نوفمبر 118ع.ج

السادسة مساءً

(9)

عزيزي محمد..

إن جسمي يزدادُ غرابةً ويُخيفُني كلما مرَّ الوقت، ثمةَ شيءٌ يحدثُ بالداخل ولا أفهمه، أحسُّ بنفْسي أزدادُ ثقلاً حقيقيًّا مع الأيام، ليست هناك زيادةٌ في الوزن إذا كنت تسأل، خطر لي ذلك لكن الميزانَ حسم الأمر، ورغم ذلك فأنا أثقُلُ شيئًا فشيئًا، أُحسُّ أنني مسكونة. لا أعرف كيف أشرح لك.. هل سمعتَ من قبل عن بيتٍ مسكونٍ بالأرواح؟ أنا أُحسُّ أني مسكونةٌ مثلَ بيتٍ قديمٍ ومهجور، وأعتقد أن الروحَ التي تسكنُني تريد أن تلعبَ معي؛ هي لا تظهرُ لي بوضوح، لكنها بدلاً من ذلك تُشعرُني بآثارِها، بالضبط كما لا يكشف لك شبحٌ عن نفسِه ولكن يسمحُ لك بأن ترى طرفًا من ردائه وهو يمرُّ في الصالةِ أو أن يتخايلَ لك مارًّا بجوارِك مثل البرقِ ويختفي قبل أن تستوثق منه. لا أستطيعُ أن أصف لك ما أشعرُ به تمامًا كما أشعرُ به، لكنني أستطيعُ أن أؤكد لك أن ثمةَ أشياءَ غريبةً تحدثُ في جسمي، أشياء غريبة ومخيفة!

لم أجد نفسي في المرآة بعد، وأقسم لكَ بالله أني صرتُ مهووسةً بتنظيف المرايا، لكن أيًّا منها لا يلتقط صورتي رغم ذلك.

لا زلتُ أبحثُ عن شقةٍ مناسبة، وعندما أقول مناسبة فأنا أقصد أن تحتملها مواردي المالية وتوافق ذوقي.

اكتب إليَّ أرجوك؛ لا تتركْني وحدي أُراقبُ وحدتي وهي تتنامى مثلَ عشبةٍ سامةٍ في قلبي، لا تُفلتني للظنونِ الهائجةِ للآخرين فتجرفَني؛ تجرفَ الإنسانةَ التي أصبحتِ الوحيدةَ التي تؤمن بك!

رئيفة علاء الدين

القاهرة – العباسية

16 نوفمبر 118 ع.ج

4:15 مساءً

(10)

عزيزي محمد، يا حياتي وسعادة حظي..

أرسلُ لكَ الآن من بيتي الجديد في وسط البلد، انتقلتُ إليه صباحَ اليوم.

إنها تُمطرُ بالخارج ولا أستطيعُ أن أُصور لك سعادتي، تجتاحُني نشوةٌ عارمةٌ وبهجةٌ حتى أنَّني لا أُريدُ أن أتذكَّر الآن مشاكلي وآلامي، لذلك أتصالحُ مع وجعٍ شديدٍ في بطني وأتغاضى عن شعوري بالصقيع الذي يضربُ عظمَ كفِّي اليُسرى، أنا سعيدةٌ جدًّا يا مُحمَّد ولا أُريد أن ينغصَ هذه السعادةَ شيءٌ مهما كانَ كبيرًا ومُلحًّا.

لقد أثَّثتُ هذه الشقة بكل عواطفي، فعلتُ ذلك كما لو أنها البيتُ الذي سأسكنُه معك، وتخيلتُك في كلِّ ركنٍ منها وراعيتُ ذوقَك في كلِّ التفاصيل، الشقةُ من غرفتين وصالة ومطبخٍ وحمام، خصَّصتُ غرفةً للنومِ وغرفةً للعمل، أصبحَ عندي غرفةٌ تخصُّني وحدي كما طالبت فرجينيا وولف قبل قرنٍ من الزمان، لأن أختي هِندة وإن شاركتْني غرفةَ النوم فإنها لن تدخلَ المكتب، هذا مكاني وحدي وقد أثَّثتُه بما يليقُ بجو عزلة، مكتبٌ واسعٌ بكرسيٍّ مريح ومقعدٍ إضافيٍّ لضيفِ عملٍ مُحتمل، أرففٌ كثيرة على الجانبين عامرةٌ بكتبي المفضلة وتلك التي أنوي قراءتها، كرسيٌّ هزازٌ وآخرُ بمسندٍ عالٍ، مَوقدُ فحمٍ وبعض لوازم الشاي في ركنٍ منزو، هذا كلُّ شيء.

هل تذكرُ عندما اقترحتَ عليَّ أن أكتبَ روايةً عن شقةِ العبَّاسيةِ وعن البنات وكلِّ ما حدث؟ لم أرَ نفسي ساعتَها قادرةً على كتابةِ رواية رغمَ أنك أكدتَ لي أنني أمتلكُ تلك المقومات التي تؤهلُني لكتابتِها، تعللتُ بأنني لا أُحبُّ كتابةَ سيرةٍ ذاتيَّةٍ، فقلتَ إنني سأكتب روايةً لا سيرةً ذاتية، فكرتُ في الأمرِ كثيرًا ووجدتُ أنك محق، إذا لم نستطع تدوين التاريخ الحقيقي فعلينا أن نُمارسَ التأريخَ للأحداثِ التي عاصرناها كشهود عيانٍ بأي طريقةٍ كانت، والروايةُ طريقةٌ رحبةٌ لتمريرِ التاريخِ إلى الجيلِ القادم. لكن لم يكن في وسعي أن أكتبَ عن شقةِ العباسية وأنا أعيشُ فيها، كان ذلك ليُضاعفَ آلامي الحيةَ ويزيدَ تعذيبي، أما الآن وقد خرجتُ منها فإنني سأبدأ في تأريخِ أيامِنا في العباسيةِ بكلِّ ما وقعَ فيها مما يخصُّ بلدًا يعاني وما يخصُّنا كجيلٍ سُحقَ فيه حتى الرمقِ الأخير، بالطبع لن أكونَ أديبةً بقدرك، لكنني سأبذل وسعي.

أرسلتُ إليكَ صورَ البيتِ لترى أين أعيش الآن، اكتب لي وقل لي رأيك في القريب العاجل.

اعلم أنني أُحبُّك...

رئيفة علاء الدين

القاهرة – وسط البلد

1 ديسمبر 118 ع.ج

السابعة مساءً

(11)

محمد؛ يا يقيني الراسخ وعواصفَ شكوكي ولوعتي المسكوبة..

أنا حامل!

4 ديسمبر 118ع.ج

الفصل الثاني

"طوال حياتِه يحاول السُّوس أن يستوطن البيوت، وفي كلٍّ مرة يُجهَد في التخلص منه، لم يكن قطٌّ صاحبَ بيت".

شقة العباسية وآلام أخرى

(1)

لا يوجد شيءٌ لا يُمكنُني أن أضعَه في حقيبةِ الظهرِ وأرحلَ في أي وقت.

لم أكن قد زرتُ القاهرة – إذا استثنيتُ المرةَ التي قدمتُ فيها أوراقي في الجامعة– قبل تلك الظهيرة القائظة من صيف 113، بنتٌ في الحادية والعشرين من العمر ترفع رأسها وتتأمل الدنيا الجديدة حولها بذهولٍ مشوبٍ بالحماسةِ والتوجس، حياتي التي مرت كنتُ مُجبرةً على تركِها خلفي والبدء وحدي في حياة جديدة ما زلت لا أعرف كُنهها بعد، ولست أملكُ للبدء فيها سوى خمسمائة جنيه وحقيبة ظهرٍ لا يكفي ما فيها لإعاشة عصفور حزين.

سائرةً في الشوارعِ العريضةِ والشمس تضربُ رأسي كأنها سياطٌ من نارٍ، ولم أجد بعدُ مكانًا شاغرًا في سكن طالبات، كانت طلباتي متواضعةً أو بالأحرى لم تكن لي طلبات، أريد فقط سقفًا فوقَ رأسي وبابًا ينغلقُ عليَّ، وما سوى ذلك من التفاصيل لم أكن أملكُ رفاهية التفكير فيه فضلاً عن الرغبة. الساعةُ تجاوزتِ الثانيةَ والنصفَ ظهرًا بثلاث دقائق، حياتي الجامعية تبدأ في صباحِ الغد ولم تقل لي القاهرة "مرحبًا" وتعطِني مكانًا

بعد، أما حياتي الشخصية الجديدة فقد بدأت منذ فجر اليوم، ونسيتُ أن أقولَ لها "مرحبا".

خارت قواي ولم يعد بإمكاني مواصلةُ البحث، كنتُ أسأل البوابين وأصحاب المحالّ التجاريّة وسائقي سياراتِ الأجرةِ التي أُصادفُها متوقّفةً لغرضٍ ما هنا أو هناك، معظمُهم لا يعرف، بعضُهم وجّهني إلى شوارعَ بعينِها معروفةٍ بتسكين الطلاب، وآخرون قالوا لي بضجرٍ صيفيٍّ نافدِ الصبرِ من حرِّ القاهرةِ الحارق: "لن تجدي مكانًا الآن والدراسةُ تبدأُ في صباحِ الغد، لماذا تأخّرتِ إلى هذا الحد؟"، ولم أقلْ بضجرٍ مماثلٍ وتهكُّم: "لأني أهوى الدورانَ حولَ نفسي في الوقتِ المتأخر".

من بعيدٍ لاحت لي مئذنةُ مسجد النور كأنها فكرةُ خلاص، فقررتُ اللجوءَ إلى مصلّى النساء لأصليَ الظهر وأحتمي به من تغوُّلِ الظهيرةِ ثم أعاودَ البحثَ بعدَ أن تتراجعَ الشمسُ عن موقفِها المُفترس.

كنتُ أمامَ بيتٍ لا أعرفُه، دفعتُ البابَ الحديديَّ المُصمتَ والثقيلَ كجبلٍ فصرَّ صريرًا عاليًا شعرتُ بحدتِه في دمي. عندما بدا لي المكانُ في الداخلِ لم أشعرْ بنفورٍ منه ولا استغراب، بل كأنني ذهبتُ إليه عن رغبةٍ وتخطيط وعلمٍ بما ذهبتُ إليه من أجله. كانتْ صالةً واسعةً عاليةَ السقفِ ينتشرُ في جوِّها حمامٌ مختلفُ الألوانِ والأحجام. ثمةَ بهلولٌ يقفُ هناكَ ويبدو كأنَّه خارجٌ لتوِّه من قبرٍ ما، هيئتُه غريبةٌ وشكلُه يُثيرُ في النفسِ رهبةً وهيبةً شديدتين؛ يلبسُ عباءةً رثّةً لكنها نظيفة، وفوقها سترةٌ خريفية طويلة

تصلُ إلى ثلثي جذعه، في يمينِه عصا غليظة تبدو وكأنه اقتلعَها للتوِّ من شجرة ما، شعرُه مُشعثٌ ولحيتُه غزيرةٌ سوداءُ مغبّرة، ومكانَ عينيه في المحجرين كانت هناك رصاصتان مُثبتتان. بينَ حينٍ وآخرَ يخبطُ بعصاه على الأرضيةِ المصقولةِ خبطاتٍ سريعةً ومتلاحقةً وهو يهزُ رأسَه وصدرَه يمينًا ويسارًا كمجذوب في حلقةِ ذكرٍ، ويقولُ بصوتٍ عالٍ وتنغيمٍ مُنفعلٍ ونبرةٍ سريعةٍ متوافقةٍ مع خبطِ العصا:

"طيري طيري يا حمامة

واسبقينا للسلامة

قولي لأصحابنا القدامى

صار الصحاب مهدودي حيل"

فترتفعُ إحدى الحماماتِ في جوِّ الصالةِ باسطةً جناحَيها على وسعِهما، ثم تتوقفُ وتأخذُ في التخبطِ والانتفاضِ لثوانٍ كأنَّ عصا لا مرئيَّةً تضربُها، ثم ينفجرُ شيءٌ من صدرِها بصوتٍ يُشبهُ انفجارَ كيسٍ بلاستيكيّ ثقيلٍ زادَ فيه الضغطُ عن الاحتمال، يتلونُ صدرُها بدمٍ أحمرَ فائرٍ ثم تسقطُ ميتةً على الأرض، وكشخصٍ يعرفُ جيدًا ما عليه فعلُه أتقدمُ نحوَها، أنحني وألتقطُها وأمسحُ على ظهرِها بحركةٍ آليةٍ فارغةٍ من أيِّ مشاعر. تحسُّ يدي التي تحملُها بسخونةِ صدرِها المنفجر، ثم أضعُها في حقيبتي كشيءٍ يخصني!

أجولُ بعد ذلك في المكانِ وأتأمل تفاصيله الكثيرة التي لن أذكرُ منها فيما بعدُ إلا القليل؛ لطخاتِ دمٍ على الجدران البيضاء، مصباحًا كهربائيًّا

وحيدًا ذا إضاءةٍ صفراءَ خافتةٍ في منتصف الغرفة، قفصًا ضخمًا وواسعًا يتدلّى من السقف مليئًا بحمامٍ رماديٍّ ساكن، سأظلُّ أذكرُ بعدَ الصحوِ أنَّ بابَ القفص كان مفتوحًا وعلى الرغم من ذلك لم يحرر نفسه منه، ورأسَ تيسٍ كبيرًا بعينين بارزتَين وقرنَين كبيرين مُثبتةً على أحدِ الجدران.

بعدَ وقتٍ أسمعُ خبطَ البهلولِ بعصاه على البلاطِ المصقولِ مرةً أخرى، فألتفتُ خلفي لأجدَ حمامةً أخرى ترتفعُ كسابقتِها باسطةً جناحَيها، لا يبدو لي أنَّ البهلولَ ينتبه لوجودي، أو ربما لا يعوزُه الانتباهُ لكنَّه لا يأبه بي ولا أشغلُه. تبدأ الحمامةُ بالانتفاضِ كأنَّ عصا خفيةً تُلهبُها، وتصيرُ حركةُ البهلولِ وصوتُه وتعابيرُه أكثرَ هستيريّة:

"طيري طيري يا حمامة

واسبقينا للسلامة

قولي لأصحابنا القُدامى

صار الصحاب مهدودي حيل"

لا تلبثُ الحمامةُ أن ينفجرَ شيءٌ من صدرِها فيُغطِّيه الدم، ثم تسقطُ على الأرضِ ميتةً وتسكنُ حركتُها تماما. أتقدمُ نحوَها كسابقتِها، أنحني وألتقطُها، أمسحُ على ظهرِها ولا تُشعرُني سخونةُ صدرِها المنفجرِ بشيء، أضعُها بحركةٍ آلية مُعتادةٍ في الحقيبةِ التي على ظهري وأعودُ إلى تفحصِ المكان.

عندما أُفزِعُ من غفوتي التي لا أدري كم استغرقت يكونُ آخرُ شيءٍ رأيته حمامةً بيضاءَ منفجرةَ الصدرِ أحملُها في يدي وأشعرُ بسخونةِ دمِها على باطن كفي وأشمُّ رائحةَ رصاصٍ محترق، صوتُ الهديلِ لا يزالُ في أذنيَّ، أضعُ يدي على صدري الذي أشعرُ أنَّه أضيقُ من ثقبِ إبرة، وتؤلمُني ضلوعي كأنَّها تتداخل وتلتفُّ على بعضِها، أُصابُ بنوبةِ هلع.

(2)

برغم نوبة الهلع التي أُصبتُ بها في المسجد قبل قليلٍ تحسنت حالي أول ما ملأتُ رئتيَّ من هواء الشارع، خطفت بصري أنوارُ السيارات وواجهات المحالِّ والمطاعم وتلألؤ الأضواء في كلِّ مكانٍ من المدينة.

"ليلُ القاهرة مُبهرٌ وجميل"

قلتُ لنفسي وأنا أُقلِّب نظري فيما حولي، غمرتْني بهجةٌ عارمةٌ وأنا أتذكرُ أنني سأعيش في هذه المدينة الوضاءة، صحيحٌ أنها تختلفُ عن هذه الصورة البديعة بالنهار حيث تغرقُ في العرقِ والضجر والزحام، لكنها الآن تبدو امرأةً حسناء ارتدت فستان الليل وخرجت تتهادى إلى موعدٍ غراميٍّ مع شخصٍ تحبُّه، وبدا لي كلُّ الناس فيها؛ بمن فيهم الغرباء أيضًا، وإذا ما لم نأخذ الهمومُ التي قد تشغلُ أحدهم بالحسبان، كأنهم الشخصُ الذي تحبه.

ينتشلني من شرودي اللذيذ زامورٌ غاضبٌ ينطلق من سيارة أجرة فأدرك أنه أوشك أن يصدمني، يُشيرُ لي بيديه إشارةً حانقةً فأقولُ "آسفةٌ" صادقةً وحقيقية لا يبدو لي أن أحدًا غيري سمعها ثم أعود إلى شرودي ودهشتي.

نسيتُ إذن كلَّ أحزان حياتي التي أتيتُ بها من قريتي على تخوم القاهرة، كنت على وشك أن أبدأ حياةً جديدةً وحدي، صحيح أني لم أكن أملكُ إلا حقيبةَ ظهرٍ فيها أشياء مثيرة للشفقة، لكنها بدت لي فجأة أكثرَ

من كافية، وشعرتُ بالامتنان الحقيقي لوجودها إلى حدٍّ أني كنتُ أخلعُها من كتفيَّ وأحتضنُها بين الحين والآخر وأنا أشعر بنفسي طفلةً تمتلك العالم كلَّه في أشيائها الصغيرة، والحقُّ أنني دائمًا أمتنُّ امتنانًا حقيقيًّا لامتلاكي أصغر الأشياء، وهذه أيضًا واحدةٌ من سماتِ شخصيتي، وأفكرُ ماذا يفعلُ الذين لا يمتلكون مثل هذا القلم، مثل هذه الزجاجة، مثل هذا المشط، مثل هذا الحذاء، مثل هذا القميص، وكم من المؤسف ألا يمتلك إنسانٌ مثل هذه الحقيبة عندما يسافر ليشعرَ أنه مؤهلٌ بما يكفي لخوض غمار الحياة؛ إذ معه وإلى جانبه وفي صالحِه كلُّ ما يلزمُ في حقيبته!

أحسستُ ساعتَها على نحوٍ غريبٍ أنني مستعدة لمواجهة العالم والولادة من جديد، وملأني خاطرُ الولادة الجديدةِ هذا بنشوةٍ لذيذة، وعدتُ أُقلِّبُ بصري في الأضواء الراقصة من حولي فخيلَ إليَّ أنها تضحكُ لي في حبور..

"الآن مرحبًا أيتها القاهرةُ الأنيقة، المليئة بالزخم والشغف والحياة!"

قلتُ بصوتٍ سمعَه عجوزٌ وامرأةٌ أربعينيَّةٌ تسحبُ طفلاً في الخامسةِ من عمره تقريبًا صادف أنهما كانا يمران جانبي إلى الاتجاه المعاكس، ابتسم لي العجوزُ مُشيرًا بيده اليمنى إلى جانب جبهتِه كتحية، بينما نظرت لي الأم نظرةَ ارتيابٍ واستغراب، وبسرعةٍ خاطفةٍ انخرط خيالي في تصوُّرِ ظروفِ حياتَيهما، هذا العجوزُ الذي ابتسم وحيَّاني لا بدَّ أنه ذاهبٌ إلى المقهى لمُجالسةِ أصدقائه، آه.. كم من الجميلِ أن يظلَّ للرجلِ أصدقاؤه

وهو على مشارف السبعين من العمر، لا بدَّ أنه سيلعبُ معهم الشطرنج أو الطاولة بينما يحتسون الشاي أو القهوة، أو سيتناقشون في أخبار البلاد التي لا تسُرّ (لا الأخبارُ تسرُّ ولا البلاد)، أو سيتذاكرون معًا أيامَ الشبابِ وخطواتِ الحياة الكبيرة، أو سيتابعون بترقبٍ وتصاعدٍ في مستوى الأدرينالين مباراةً لكرةِ القدم بين الأهلي والزمالك أو بين ريال مدريد وبرشلونة، بعدَها سيعود إلى البيت ليجد زوجتَه قد أعدت العشاء، سيجلس معها إلى طاولةٍ عليها أطباقُ العشاء وعلبِ أدويةِ الضغط والسكري والقلب وهشاشة العظام، سيتناولان العشاء بصمتٍ تقطعُه بعضُ الجمل بين الحين والآخر عن الولدِ الذي هاجرَ ولا يريدُ العودة، والبنتِ التي لم تأتِ بالأحفاد منذ أربعين يومًا، سيتنهدان ويقولان إنهما كبُرا وصارا عجوزين بما يكفي ليكونا وحيدين، ثم سيتذكران أنهما معًا وسيحمدُ أحدُهما للآخر وجودَه في دنياه، ومن تلك النقطةِ قد يجوزان إلى شبابيهما وذكرياتهما السعيدة حينما كانت نضارةُ الأيامِ لا تزالُ تُغريهما بالوقوع في الحب واختلاقِ المشاكلِ مدفوعَين بالغيرة.

***

أما المرأةُ الأربعينية فلعلها ستعودُ إلى بيتها لتُتابعَ حلَّ ابنها لواجباتِه، وتدخلَ في سوءِ فهمٍ جديدٍ مع ابنتِها المُراهقة لا يقطعُه إلا هرولتُها إلى المطبخ للحاقِ الطبخة على النار، ستفكرُ في أكلاتِ الأسبوعِ وتبدأُ في إعدادِها وتخزينِها في المُبرِّدِ جاهزةً للتسخين والتناول من أجل توفير

الوقت، وسيطفو على بالها فجأة الموقفُ السخيف الذي عرَّضتْها له زميلتُها في العمل مع المدير وستمتلئُ غيظًا من جديدٍ كأنَّه حدث للتوِّ واللحظة، ستذكرُ آخر مشاجرةٍ في آخر مكالمةٍ دوليةٍ مع زوجِها المغتربِ للعمل، وستذكرُ قول أبيها "المصريون المغتربون في أوروبا للعمل ربما يتمكن أحدهم من تحقيق رغد العيش لذويه، أمَّا المصريون في الخليج فيعيشون قلة القيمة ولا يُوفرون إلا الموت المستور"، ستذكرُ أول مرةٍ عرفت فيها زوجها وكيف داعبتهما الأحلام وكيف كانا يتطلعان إلى الزواج كتطلعِ الجائع إلى طعامٍ لذيذ، وستنظرُ إلى حالها الآن وتتنهد: أربعينيَّةٌ تودعُ شبابها وتسقط رهينة التجاعيد والترهل، تركضُ من العمل إلى مدارس الأولاد إلى البيت وتُحايلُ ابنتها المُراهقة.

انتشلني من شرودي زامورٌ آخرُ غاضب، واعتذرتُ للمرة الثانية، تنبهتُ إلى أنني أسير بلا هدى، وأن عليَّ أن أجد مسكنًا في غضون ساعتين على الأكثر. ألمح على بعد عشرين مترًا لافتةً كبيرةً وجذابةً لصيدليةٍ فأتذكرُ حاجتي لحبوبٍ مُسكنة، أتجه إليها فيتحتم عليَّ الانتظار ريثما ينتهي أحد الصيادلة هناك من زبونٍ معه ويفرغ لي، في أثناء انتظاري تدخلُ بنتٌ تبدو في العشرين من العمر أو أكثر قليلاً، كانت جميلةً وتأخذ العين أول ما تقع عليها، تحملُ حقيبة ظهرٍ كبيرة وتجرُّ حقيبة سفر، وقفت تنتظر إلى جانبي، خطر لي أنها قد تكون طالبة مغتربة؛ إذ مَن سيتمشى في مدينة كبيرةٍ كهذه ليلاً بحقائب سفر إلا طلابٌ مغتربون؟ سألتُها لحسن الحظ، ولحسن الحظ كانت طالبةً بجامعة عين شمس متجهة إلى سكنِها.

سألتُها إذا ما كانت تعرفُ سكنًا للطالبات به مكان شاغر، وأخبرتها أنني أبحثُ عن سكنٍ منذ الظهيرة، قالت أنها لا تعرف إذا كانت الشقةُ التي تسكنُها ما يزال فيها مكان شاغر لكن بإمكاني أن أذهب معها وأرى، وإذا ما لم أجد هناك مكانًا فبوسعي أن أسأل صاحبة الشقة إلى أين ينبغي أن أتجه للبحث، عبرت لها عن امتناني على هذه المساعدة المواتية.

اشترت ما تحتاج وكذلك فعلتُ وخرجنا من الصيدلية معًا، قالت لي إننا بالفعل قريبتان من البرج السكني الذي تقع فيها الشقة؛ مسافة سبع دقائق سيرًا، قضيناها في التعارف، عندما أذكر تلك الدقائق الآن أبتسمُ بمرارة، كم يكون الإنسان على وشك أن يضع قدمَه على عتبة مأساتِه الخاصة وهو لا يدري!

وصلنا إلى البرج السكني الذي تقع فيه الشقة المنشودة، برجٌ ضخمٌ يتألف من عشرين طابقًا ويقعُ في شارعٍ تكثرُ فيه الأشجار وهذا راقني، أول ما لفت نظري فيه وجود مطعم مشويات يحتل جزءًا من الطابق الأرضي منه، خطفتني الرائحةُ وتذكَّرتْ أمعائي في تلك اللحظة أن تلتويَ على نفسها من الجوع، كان الدخان اللذيذ يتصاعد حتى يُطاول اللافتة، "كبابجي نَهمان"، لأيام تالية سأميزُ البناية بهذه اللافتة.

رفعتُ رأسي سريعًا ونظرتُ عاليًا لأقيس بنظري ارتفاع البرج، ولأنني كنتُ أحرصُ ألا أتخلف عن "لميس" فقد توقف نظري عند الطابق الرابع، وهناك على إحدى شرفاته غسيلٌ منشور، غسيلٌ أبيضُ وملونٌ تفتقرُ المرأةُ التي نشرتْه إلى الحسِّ الفنيِّ ومهارة التنسيق.

كانت أول مرةٍ في حياتي أستخدم المصعد، عندما تحرَّك فقدتُ توازني لثانيتين وتمنيتُ ألا تكون لميس قد لاحظت ذلك، توقف المصعد عند الطابق الثاني عشر وعندما خرجنا لم يلبث أن سُحب. هناك بابان متقابلان عن يمينه وشماله، اتجهت لميس إلى الباب الذي على اليمين وضغطت الجرس مرتين قبل أن يطلّ علينا وجهٌ أبيضُ وضاءٌ على جسمٍ طويلٍ فارع، ألقت لميس مقبض الحقيبةِ من يدها وانغرستْ في حضن البنت مثل شجرة في تربتِها، ظلّتا طويلاً مُتعانقتَين تتبادلان كلماتِ الشوق وحبور الرؤيةِ من جديد ثمَّ انفكَّ التحامُهما أخيرًا، سحبت البنتُ حقيبة لميس إلى الداخل ودخلنا وأغلقتِ الباب، ثم عرفتنا لميس:

"هذه زينب كُريِّم يا رئيفة، طالبة بكلية الهندسة قسم العمارة وتستطيعين أن تطلبي منها تصميم بيتٍ لكِ، بيوتُها خرافية!"

"وهذه رئيفة علاء الدين من البدرشين، طالبة جديدة بكلية الألسن وتبحث عن سكن"

سلَّمت على زينب، كانت على وجهي ابتسامةٌ خفيفة، لكنَّ وجهها كان كبلدٍ مفتوح، شابةٌ طويلةٌ ذاتُ حاجبين كثيفين عريضين وعينين واسعتين ووجهٍ مُضيءٍ آسر، في صوتِها بحَّةٌ جميلة وفي لهجتِها شيءٌ من البداوة. احتضنتني وأبقت عليَّ في حضنِها لحوالي خمس ثوانٍ ووددتُ فيها لو لم تُفلتني أبدًا، كانت لزينب شخصيةٌ من تلك الشخصيات التي تُشعرك صداقتُها أنك حصلت على أمٍّ إضافية.

خلعت لميس حذاءها ثم دعتني إلى الجلوس وهي تشيرُ إلى الصالةِ ريثما تتكلم مع صاحبة الشقة، واستأذنتني زينب لدقيقتين واختفت وراء لميس في الردهة الطويلة عن يمين الباب فأصبحتُ وحدي في تلك الصالة الباهرة، ما أتاح لي تأملَها بحرية. خلعتُ حذائي ووضعتُه في جزَّامةٍ على يسارِ البابِ مُقلِّدةً فعل لميس، وكان بوسعي أن أُلاحظَ عندما أمسكتُ الفردةَ اليُمنى شقًّا واضحًا في الجنبِ بين النعل والوجه، صدمني امتدادُ الشق واتساعه عن آخر مرةٍ فحصتُه فيها صباحَ اليوم قبل أن أخرجَ إلى الطريق..

"لا بد أنه أثرُ المشي الطويل"

قلتُ لنفسي ودعوتُ الله ألا يكون أحدٌ قد رآه، ووضعتُه بخجلٍ مشوبٍ بالحيطة في أسفلِ رفٍّ من الجزَّامة آملةً ألا ينتبهَ أحدٌ إلى وجودِهِ في زخمِ كلِّ تلك الأحذية السعيدة!

خطف المكان أنفاسي وأكاد أجزم أن إحدى الشابتين لو نظرت إليَّ ساعتها لرأت اتساعَ حدقتيَّ اندهاشًا؛ شقةٌ أنيقةٌ وفاخرة، تبدو كتلك البيوت المُنعَّمةِ التي شاهدتُها في المراتِ القليلة عندما تفرَّجتُ على مسلسلٍ تليفزيوني. الصالةُ واسعةٌ تتألف من قطعتين؛ القطعة التي أجلسُ فيها بها أريكتان وكرسيان أجلس على أحدِهما وتواجهُني شاشةُ تلفازٍ كبيرة على الحائط المقابل، وعلى يميني بابٌ مغلقٌ لغرفةٍ خمنتُ أنَّ بنتين أو ثلاثةً يسكُنَّها، تمتدُّ على عرضِ الجدران بارتفاع شبرين فوق مساند الأرائك حتى

السقف أرفف مكتبةٍ من خشبٍ بلون القهوة الفاتحة لا مكان فيها لكتابٍ إضافي، وفي مقابل هذا النصف من الصالة نصفٌ آخر يُفضي إلى الردهة الطويلة التي اختفت فيها البنتان، يضمُّ سفرةً بستِّ كراسٍ وخزانة كبيرة فيها أطباق لمَّاعة من الكريستال والخزف تبدو كتحفٍ فنية أكثر مما تبدو كأطباق.

خمنتُ من فخامة الأثاث أن الإيجار غالٍ بما تعجزُ عنه قدرتي المالية المحدودة، أذكرُ أن لميس قالت لي ونحن في طريقِنا إلى هنا إنَّ الإيجار في هذه الشقة معقولٌ بالنسبة إلى الشقق المجاورة، اطمأنَّ بالي لهذا الخاطر ثم ما لبثَ صدري أن انقبضَ إذ خطر لي أنني فقيرةٌ إلى حدٍّ مأساويّ، بل مُعدَمةٌ بمعنى أدق، وأنَّ ما يكونُ معقولاً بالنسبة لأحدٍ ما قد يكون قاصمًا بالنسبة لي، عندها شعرتُ بغصَّةٍ في حلقي وتمنيتُ الهروبَ من هذا المكان بسرعة، لماذا لم أهرب؟ لأنه كان مُقدَّرًا لي أن أعيشَ في تلك الشقةِ وأن أكون شاهدةً على كلِّ ما جرى فيها من مآسٍ، لكم تبدو الحياةُ غريبةً وعصيةً على التصديق أحيانًا!

***

تشاغلتُ عن خواطري السوداء بتفحصِ الكتب، بدت لي كأنها انبثقت من الجدار كجزءٍ منه، كان منظرُها مُفرحًا وأليفًا؛ لا يودُّ المرءُ أن يتركَ مكانًا فيه كلُّ تلك الكتب لبقيةِ عمره، أو هذا ما اعتقدتُه ساعتَها على

الأقل. اندمجت بسرعة معها ورحتُ أنقل بصري ولساني عشوائيًا من كعب كتابٍ إلى آخر وأنا أقرأ أسماءها.

بدا لي هذا بلا نهاية، وتساءلتُ عن السنين التي يحتاجُها الإنسان ليقرأ كلَّ هذا العدد من الكتب ويفهمها ويتفاعل معها نسقُه الفكري ومبادئه ويظهر أثرها على حياته وطريقة تعبيره، وانفتحت شهيتي فجأة للقراءة وللمعرفة وتذكرتُ مقولة برتراند راسل التي وقعتُ في حبِّها منذ قرأتُها وأنا في الصف الأول الثانوي:

"ثلاثةُ مشاعرَ بسيطةٍ ولكنها غامرةٌ بقوةٍ تحكمت في حياتي: اللهفةُ للحب، البحثُ عن المعرفة، والشفقةُ التي لا تُطاقُ لمعاناةِ البشر".

"أصغرُ من مكتبةِ أستاذ حميد ولكنها أكثر ثراءً وتنوُّعًا منها"

قلتُ لنفسي وأنا أذكرُ مكتبة الأستاذ حميد الضخمة، ثم أخرجتني من أفكاري زينب وهي تُقدمُ لي كوبَ عصيرٍ وبسمةً واسعةً.

بعد حوالي خمس دقائق جاءت لميس وسألتني:

"هل تُمانعين النوم على أريكة وعدم امتلاك مكتب خاصٍ لمدة شهرين؟ يوجد مكان لن يفرغ إلا في بداية نوفمبر، وحتى ذلك الحين يمكنك استخدام أريكة للنوم إذا كنتِ مضطرة لقبول السكنِ هنا"

"ليس عندي مانع إطلاقًا"

قلتُ بلهفةٍ ووددتُ لو أضفت أنَّ أريكةً هي شيءٌ وثيرٌ جدًّا لم أحلم بالنوم عليه، وأنني قبل اليوم كنتُ أنام على أرضيةٍ إسمنتيةٍ خشنةٍ وباردةٍ لا

يحمي جنبي منها إلا حصيرٌ بالٍ، وأنني قبل ساعتين فقط لم أكن أُمانعُ أن يكون في السكن فئران، صراصير، حشرات قارصة، رائحة عفونة، امرأةٌ حيزبونُ كمالكة، أو عفاريتُ زُرق، كلُّ ما يهمُّ أن أجد مكانًا للعودةِ إليه آخر كلِّ يوم.

"حسنًا جدًّا، وفي مقابل هذا ستدفعين مئتي جنيه فقط هذين الشهرين بدلاً من أربعمائة، بالإضافة إلى مثلِها تأمينا".

قالت هذا ولم تُعطني فرصةً للتملص؛ إذ أمسكت بيدي واتجهت بي إلى الردهة حيث تقع في آخرِها غرفةُ صاحبة الشقة التي استغربت أنها تقيم فيها، فرأيتُ فتاةً قمحيةً تميلُ إلى القصرِ وتبدو في السابعة والعشرين من العمر أو أكبر قليلا، وعرفتُ بعد ذلك من لميس أنها آلت إليها بعد موت أبيها منذ أربع سنوات وحيدةً في هذه الشقة ففكرت في تسكينِها، وقلَّصت بذلك أوقاتَ وحدتِها كما استفادت عائدًا ماليًّا شهريًّا لا بأس به، وضحت لي الصورة حينئذ؛ إذ لم يكن من المعقول أن يكون سكنُ طالبات فاخرًا إلى هذه الدرجة ولا أن تكون فيه كل تلك الكتب.

سيطر عليَّ شعورٌ بالهيبة عندما رأيتُ ليلى عسكراني للمرة الأولى، كانت امرأةً لنظراتها سطوة، تشعرُ وأنت في مرمى نظرتها أنك تحت رقابة مشددة، لم تكن ضخمة الجسم، كانت هزيلةً بعضَ الشيء وتميل إلى قصر القامة، قمحية البشرة وتضع نظارات طبية كلاسيكية تزيد من جدِّيتها، لا تكلمك بأسلوب جافٍّ لكنك لا تلمس توددًا في نبرتها، تبتسم ابتسامة

بسيطة عندما ترحبُ بك فتشكُّ إذا ما كانت ابتسمت، توضح لك منذ اللحظة الأولى ما عليك فعله وما ستُعانيه إذا لم تفعله، وعندما تتركها لا تظنُّ أنك ستشغلُ بالها لثانيتين.

قالت لي إنَّ العدد في الشقة الآن مكتمل بالفعل ولكنها عرفت من لميس أنني كنت أبحث عن سكن في هذا الوقت المتأخر، قالت أيضًا إن هناك جدولاً للتنظيف سيتم تعليقه عندما يكتمل حضور البنات كلهن، وأن الممنوعات في هذه الشقة ثلاثةُ أشياء: استعمال المكتبة بدون استئذان مها شخصيًّا، دعوة صديقة إلى الشقة بدون استئذان منها شخصيًّا قبل فعل ذلك، والصوت العالي. وأن الشقة فيها بنات من مختلف الخلفيّات الاجتماعية والثقافية وعليَّ أن أتحلى باللطف وحسن المعاملة، وأنَّ عليَّ ألا أطرق باب الغرفة التي تقع في الجهة اليسرى تحت أي ظرف.

بعد أن أنهت كلامها كله دفعةً واحدة أمرتني أن أذهب مع لميس إلى الغرفة التي سأنام فيها وأن أرتب أغراضي مُراعيةً وجود الآخرين حولي.

الغرفةُ واسعةٌ ولها شرفةٌ تطلُّ على منظرٍ فتَّان، كما أنَّ فيها أُصصَ زرعٍ كثيرة طيبةِ الرائحة تبعث السلام والبهجةَ في نفسك، عرفتُ بعد ذلك أنها لزينب. في الداخل يتوازى سريران في الجهة اليمنى من الباب، وفي الفراغ بينهما مكتبان بكرسيين، في الجهةِ المقابلة أريكةٌ متوسطةُ الجحمِ ثم طقطوقةٌ صغيرةٌ عليها مزهريةٍ وتحتَها قفصٌ صغيرٌ تسكنُه سُلحفاة، إلى

جانب السرير الثالث وعن يمين باب الشرفةِ هناك منضدةُ رسمٍ هندسيٌ ليس عليها ورق.

"هذه الأريكةُ هي سريري إذن"

قلتُ لنفسي وأنا أُمسِّدُها.

بدأت لميس بفتح حقائبها لترتيب أغراضها الكثيرة، كنتُ أشعرُ بحرجٍ بالغٍ وأنا أجلس على الأريكة وأحتضن حقيبتي الصغيرة، لم أرد أن أرتب أغراضي القليلة على مرأى منها، قطعت تفكيري بحديث مفاجئ..

"المكان الشاغر في الغرفة المقابلة، لكن هناك أسماء أبو العزم، طالبة بالسنة الأخير بكلية الطب، هي مَن ستترك لك مكانها بعد شهرين، وما دامت هناك فأنتِ لا تستطيعين دخول تلك الغرفة"

"هل هي صارمةٌ إلى هذا الحد؟"

"ليست صارمةً فقط، إن فيها شيئًا من العدائية، لذلك ستكونين في هذه الغرفة حتى تغادر"

"لكن ألا يُضايقك هذا؟"

"على الإطلاق"

"وماذا عن زينب؟"

"سألتها ليلى عن هذا ولم تُمانع"

في تلك اللحظة كانت قد فكت حجابَها، فتذرَّعْت بالرغبة في الخروج للشرفة ومشاهدة المنظر من هناك، بعد خروجي قالت لميس من الداخل

إنها ستخرج لأخذ حمام وأن بإمكاني الدخول إذا أردت، بدا لي أنها ذكيةٌ جدًّا، وأن هذا قد يكون مشكلةً أحيانًا في التعامل معها.

***

عدتُ إلى الداخل وأفرغت الحقيبة على المنضدة المجاورة للأريكة وقمت بتبديل ثيابي، كانت كل ثيابي قديمة باهتة الألوان، أشعرني هذا بخجلٍ كبيرٍ لأنني لم أكن قادرةً على مُجاراةِ هذا المكان السابح في الزهو والبناتِ الأنيقاتِ اللواتي فيه. بالإضافةِ إلى أنني أكبرُ ثلاثَ سنواتٍ مما يظنونني عليه، وأنا حساسةٌ إلى حدٍّ كبير تجاه هذا الأمر وأحاول أن أتكتم عليه، إذ لو عُرفَ لسألنني: "كيف تكونين في الحاديةِ والعشرين وما زلتِ في السنة الأولى من الجامعة؟"، وسيكونُ عليَّ أن أتطرقَ إلى الحياةِ التي تركتُها خلفي، وأن أقولَ إن عمي، كونَه الوصيَّ عليَّ، رأى أنه ليس من الضروري أن يُلحقني بالمدرسة كما ألحق أبناءه، وأنه لولا تدخل الأستاذ حميد، جارنا ومدرس اللغة العربية الذي درَّسني فيما بعد في المرحلة الثانوية، عندما بلغت التاسعة واستعانته ببعض وجهاء البلدة وكبرائها عندما لم يُجدِ كلامُه وحدَه، والذين هددوا عمي بتقديم شكوى ضده وسحب وصايته عليّ، وخوف عمي عندئذٍ من أن يفقد سلطته على إرثي من أبي، لولا ذلك كله ما كان بوسعي أن ألتحق بالمدرسة أبدًا. وعلى الرغم من أنه يمكن القولُ إنني استدركتُ هذا التأخر بسرعة تعلمي وتوقد ذهني وحبي للمعرفة، وأنني منذ استطعتُ القراءة والكتابة وحدي بدأتُ بقراءة الكتب

التي كان يُعيرني إياها الأستاذ حميد، وأنني نجحت في تكوين حصيلة لغوية ومعرفية سبقتُ بها ليس فقط الذين هم في سني وكانوا سبقوني ساعتها، بل أيضًا كثيرًا ممن هم أكبر مني، على الرغم من ذلك التميز الذي حققته إلا أن تأخري في الالتحاق بالمدرسة لم يكن أمرًا يمكنني الكلام عنه دون حساسيةٍ أو شعور بالنقص، ربما ليس لشعورٍ حقيقيٍّ بالنقص أكثر من كون الأمر ذكرى سيئة جدًّا علمتني كم من الصعب أن يكون الإنسان يتيمًا، وأن يكون تحت وصاية عمٍ جشعٍ وقاس، وأن يتربى في بيت يرى صغاره يذهبون إلى المدرسة كل صباح ويعودون منها في الظهيرة يلقون الحقائب وينطلقون إلى اللعبِ فتصيحُ عليهم أمهم بغضبٍ دون جدوى، وأن يتمنى لو أنه حظي بفرصةٍ كتلك ويقول لنفسه: "لو أن عمي رضي أن أذهب إلى المدرسة ما تركت الكتب لألعب، ولا رميت حقيبتي بهذا الشكل، ولا فضلت اللهو على المذاكرة وكتابة الواجبات، ولسمعتُ كلام زوجة عمي، ولرفعتُ رأس عمي كما يطلب من أبنائه دائما دون أن يجد كلامه طريقًا لأيٍّ منهم"، وأن يُفيقه من أحلامه صوتُ زوجة عمه تُعنِّفُه وتشتمه لأنه تأخر في غسل الملابس أو لم يُجِدْ كنس الدار أو وضع العلف للبهائم أو حبس الطيور في الحظيرة.

حياتي السابقة مليئةً بالذكريات السيئة، وأسوأ ما فيها ليس أنني كنتُ أعيشُ في تلك الدار أسوأ مما قد تعيش خادمة، ولا أنني لم أستحق ذلك الإهمال كون عمي لم يكن ليتكلف لتعليمي وكسوتي وطعامي شيئًا من

جيبه؛ إذ تحت يده إرثي من أبي الذي كان ليكفيني بقية حياتي تعليمًا ونفقة وزواجًا، أسوأ من ذلك كله أنني كنت ألتمسُ عندهم الاهتمام ولا أجده، ألتمس عطف عمي فيُمعنُ في القسوة، أحاول كسبَ حبِّ زوجتِه فتدفعني عنها لاعنةً اليوم الذي بُليت فيه بي كأنَّه لم يكن عندها ما يكفي من الأبناء والهم الثقيل، أجرب التقرب من بنات عمي فيتكبرن عليَّ ويقبَلنني أحيانًا ليُدبرن لي المقالب التي تضحكهن وتضحك إخوتهم الذكور. هذا أكثر ما أوجعني في تلك المعيشة وفي ذلك البيت؛ أنني تسولتُ محبتهمِ جميعًا مرةً بعد مرةٍ في الوقت الذي كان عليَّ أن أكرههم فيه وأن أرى هضمهم حقي واستغلالهم إياي، وأنني كنتُ الضحيةَ التي تستجدي عطف الجلاد.

فجأتني طرقةٌ على الباب فلممتُ الأغراض بسرعةٍ ودسستُها في الحقيبةِ كما اتفق ثم سمحتُ بالدخول، كانت زينب، رحبت بي مرةً ثانيةً بحفاوةٍ وراقتني جدًّا لكنتُها المميزة وأسلوبها الودود..

"هل تعرفين أنني ما زلتُ أتأملُ اسمكِ منذ جئتِ؟"

"حقًّا؟"

"إي والله!"

"وماذا وجدتِ؟"

"هل قرأتِ (ثلاثية غرناطة) لرضوى عاشور؟"

"طبعًا!"

قلتُ وأسعدني أن أحظى بزميلةِ سكن مهتمةٍ بالأدب والروايات.

"ذكرتِني بسليمة، كانت غريبةً كذلك"

"وهل ترينني غريبة؟"

"مختلفة على الأقل، هذا ما أسفرت عنه تأملاتي في اسمك وهيئتك"

"يسعدني ذلك، وأنتِ تذكرينني بالخبزِ الأبيض الذي كانت أمي تُعدُّه في الزمان البعيد؛ ساخنٌ، يُشعر بالألفة، ويملأُ البيت بالدفء والمسرة"

"يا إلهي! هذا أجملُ تشبيهٍ تلقيتُه في حياتي صدقيني، أبقى اللهُ لكِ أمك ومتعكِ بوجودها"

"لم يُبقِها"

"عفوًا؟"

"أقصد لقد ماتت منذ كنت في الخامسة"

لم تقل شيئًا وإنما فوجئتُ بها تقوم من مكانها وتتجه إليَّ وتدفنني في حضنِها، عندما تركتني كان بوسعي أن أرى دمعتين كبيرتين على خديها، شعرتُ ساعتها أن أمي ماتت للتو وبكيت، بكيت بمقدار كل تلك السنين التي مرت وأجبرتني فيها أختي هندة على ألا أبكي. بكيتُ موتَ أمي ولأول مرةٍ أشعرُ به بهذه الطزاجةِ والفداحة، وعندما رأتني زينب أبكي أعادتني إلى حضنها مرة أخرى، وبقيت هناك زمنًا وددت أن لو طال أكثر، تلك البنت كان فيها شيء غريب يشدك، شيءٌ يُشعرُك أنك معها في بيتك. كانت لزينب تلك القدرة الهائلة على عيش مصائب الآخرين كأنها مصائبها، كانت

لها القدرة على التأثر الصادق بأحزان من حولها ومشاركتهم همومهم كأنها طرف فيها، كأنها تعانيها بنفسِها معهم، زينب هي الشخص الوحيد في حياتي الذي لم أكن أشعر في تعاطفه بالشفقة التي تُحقِّرُني عند نفسي، لأنها لم تكن تتعاطف، بل كانت تعيش معي أحزاني وتشاركني همومي، وفي كل المرات التي بكت فيها معي كنت أوقن أنها تبكي حزنًا لحزني لا شفقة عليَّ، وكانت تلك أنبلَ طريقةٍ للمواساة في اعتقادي.

***

(3)

الليلة الأولى لي في "شقة البنات" -كما كان الجيران يسمونها- كانت عصيبة؛ لساعاتٍ طويلة جلست لميس وزينب تتذكران صديقتَهما إسراء عناية وتبكيان، فهمت منهما أنها قُتلت في أحداث التمرد الصغير قبل ثلاثة أعوام، وإذ لم أكن أعرف عن التمرد الصغير ما يزيد على اسمه في نشرة الأخبار ولعن عمي قبل سنواتٍ للخونة الذين قاموا به فلقد بدا لي غريبًا وصعب الفهم أن يبكي أحد على متمرد خائن، لكن بكاءهما كان مريرًا وطويلاً، قلت لنفسي وأنا أراهما كذلك إنَّه حتى السيئون هناك من يبكي من خلفهم؛ ربما لأن كل إنسانٍ سيئ باعتبارٍ ما هو إنسانٌ جيد باعتبار آخر، أو ربما لأننا لا نستطيع ألا نبكيَ على موت أصحابنا مهما كانوا مخطئين وحتى لو كانوا هم مَن تسبب في موتهم، أو ربما لأن الحدث العام الذي تتشكل تصوراتنا عنه من نشرة أخبارٍ هو حدث خاص في حياة البعض، أيًّا يكن السبب فإنني لم أفهم أبدًا في تلك الليلة قصة التمرد الصغير، ولم أفهمها قبل مرور شهرين.

كانتا تجلسان على سرير زينب، تبكيان وهما تسترجعان مواقفها المرحة والودودة، كنت أحترم حزنهما وأُجلُّه ولو لم أفهمه؛ لأن ثمة في الحزن الصادق ما يفرض عليك احترامه مهما تكن عدوًّا لأسبابه. راقبتُهما طويلاً من على الأريكة وأنا آسى عليهما وأفكر كم من الصعب أن يبكي

إنسان كل هذا البكاء على مَن لا يستحق، لم يكن بوسعي أن أقول لهما أن على المرء توفير دموعه وحزنه لمن هو جدير بالحزن والدموع، لأن هذا يمكن أن يكون اعتقادي وحدي لا ما تفكران فيه، ولأنني لا أعرف على مَن تبكيان.

عندما أمسكت لميس هاتفها وسمعت منه صوتًا ضحوكًا لفتاةٍ ترسل تهنئة عيد ميلاد اقتربتُ منهما، لم يبدُ لي أنهما انتبهتا لقربي، كان كياناهما متمحورين حول الفتاة في مقطع الفيديو على الهاتف، جلست بجانبهما ونظرت، ولأيام تالية سأندم على هذا الفضول، لأنني أدخلتُ به قتيلةً في ذاكرتي وأقمتُ لها مأتمًا في صدري، انحفرت ملامحها وطريقة كلامها ونظرات عينيها وحركات وجهها في دماغي وراودتني قبل النوم لياليَ طويلة. كانت فتاةً خمريةً بضحكةٍ مكركرة تفتر عن أسنان فيها شيء من الاعوجاج البسيط الآسر، تتكلم بنبرة سريعةٍ كمن يركض في سباق أو يهرع للحاق بموعدٍ وهي تهنئ لميس وتتمنى لها عامًا سعيدا وتُشاكسُها، كان مرحُها كثيرًا جدًا على تصديق أن هذه الضاحكة الصاخبة لم يعد باقيًا منها إلا عظام في تربة، وكانت نظراتها الحية والعميقة أرسخ من استيعاب أن هاتين العينين اللتين تضحكان قد أكلهما الدود.

لماذا يُقحم الإنسان نفسه في أحزانٍ لا تخصه؟ أفلحت في إقناع نفسي بعد أسابيع من التفكير في إسراء عناية واستحضار وجهها وصوتها وحتى عظامها في القبر أن الناس يموتون دائمًا بطريقة أو بأخرى، وأن

الحزن لن يتوقف عن أن يجد طريقه إليَّ ولذلك عليَّ التوقف عن البحث عنه، ثم هوَّنت أمرها على نفسي بأنها ماتت في أحداث التمرد الصغير، ولذلك فهي غالبًا استحقت ما جرى لها.

عندما نمت أخيرًا في تلك الليلة رأيت ذلك الحلم مرةً ثانية، حلم الحمامات والبهلول، وتعرفت على الصالة التي كانت فيه، إنها صالة هذه الشقة، إنها هي تمامًا ولكن بدون أثاث وبجدران ملوثة بأشياء غريبة، وحين صحوتُ فزعةً لم أفعل شيئًا سوى محاولة تهدئة نفسي بكل وسيلة أعرفها لذلك، وأدرك الآن أنه كان من أكبر أخطاء حياتي أنني لم أهرب ساعتها من تلك الشقة إلى الأبد، كان بوسعي تفادي هذه اللعنة ولكنني لم أفعل!

***

بعد شهرين عرفت الأستاذ مصطفى عناية وزوجه؛ والد إسراء ووالدتها، كانا يزوران ليلى لتفقد حالها وربما لتشمم ريح ابنتهما في صاحبتيها، عرفت أن الرجل هو صديق والد ليلى المتوفى وأنه هو من اقترح عليها أن تؤجِّر غرف الشقة للطالبات المغتربات فتكتسب بذلك بعض المال الذي يعينها على حوائجها ولا تبقى وحيدة بعد وفاة والدها وزواج أمها.

كان كهلاً يبدو في أوائل الخمسينات، يغزو الشيب رأسه ولحيته الخفيفة وتستقر نظرة حزن هادئ في عينيه، عندما دخلت الشقة كان يجلس وزوجته ومن حولهما ليلى ولميس وزينب وكاميليا، يدور بينه وبينهن نقاش بدا لي جادًّا أكثر مما يمكن لطالبات جامعيات، ألقيت السلام

وجلست بعد التعارف، لا لاهتمامي في البدء بموضوع النقاش ولكن لأني استحييت أن أبدي عدم اهتمامي بالانسحاب بعد السلام إلى غرفتي.

"مشكلة الثورة أنها لم تكن قائمةً على تصورٍ واضح وأهدافٍ محددة، ولذلك لم تنجح". قال آسفًا.

هل يعتبرون التمرد الصغير ثورة؟!

"لم نسمع منك هذا من قبل يا عم، لم تقل قط إنها ثورة فاشلة!" قالت ليلى.

"تعرفين؛ الإنسان دائمًا أعمى في غمرة حزنه، عندما تكون المأساة طازجة لا تستطيعين فهم الأمور على النحو الصحيح، لكن ما إن تستقر وتصدقي أنْ نعم هذه مأساتك وهذا حصل لك حتى تنجلي الغمامة عن عينيك وترَي حقائق كنتِ لفرط حزنك تغفلين عنها أو تُغفلينها عامدة حتى لا تكوني أمام نفسك مساهمةً في السوء الذي جرى لك، حتى لا تكوني ضحيةً بنصيبٍ من الجناية على نفسها"

"هذا فظيع ولا يُحتمل! كيف تقول يا عم إن هؤلاء الناس والذين منهم إسراء مُشاركون فيما حدث لهم؟! لا أستطيع تصديق هذا!"

قالت لميس بانفعال لم تجتهد أن تخفيَه، فابتسم ابتسامة هادئة!

"أول شيء سأنصحك به يا ابنتي أن تكوني أكثر تجردًا عند تقييم موقفك لتستطيعي الخروج بحكم صائب يساعدك على فهم أخطائك، أحيانًا على الضحية أن يضع جانبًا كونه ضحية ويكف عن البكاء وهو

يستعيد ما حصل له حتى يتمكن من أن يفهمه. الشيء الثاني: تذكري دائمًا أن غباء الضحية يُسهِّلُ عملَ الجاني"

"كيف كانوا أغبياء يا عم؟!"

سألت كاميليا.

"عدم معرفتك عدوك الحقيقي هو غباء، عدم تحديدك لهدفٍ من كل حركةٍ تقومين بها هو غباء، عدم امتلاكك نظرة شاملة تتجاوز موضع قدمك هو غباء"

"ولكنكم كنتم تعرفون هدفكم"

"لا، كنا نظن أننا نعرفه، وحين وُضعنا أمام الخيارات الفيصلية لم نستطع أن نفكر، كنا نعرف أننا نريد ألا نُعامل كأغنام تُساق ليلاً إلى الزرائب وتُخرج نهارًا إلى المرعى دون أن تمتلك تاريخًا عن نفسها ولا فكرة عما تعيش لأجله، لكن كيف سنحقق هذا؟ لم نكن نعرف. لقد توارث بعضنا على مدى أكثر من قرنٍ غضب الأجداد المكتوم، أردنا أن نقول أخيرًا إننا لسنا حمقى ولا مُغفلين، طالبنا بحقنا في تقرير المصير، وفرحنا حين اكتشفنا ساعتها أننا نملك أصواتًا بشريةً لا ثُغاءً! ثم عندما حققنا الغاية لم تسعنا الفرحة، أفقدتنا المفاجأة صوابنا ورقصنا في الشوارع لساعات، وعندما هدَّنا الرقص لم نعرف ما ينبغي علينا فعله، كان الجميع يسأل الجميع: وماذا بعد؟ سؤال لم نعرف له جوابًا".

"هذا محزن جدًّا!"

"لكنه حقيقي للأسف، لقد كنا مدفوعين بالحماسة، لم تكن لدينا أهداف محددة ولم نكن نعرف ما نريد بالضبط، كأننا خرجنا نقول فقط إننا سئمنا هذه المعاملة ونريد الخلاص، طيب ما تصورنا عن فعل هذا؟ لم نكن نعرف على وجه الدقة، لم نكن مستعدين حقًّا لتغيير حقيقي، خرجنا قبل أن نتغير إلى ما يلزم أن نكون عليه لكي نغير الواقع ونكتب تاريخًا جديدًا، تربينا على المشي بجانب الحيطان والمسكنة، أخذنا جرعة شجاعة مفاجئة وغير متوقعة فخرجنا نهتف بأمنياتنا، جراءة الهتاف التي لا تتعداه إلى فعلٍ حقيقيٍّ يُنتجُ واقعًا جديدًا وملموسًا، هتفنا وهتفنا ولم تسعْنا أنفسُنا من فرط الحماسةِ وعدم تصديق ما وجدنا في أنفسنا القدرة على فعله، انبهرنا بأصواتِنا التي كُتمت طوال ذلك الزمن، لكن عندما وُضعنا وجهًا لوجهٍ أمامَ الفعل الحقيقيّ والتغيير الحقيقيّ انكشفت عورتُنا".

***

لأول مرةٍ في ذلك اليوم فهمت معنى أن السياسة لعنة، وأن المنشغلين بها هم أقدر الناس على قلب الحقائق وتشويش الأدمغة. لم يكن يعنيني ما يفعل من بيدهم مقاليد الأمر، ولا ما فعل المشاركون في التمرد الصغير، كنت من أنصار الحياة الشخصية والمدى الضيق للعيش ثم الرحيل بهدوء، ولكنني في ذلك اليوم شعرتُ أن في العالم أخطارًا أكثر بكثيرٍ من حيلِ طرد السُّوس من البيوت، وأفظعها المُقحمون أنفسهم في السياسة والمتكلمون فيها.

(4)

في اليوم الثالث لي في القاهرة بدأت رحلة البحث عن عمل، كان عليَّ أن أجد شغلاً أعول به نفسي، ولم أكن أمانع أي نوعٍ من الشغل طالما كان شريفًا ويدرُّ عليَّ راتبًا شهريًّا أقضي به حاجاتي من إيجارٍ وطعام ومصاريف دراسة. عندما أذكر هذا الآن أُحس كم كنت بائسة إلى أبعد حد. ساعتها لم أكن أشعر بأي مرارة، بالعكس، كنت سعيدة بنجاتي من بيت عمي وتعذيب زوجته والتخلص من سلطة أختي هِندة، وبدلاً من الشعور بالوحدة وبعدم امتلاك جذور أو عائلة تهتم لأمري كنت أرى أنني محظوظة وسأكون أكثر حظًّا لو استطعت الحصول على عمل، طلباتي من الحياة كانت دائما بسيطة.

بدأتُ رحلةَ البحثِ بعد انتهاء محاضراتي القليلة، سألتُ في محلاتِ بيعِ الملابس الجاهزة وفي المطاعمِ ومتاجر المواد الغذائية والمكتبات، أتعبَ البحث قدمي من الظهرِ حتى العشاء، وأكلَ الإسفلتُ حذائي وطاقتي، كنتُ أتوقعُ ألا أعثرَ على عملٍ منذ اليوم الأولِ ومع ذلك لم يخففْ توقُّعي من شعوري بالتعبِ والكآبة، لكنني وجدتُ ضالتي في نهايةِ المطافِ وبعد أن قررتُ التوقفَ عن البحثِ والمعاودةِ في اليومِ التالي، أخبرتني عاملةٌ في متجرِ ملابس أنَّ بالبرج نفسه الذي فيه المتجر عيادة أسنان تحتاجُ موظفةَ استقبالٍ، ووجهتني إليها لأرى إذا ما كانت الوظيفةُ لا

تزالُ شاغرة، صعدتُ بالفعل إلى الطابق الثامن من تلك البناية وأجريتُ مُقابلةً سُئلتُ فيها عن مؤهلي وإذا ما كنتُ سأستطيعُ التوفيقَ بين العملِ والدراسة، وقُبلتُ بالعمل؛ سأشغلُ وظيفةَ موظفةِ استقبالٍ من الساعة الثالثة ظهرًا حتى التاسعة ليلاً كلَّ الأيامِ ما عدا الخميس والجمعة براتبٍ ثمانمائةِ جنيهٍ قابلةٍ للزيادة على أن أباشرَ مهامي مع بدايةِ شهرِ أكتوبر؛ أي من المُفترض أن يكون بعدَ يومين اثنين، لكن وبما أنَّ الشهرَ الجديدَ يبدأُ يومَ الخميسِ والخميسُ ليس من أيامِ العمل فإني سأبدأُ أول أيامَ عملي يوم السبت القادم؛ ما أسعدني!

طوال الطريق بنيتُ آمالاً عريضةً على الثمانمائة جنيه، وكان هذا مبلغًا كبيرًا جدًّا لم أحلم بأن يتوفرَ لي كلَّ شهرٍ من كسبي الخاص ليصبحَ تحتَ تصرُّفي، كثيرةٌ هي الأشياءُ التي بوسعِ الإنسانِ أن يفعلَها بثمانمائة جنيه كلَّ شهر!

بين العيادةِ -محلِّ عملي الجديد- والشقةِ حوالي نصف ساعةٍ مشيًا على الأقدام، لكنني قطعتُها في ساعةٍ وزيادةٍ نظرًا لجهلي بالطريقِ الذي تسبب في تيهي أكثر من مرة، وكنت رغمَ ذلك في قمةِ نشوتي.

وصلتُ إلى الشقةِ في العاشرةِ وخمسٍ وأربعين دقيقة، وكانت ليلى في انتظاري في الصالةِ مع لميس وزينب، لم أستبشر خيرًا بنظراتها المتفحصة والتي بدا لي فيها شيءٌ من التقريع وإن لم تنطق به، في تلك الليلة زادتْ

في عيني رهبةً ومهابة، قالت لي دونَ أن ترفعَ نظراتِها عني بعدَ أن دخلتُ وأغلقتُ البابَ:

"هذا المكان له قواعد، من أهمِّها أنَّ هذا البابَ لا بدَّ أن ينغلقَ في العاشرةِ مساءً على كلِّ ساكناتِ البيتِ دونَ أن تنقصَ منهنَّ واحدة، ليس بوسعِ واحدةٍ أن تتأخر عن ذلك كيفما شاءت وإلا كانَ المكانُ بمثابةِ فندق وهو ما لا أقبلُ به، بيتي هذا اخترتُ أن يُشاركنيه أناسٌ نكون معًا كالعائلة لا أن أؤجِّرَه لأشخاصٍ لا أعرفُ متى يعودون إليه في آخر الليل، وإذا ما اضطررتِ للتأخُّرِ عن العاشرة فإن بإمكانِك مهاتفتي وإخباري أو مهاتفةِ إحدى صديقاتِك هنا لنكونَ على علمٍ أين أنتِ وما حالُك، لا تريدُ أيٌّ منا أن تتفاجأ برفيقتِها في السكنِ في نشرةِ الأخبار أو على شاشةِ الهاتف، كما لا تريدُ كذلك أن يسألها أهلُ صديقتِها إن وقعَ لها مكروهٌ: "أين ذهبت وكيف ولماذا" ولا تحسنَ الجواب، لسنا في فندقٍ يا رئيفة، عليكِ أن تنتبهي لذلك إذا ما كانت هذه غلطةً عابرةً أو غفلة، أما إذا كانت عمدًا ناشئًا عن اعتقادِك أنكِ حرةً في فعلِ ما تشائين وأن ليس لأحدٍ هنا عندكِ إلا الإيجار الذي تدفعينه بدايةَ كلِّ شهر ففي هذه الحالة من الأفضل أن تستردي إيجارك وتبحثي عن فندقٍ آخر".

لم تُعطني فرصةً للردِّ أو لشرحِ موقفي وقامتْ إلى غرفتِها فورَ أن أنهتْ كلامَها. سقطتْ دمعتان كبيرتان من عينيَّ فهرعتْ إليَّ لميس وزينب تواسيانني وفي ظنِّهما أنَّ تقريع ليلى هو ما آلمني، لكنَّ الحقَّ أنني بكيتُ

لسببٍ لا أُحسنُ شرحَه، بكيتُ من فكرةِ أنني فجأةً أصبحَ ورائي أحدٌ يسألُ إذا ما غبت، وقد كنتُ أظنُّ أنني أوجدتُ في هذه الدنيا كالغرضِ القديمِ الضائع؛ لا يُبحثُ عنه ولا يهتمُّ له أحد، وذكرتُ كلَّ المراتِ التي تهتُ فيها عن البيتِ فلم يبحث عني إلا حامد؛ ابنُ جارِنا الذي كنا نتبادلُ فيما بيننا الكرةَ والمضرَّة.

***

اغتسلتُ من غبارِ اليومِ الطويلِ المُنهِكِ وبدلتُ ثيابي ثم اتجهتُ إلى غرفةِ ليلى، طرقتُ طرقةً واحدةً كنتُ أنوي ألا أُثنِّيَها؛ إذ قد تكون نامت، لكنَّ صوتَها أتاني من خلفِ البابِ فائقَ القوةِ والمهابة، وكانت المرةَ الأولى التي أحببتُ فيها ليلى بشخصيتِها الغريبة..

"أتيتُ لأعتذرَ عما حصلَ الليلةَ ولأُحيطَكِ علمًا بأوضاعي فيما بعد"

لم تردّ بغيرِ إيماءةٍ تستحثُّني على المواصلة.

"لا أعرفُ ماذا ظننتِني حينَ تأخرت، لكنني لا أعرفُ في هذه المدينةِ أحدًا وتهتُ لساعتين، نعم كان بإمكاني أن أُهاتفَ أيًّا منكنّ لكن هذا إذا كنتُ أمتلكُ هاتفًا محمولاً. ثقي أنني لستُ شخصًا يعتنقُ الحريةَ المطلقة في التصرف لأن اعتقادَكِ بشيءٍ آخرَ يعني انفلاتي وهو ما لا أقبلُه كمجردِ احتمالٍ أو خاطر. ابتداءً من يوم السبتِ القادم سأعودُ إلى البيتِ في التاسعة والنصف مساءً أو قبلَ العاشرة بقليل"

"هل بوسعي أن أعرف السبب؟"

"بالطبع، حصلتُ على عملٍ يمتدُّ حتى التاسعة مساءً، يبعدُ عن هنا مسافةً تُقطعُ في نصفِ ساعةٍ أو أكثرَ قليلاً، هذا ما سأتأكدُ منه في المراتِ القادمة"

"وكان تأخُّرك الليلة لهذا السبب؟"

"نعم"

"أوليس شاقًّا عليكِ أن تعملي إلى جانب الدراسة؟"

"لم تكن حياتي سهلةً من قبلُ لتشقَّ عليَّ الآن"

قلتُ بثباتٍ مُبطَّنٍ بالسخرية، وبدا لي أن ما بينَ حاجبيها انعقد.

"على كلٍّ صرتِ تعرفين الآن أنني سأتأخرُ في العودةِ كل يومٍ -عدا الخميس والجمعة- حتى قرب العاشرة"

"ومع ذلك ضعي في بالِك أن تهاتفي أيَّ أحدٍ منا إذا حدثَ أيُّ أمرٍ عارضٍ يُؤخرك عن العاشرة، أتمنى ألا ترَيْ في هذا شيئًا من التسلط أو التدخل في شأنك لأنني أعتبرُ أنكِ أمانة أهلِك في هذا المكان وأنني بشكلٍ ما مسؤولةٌ عنك".

"لستُ أمانةَ أيِّ أحد، واطمئنّي لن يسألكِ أحدٌ ما إذا ما حصلَ لي شيء".

كنتُ مهزومةً تمامًا، مثل شخصٍ متروكٍ لم يرغب فيه أحد، وهي حالٌ لا أُحبُّ أن يراني أحدٌ عليها، لا أحبُّ أن يعرفَ أحدٌ أنني طالما كنتُ شخصًا غيرَ مرغوبٍ فيه، لكنني أحيانًا أندفعُ وتعوزُني الرويَّةُ حينما تُخدشُ جروحي.

"ما معنى هذا الآن؟"

سألتْ بنبرةٍ من استغلقَ عليه شيءٌ ويخشى أن يفهمَه.

"يعني لا أهمُّ أحدًا، لن يسأل عني أحد".

"وعائلتُك؟"

"لا أمتلكُ واحدة منذ زمنٍ بعيد، وهذا ما أردتُ أن أردَّ به حينما قلتِ إنَّ أحدًا من أهلِ إحدانا قد يسألُ الأخريات عنها، أردتُ أن أطمئنَك إلى أنني لستُ مسؤوليةً على عاتقِك، يمكنُكِ أن تحذفي واحدةً من حسبةِ الشقةِ إذن، لن تسألكِ عني عائلةٌ إذا ضعت، ولن يبحث عني أحد"

"كيف؟ أين كنتِ قبلَ أن تأتي إلى هنا؟"

سألت بتردد وقد بدا لي في نبرتها شيء من الارتجاف تحاول التغلب عليه..

"كنتُ في بيتِ عمي؛ الوصيِّ عليَّ منذ موتِ أبي وأمي وأنا في الخامسة، وعمي ليس شخصًا من الممكنِ أن يهتمَّ إذا عرفَ أنَّ مصيبةً لهفَتْني أو أنَّ سيارةً دهستني، أساسًا قد تمكَّن أخيرًا من التخلص مني"

صمتت لثوانٍ كأنَّها تفكِّرُ فيما عليها قولُه..

"يمكنُكِ إذن أن تُمكِّني هذه العائلة الجديدة من أن تمارسَ اهتمامَها بك، وهو شيءٌ يُفعلُ هنا ببساطة، أي أنَّه لن يكونَ شكلاً من أشكالِ التعويضِ يُفتعَلُ من أجلك، لو كنتُ مكانَك لاستغللتُ هذه الفرصة"

أنا شخصٌ يندمُ كثيرًا عندما يُعرِّي ضعفَه، يقتلُه أن يرى شفقةَ الآخرين عليه، قد يحتملُ أن يؤذى بنقاطِ ضعفِه التي عرَّاها لكن لا يحتمِلُ أن

يُشفقَ عليه من أجلِها، لذلك حمدتُ لليلى أنَّها لم تُحاول أن تُظهرَ لي كم أنني بنتٌ حزينةٌ ومُثيرةٌ للشفقة، والحقُّ أنني أعلمُ أنني كنتُ كذلك. لم تحاولْ أن تُهونَ عليَّ أو أن تُظهرَ شيئًا من المواساة، كلُّ ما فعلتْه أنها تعاملت مع وحدتي وانقطاعي كأنَّها مشكلةٌ عاديةٌ يمكنُ أن تحدث، أحيانًا يكونُ الأشخاصُ الأشدَّاءُ الذين نرى فيهم شيئًا من الجفاءِ مريحين أكثرَ إذا تعلَّق الأمرُ بأحزانِنا التي نُجبر على كشفِها ولا نودُّ أن نبدو كمُثيرين للشفقة.

فيما بعد عرفتُ أن ليلى كانت مثلي؛ وحيدة ومنبوذة، سوسةً تحاول أن تدخل بيتًا وتكون فردًا فيه فيجتهد أصحابه في طردها منه. كانت جافية تمامًا وتبدو لمن يتعامل معها باردة المشاعر، لكنها كانت تفعل هذا كأسلوب دفاع غريزي، طريقة تحاول بها تغطية جروحها حتى لا تُهاجم من أشد نقاطها ضعفا وهشاشة. كان لي عمٌّ جشع لا يرغب فيّ، وكانت لها عمةٌ كذلك لا توفر جهدًا لتتخلص منها وتستولي على الشقة، حاولت مرارًا أن تعطيها مبلغًا من المال لتترك الشقة دون أن يجدي هذا نفعًا، كانت قد اشترت من أمها نصيبها، لكن لما كانت ليلى صاحبة النصيب الأكبر فيها، لأنها كانت وحيدة أبيها، كان التخلص منها صعبًا، ولذلك خاضت المرأتان حربًا صامتة وشرسة طوال سنوات ولم تكن نهايتها خيرًا لليلى. لكنني كنت أختلف عنها؛ كانت أمي ميتة، لكن أمها كانت حية وميتة في الوقت نفسه.

***

في تلك الليلةِ ضايقني امتعاضُ أسماء الواضح مني والذي لم تكن توفرُ فرصةً للإيحاء به، لم تكن تحسبُ حسابًا لوجودي في الشقة ولم تكن تناديني باسمي، تتعمدُ مضايقتي بشكلٍ استعصى على فهمي وبحركاتٍ بغيضةٍ رأيتُ فيها كثيرًا من النزقِ والحماقة؛ مثل أن تكسر كوبي عمدًا أو أن تلقي أطباقي في سلة القمامة، أو أن تتعمَّد خبطَ أشيائي وهي مارة أمامَها، كانت لأسماء طريقةٌ رديئةٌ في التعبيرِ عن كرهِها وتبرُّمِها وعدم رضاها، ولكي أستطيع تقبُّلَها أقنعتُ نفسي في أولِ الأمر أنها لا تفعلُ لعداوةٍ شخصيةٍ بيني وبينها، وإنما لعدم رضاها عن وضعٍ قائمٍ من حقِّها ألا يُرضيَها. فقد كانَ وجودي الزائد في الشقةِ يُثيرُ حنقَها، لكن بعدَ أسبوعين من الفظاظة المتواصلة وانعدام الذوق لم أجد بدًّا من النفورِ منها، وزاد كرهي لها حين سمعت آراءها في نقاش دار بين البنات في إحدى الليالي، يا إلهي؛ كم كانت شخصيةً بغيضةً تنطوي على غيرِ قليلٍ من الشرِّ والآراءِ المعطوبة!

لا احتمالَ آخر، ثمةَ أشخاصٌ يُجبروننا على أن نكرهَهم، مهما نكن مرضى بالسماحة.

***

(5)

على عكس الطبيعة المبتهجة دائمًا لكاميليا يزن؛ كانت ميسون أبو سعدة النقيض غير المرغوب لكاميليا، فبينما كانت كاميليا متعهدة الترغيب في عيش الحياة وتحمل تكاليفها كانت ميسون المتعهد الرسمي للاكتئاب والتحبيط واتخاذ موقف عدائيٍّ من أي محاولة اقتراب، لذلك لم تكن أيٌّ منا تحاول الاقتراب من باب غرفتها، وعندما تصادف إحدانا في الصالة أو المطبخ كانت تعتبرها غير موجودة بالمعنى الحرفي للكلمة؛ لا ترد تحيةً ولا تُجيب سؤالاً ولا تُراعي وجودًا. كان من الغريب أن يتشابه قدَراهما إلى ذلك الحد رغم كل هذا التناقض بين شخصيتيهما.

***

من وقتٍ لآخر كانت البنات يتفقن على موعدٍ للاجتماع حول وجبةٍ جماعية، وغالبًا ما كانت ذلك الاجتماع في ليلة عطلة، ودائمًا كانت تدور فيه نقاشات طويلة تحتد أحيانًا وتلين أحيانًا أخرى.

كانت تلك المرة الوحيدة التي ما زلت للآن أشعر بمرارةٍ كلما تذكرتُها، على الرغم من أن بداية الليلة كانت سعيدة إلا أن خاتمتها فتحت في قلبي جرحًا كنت قد جاهدت طويلاً في رتقه.

حملت على عاتقي ليلتها مهمة إعداد الشاي بعد العشاء، حينما أخذت كلٌّ منهن فنجانها وارتشفت منه اتفقن جميعا على أنه ألذ شاي تذوقنه على الإطلاق!

"هذا ألذُّ شاي شربته في حياتي حتى الآن!"

قالت لميس.

"هنيئًا لكِ يا رئيفة، إن لميس بالذات هي مشروع ربة بيت قديرة، لذلك ليس سهلاً أن تثني على شيءٍ صنعتْه يدُ امرأةٍ غيرها، ولا تسيئي فهمي يا لميس؛ فليس ذلك عائدًا إلى قلةِ إنصافٍ فيها أو مبالغةٍ في اعتدادٍ بالنفس أو التعامي عن محاسن الغير، وإنما لأنَّ رضاءها في هذه الأمور، أقصد المتعلقة بالطبخ والأعمال اليدوية وشؤون البيت، صعبٌ جدًّا ومعاييرَها للجودة عالية وصارمة".

قالت زينب. فاعتراني سرور واعتزاز.

"حتى أن مشروعِ ربةَ المنزل هذه، وتدليلاً على صدق رأيِها وواقعيته، ستسألُكِ كيف صنعتِ هذا الشاي يا رئيفة".

سألت لميس وهي تضحك وقد ساد جو من المرح كانت أسماء تبدو دخيلةً عليه.

"هذا مستوًى في الاعتزازِ أعلى من السابق! الآن أخشى ألا يكون في الطريقة التي أعددتْه بها شيءٌ يستحقُّ هذا الاستحسان!"

"لا أظنُّ ألا يكون فيها شيء، هذا الشاي مميزٌ جدًّا، وقد لا يرجعُ هذا التميُّز إلى مكونٍ سحريٍّ لا نستخدمُه جميعًا، وإنما قد يكون أشدَّ بساطةً من ذلك، كأن يكون تفصيلةً صغيرةً جدًّا في طريقة الإعداد مثلا".

"لا أعرف إذا ما كانت هناك تلك التفصيلة الصغيرة. أنا غليتُ الماءَ على الفحم -وفي الأصل كنا نستخدمُ الأغصان اليابسة وأحطاب الحقل لكن لعدم توفرها هنا استخدمت الفحم- ثم نحيتُه عن النارِ ووضعتُ الشاي وثلاثَ حباتٍ من القرنفل وقلَّبتُه جيِّدًا وتركتُه خمس دقائق للنقع ثم أضفتُ السكر وصببتُه في الفناجين، هذا كلُّ ما في الأمر".

"ألم أقل لك إن الميزة قد تكمنُ في التفاصيل؟ هذه هي: نقع الشاي في الماء المغلي، لا غليُه معه ولا وضعُه جافًا في الفنجان وصبَّ الماء عليه. أضيفي إلى ذلك استخدام الفحم لا الغاز، لطالما سمعتُ أن شاي الحقل هو الشاي الألذ على الإطلاق!"

"صحيح، وربما لا يبعثُ الطعم الشعور بهذه اللذة بقدر ما يبعثه الطقس نفسه ونفسيةُ الذي يُعدُّ الشاي".

"هلا شرحتِ أكثر يا رئيفة؟ أنا مهتمةٌ جدا بثقافات الطبخ في البلدان المختلفة".

قالت كاميليا مبديةً اهتمامًا كبيرًا وابتسامةً ودودة. استحييتُ من اهتمامهن بطريقتي في إعداد الشاي، لكنَّ ذلك الاهتمام أعجبني، إذ

يسعدني إلى أبعد حدّ الكلامُ عن شيء أحبُّه، وكنتُ أحبُّ الشاي وصنعه وشربه وتقديمه للآخرين".

"بالنسبة للطقس فإن ما أقصده هو أنَّ لاستخدام حطب الحقل والأغصان اليابسة في إعداد الشاي معنًى أكبرَ من الاضطرار لتدبير وسيلةٍ لعدم امتلاك غيرها في ذلك الزمان وتلك الظروف، ذلك المعنى قد يكون الاهتمام بكل خطوةٍ في إعداده. قد يكون التحلُّقُ حول النار في انتظاره في عودةٍ حميمة إلى البدائية الأولى حيث كان الإنسانُ يُشعلُ حطبًا ليُنضجَ طعامه، تلك البدائية التي اندثر مع اندثارِها جزءٌ كبيرٌ من معنى الفعل الإنساني والروح التي فيه لتحلَّ مكانهما برودة التكنولوجيا التي تُقلِّصُ الوقتَ المعيشَ بين اثنين أو أكثر إلى حدِّه الأدنى، وتستبعدُ الضيفَ أو الصديق أو الحبيب من هذه العمليةِ الحميمة التي يُعدُّ فيها مشروبًا بكلّ هذه القدرةِ على الإيناسِ وتحسينِ المزاجِ وضبطِ الدماغِ من أجله، فيفقدُ الشايُ المُقدَّمُ شيئًا كان جميلاً أن يكونَ فيه، وهو أن نجلسَ أنا وجارتي، أنا وصديقتي، أنا والشخص الذي أحبه، حول هذه النار ونتبادل أطراف حديثٍ شيقٍ وأنيسٍ ونحن نتنشقُ عبقَ الشايِ وننتظرُه".

"هذا جميل!"

تتابعت التعليقات المُستحسنة، وأسعدني أنني نجحتُ في تحبيب شيءٍ أُحبُّه إلى أحدٍ ما".

"لكنكِ لم تُعدِّي الشاي بيننا فلم يكن ذلك المعنى حاضرًا، وعلى الرغم من ذلك فضلتِ بذل المزيد من الجهد في صنعه على الفحم رغم أنه يبدو نظريًّا تعبًا بلا فائدةٍ وجهدًا بلا عائد!"

"ربما، لكن حُبِّبَ إليّ الاستمساكُ بهذا الطقس في إعداد الشاي بالذات، هذه الطريقة وإن كانت لن تجمعنا حول النار لنتنشق رائحة الشاي وننتظره، فإنها تشرحُ صدري وتُحسنُ مزاجي، وتُشعرني أنَّ في اجتماعي بالشخص الذي أُعدُّه له مكانًا مُمكنًا للأنس والبهجة، لذلك أنا لا أُقدمُ الشاي لأي ضيف، مكانة هذا المشروب عندي وخصوصية طقسه وما يبعثه في نفسي تُحتمُ عليّ ألا أُعدَّه إلا من أجلِ شخصٍ أُحبُّه أو أُكنُّ له إجلالاً أو أنتظرُ منه أن يكون صديقي، أما الذين ليسوا أيًّا من أولئك فبالإمكان أن تُقدَّم لهم العصائر أو القهوة. وأذكر هنا قول شاعر ياباني اسمه (ليتشي لاي):

"ليس ثمة ما هو أكثر بؤسًا في هذا العالم من: إفساد الشباب المُرهف بالتعليم الخاطئ، وانحطاط الفن الجميل عبر الإعجاب السوقي، والهدر التام للشاي الجيد عبر التلاعب غير الكفء به".. وقد يقصد هنا بالتلاعب غير الكُفء بالشاي الجيد شيئًا من إهدار النبات نفسه في مراحل الصناعة أو ما شابه ذلك، لكنني أحبُّ فهم هذا التلاعب على نحو آخر مهما يكن قصد الشاعر، وهو إساءة إعداد الشاي سواءً بعدم اتباع طريقة جيدة أو باستخدام مكونات خاطئة أو رديئة، وإعداده بشيء من

اللامبالاة والاستخفاف، وإساءة اختيار الشخص الذي نقدم له شايَنا سواء بالاختيار الخائب أو بالإتاحة غير المسؤولة لأي أحد وكل أحد".

"يُعجبُني هذا ويثير اهتمامي، منذ وقتٍ طويلٍ لم أقابل أحدًا يمتلك كل هذه الرهافة وكلَّ هذا الاهتمام بالمعنى والتفاصيل وروح الأشياء قبل ظواهرها".

قالت ليلى وهي تُبدي إعجابًا بالغًا ارتسمت على وجهها أماراته، وقد كان فارقًا لي أن تقول ليلى بالذات هذا الكلام عني.

"كان هذا عن طقس الإعداد، فماذا عن نفسية المُعدّ؟"

سألت كاميليا..

"في بلدتنا عندما نُعدُّ شايًا في الحقلِ كنا نُعده بنفس الحفاوة التي نستقبل بها أيامًا سعيدة، في الفواصل المقطتعة من وقت الكدِّ في الحصاد أو الغرس أو تقليب التربة أو غيرها من مهام الفلاحة، كنا نهرع إلى مكانِ الشاي كمَن أُخبر خبرًا سعيدًا كان ينتظره، ويتسابق الأطفال منا في جمع الحطب اللازم ريثما تجهز الأمهات عُدةَ الشاي بينما ينشغلُ الرجالُ في أحاديثَ مهمةٍ كانت تستهوينا مُتابعتها، نحن الصغارُ الذين كانوا ينظرون إلى الكبار نظراتٍ كلُّها إعجابٌ وتهيب، وينتظرون الوقتَ الذي سيصبحون فيه كبارًا يعقدون تلك الأحاديث المهمة بكثير من الاهتمام وكثير من تعابير الجدِّية على الوجوه إيحاءً بخطورة الشأن.

وفي البيوت كان شاي الصيف يختلف عن شاي الشتاء، في طقوسه وفي معناه وفي حالاتِنا النفسية أثناء إعداده وأثناء تناوله. ففي الصيف كانت كل عائلةٍ تجلسُ على الحُصُرِ في فناءِ الدار، وعلى جانبٍ منهم تجلسُ أمام النارِ سيدة الدار تتعاملُ مع إبريق الشاي كأنه أحدُ أبنائها الأعزاء، وتحرصُ على أن تجمع حولها من لم يتزوجن من بناتِ العائلة ليتعلموا منها كيف يُمكنُ لامرأة أن تصنع الشاي، فكأنها تُريدُ أن تعلمهن كيف يُمكن لامرأةٍ أن تكونَ سيدة بيتٍ وتجمعَ أهله معًا كما تجمع خرزًا في عقد، أما إذا كان في الدار ضيفٌ فإن رجلاً هو الذي يتولى تلك المهمة، وجرت العادة أن تُسندَ إلى مَن يبلغُ من ذكور العائلة واحدًا بعد الآخر، فيستطيع الابن –متى ما بلغ– بإعداده الشاي في ركنٍ مخصصٍ لذلك من المَندَرة –وهي غُرفةٌ يُستقبل فيها الضيوف من الرجال، بينما تلتحقُ الضيفاتُ بنساء البيتِ في حجرةٍ أخرى مخصصةٍ لذلك– يستطيعُ أن يلتحق بمجلس الرجال ويسمع أحاديثهم ويتعلم منهم حتى تتوفر له الخبرة والدراية التي تؤهلُه لمشاركتهم الرأي والتدبير.

وعندما يُعدُّ الشاي وتُدارُ الكؤوسُ على الجالسين في الفناء ليلاً بعد أعمال النهار الشاقة تسري فيهم بهجةٌ صيفيةٌ خالصة، ويمتدُّ السمرُ من بعد العشاء إلى الساعة العاشرة، لذلك كانت السيدةُ التي تقومُ بإعداد الشاي تشعر بأنها تقوم بمهمةٍ سعيدةٍ في نشر الأنس في هذا الجمع الحبيب، فكانت تُشيع فيهم جوًّا من السرور والحبور وهي تُعدُّه إذ تهزجُ

أهازيجَ خاصةً درجت النسوةُ على التغني بها كلَّ مساءٍ وهن يُعددن الشاي لعائلاتهن. كان كلُّ بيتٍ يعتزُّ باجتماع العائلة في الفناء الداخلي للدار من أجل الشاي كلَّ مساء، وكانت الأمهات يمتلكن الجدارة باستجلاب السرور في تلك الجلسات، وكُنَّ يعتقدن أنهنَّ كلما كُنَّ أثناء إعداد الشاي فرِحاتٍ مُحِبَّاتٍ لأهل بيتهنّ مُكنَّاتٍ الحرص عليهم والرأفة بهم وتمني رؤيتهم فرحين ضاحكين فإنه يلذُّ في أفواههم وتحلو ليلتُهم، ويسودُ الوئامُ والودُّ والتوافق والترابط بين الإخوة وبعضهم.

أما شاي الشتاء فكان يُعدُّ داخلَ البيت، تُشعلُ النارُ خارجَ البيت في مدفأة تقليدية سهلة الحمل تُشبه إناءً كبيرًا، ويراقبها رجل البيت حتى تُصفِّي كلَّ دخانها الذي يحرقُ العين ويُضيِّقُ النفَس، ثم تُحملُ إلى داخلِ الدار فتُدفِّئُ الصالة ويلتفُّ حولَها الأبناء كبارًا وصغارًا، ويوضعُ إبريقُ الشاي في مُنتصفِها ومن حولِه يُرصُّ الكعك ليسخن ويتم تناولُه معه، فتشيعُ في الدار سخونةُ الدفء وعبقُ الشاي ورائحة الكعك، ويتولى كلٌّ من الأم والأب تقليب الكعك وصبَّ الشاي في الكؤوس وهما يُلاطفان العيال ويمسحان على ظهورهم ويُقربان البعيد منهم ويُدفآن البردان، وتدور كؤوس الشاي وقطعُ الكعك عليهم فتدفأ دواخلُهم وتشبع بطونُهم ويتضاحكون حتى يسيلَ من أعينهم النعاسُ فيحملَ كبارُهم صغارَهم إلى الفُرشِ الدافئةِ على ما فيها من تواضع.

هناك، في الريف، أيام كانت النارُ وسيلة إنارة الفقراءِ في سنين أزمة الطاقة، والشايُ مشروبَ مزاجهم وضيافتَهم ودلالة عمران بيوتهم بالخير والصحبة، كان لكلِّ شيءٍ معنى جميلا، لكلِّ تعبٍ ما يُهوِّنُه ولكل عكارةٍ في ماء العائلة لمَّةٌ تُزيلُها، لذلك عندما عادت أنابيب الغاز إلى البيوت لم يتخلوا عن النار التي تُسوِّي الشاي على مهلٍ ويجتمع حولَها البنات والصبيان، وظلت لشاي الحطب مكانته أينما صُنع؛ في الحقل، في داخل البيت شتاءً، أو في فناء الدار في ليالي الصيف".

في تلك الليلة أخذت أسماء الحديث من هذه النقطة إلى موضوع آخر تمامًا، زعمت أنني وأمثالي أحد أسباب تردِّي حال المرأة في هذا الزمان بما نعتقده عنها وبما نرضى به من هوان في حقها، لم أفهم تمامًا ما الذي كانت تعنيه، فاجأتني قفزتها الغريبة من هذا الموضوع إلى ذاك دون أي رابط فيما كان يبدو لي، ما علاقة مهارة الريفيات في صنع الشاي بسوء أحوال النساء في هذا البلد؟!

"إنني حقًّا لا أفهمك، ما الذي تحاولين قوله؟ إن أحوال النساء سيئة لأن كثيرًا من الرجال عتاةٌ يسيئون استخدام سلطاتهم، لا لأن النساء يحببن صنع الشاي في الريف!"

"أحوالهن سيئة لأن نظرتهن لأنفسهن وما يستطعن فعله هي نظرة مهينة ومُذِلَّة، ما معنى أن تكون كل وظيفة امرأةٍ في مكانٍ ما أن تُعدَّ الشاي لرجال العائلة؟!"

"مَن، قال إن هذا هو كل ما يفعلنَه؟!"

"ماذا يفعلن أيضًا؟"

"يربِّين العيال ويقمن على شؤون البيوت ويشاركن أحيانًا في أشغال الحقل و.."

"أي أنهن مجرد إماء، هذا تمامًا ما كنت أقصده"

"عفوًا! ما العلاقة؟ أي عبودية في أن تكون المرأة أمًّا أو ربة بيت أو عاملةً في حقل؟"

"ليس في هذه الأشغال بذاتها، وإنما كل علاقة ينحصر دور المرأة فيها في خدمة بقية الأطراف هي صورة من صور العبودية"

"تفكير غريب جدًّا وغير منطقي، على هذا النحو سنعتبر الزوج عبدًا لأنه يشتغل لينفق على زوجته، والأب عبدًا لأنه يفعل نفس الشيء لينفق على أبنائه!"

"ليسوا نفس الشيء؛ الرجل يأخذ مقابل إنفاقه؛ سيادته على امرأته وعياله، أما المرأة فلا تتقاضى أي مقابل"

"يعني هذا مكمن الإشكال عندك؟ أنها لا تتقاضى أجرًا على جهودها بينما يتقاضى الرجل؟"

"بالضبط، المرأة ليست عاملاً بالسخرة"

"حسنًا، لتستقلْ إذًا من وظيفة الزواج والأمومة، ماذا تريد أن تشتغل؟"

"أيًّا ما تحب"

"بعائد ماديّ"

"نعم"

"دون أن تتزوج أو تنجب"

"ليس شرطًا"

"كيف؟ أوليس الزواج والأمومة صورتين من صور العبودية؟"

"بإمكانها أن تتزوج وتنجب دون أن تكون أمة"

"كيف؟"

"ألا تكون خاضعةً للرجل، وألا تعطلها الأمومة عن أهدافها وحياتها"

"طبعا لأنها تتقاضى عائدًا ماديًا مقابل تحقيق أهدافها بينما لا تتقاضى أي شيء مقابل الزواج والأمومة، يعني يمكن اعتبارهما تطوعًا غير مُلزم لصاحبه"

"ليس بالضبط لكن صحيح"

"طيب إذا كانت المرأة متطوعة في عملية التربية، والرجل ليس موجودًا معظم الوقت، من المسؤول إذًا؟"

"ليكن المسؤول مَن يكون، لماذا يطلب منها هي أن تُضحي بمستقبلها من أجل هذا الطفل؟ أليس الزوج شريكها فيه ويحمل من المسؤولية مثل ما تحمل؟ فلماذا إذن لا يتفرغ هو له؟ لماذا يُطلب من المرأة أن تكون الطرف الأضعف والذي يقدم التضحيات دون كلل على الدوام؟!"

"ليست مسألة طرف أضعف وإلزام بالتضحية يا أسماء، هناك طفل أتى إلى هذه الدنيا ويحتاج رعاية وتربية.."

قالت لميس بكل ما يمكن لإنسانٍ أن يكون هادئًا في مواجهة عاصفة انفعالية كالتي هبت من ناحية أسماء.

"وهل الرعاية والتربية مسؤولية الأم وحدها؟"

"لا طبعًا، ولكنها مسؤولية الأم في المقام الأول، منذ خلق اللهُ الخلق وهذا معروفٌ ومُسلَّمٌ به؛ من أجل إنشاء بيتٍ سليم يلزم رجلٌ كفء قادر على كسب الرزق وامرأة رشيدة تمتلك المهارة اللازمة لرعاية الأبناء وتدبير أمور البيت"

"أنا لا أعترف بهذا التقسيم المُجحف للمهام، والذي يحصر دور المرأة في الكنس والطبخ وغسل الأواني كأي امرأةٍ من الدرجة الثالثة، المرأة إنسان كامل من حقه أن تكون له طموحاته الخاصة ومشاريعه الخاصة والطريقة التي يثبت بها نفسه!"

"ولكي يكون لها طموحاتها ومشاريعها الخاصة، ولكي تثبت نفسها وتستل الاعتراف بأنها إنسان كامل، لا ندري من اتهمَه الآن بأنه ناقص، لكي تفعل ذلك لا بد أن تضحي بأطفالها؟ ألا تكون تلك أنانية عندما تختار المرأة الارتقاء الوظيفي أو جني المال الخاص على حساب تلك الكائنات الصغيرة؟"

قالت ليلى.

"ولماذا تُسأل وحدها عن تلك الكائنات الصغيرة؟!"

"لا تسأل وحدها ولكن تُسألُ أولاً؛ لأنها الأم، لأن هناك اختصاصًا في الأسرة؛ الرجل مُكلَّفٌ بكسب المال والمرأة مُكلفةٌ برعاية العيال، وكلاهما معًا مُكلَّفان بعملية التربية التي تتجاوز بكثير الإنفاق وتغيير الحفاظات"

"لا أؤمن أن على المرأة بالذات التخلي عن طموحها ومستقبلها لكي ترعى الأطفال"

"ما طموحها وما مستقبلها إذا قصرت في وظيفتها الأولى؟ وما حجم النجاح وما مقدار اللذة اللذين ستشعر بهما إذا صارت وزيرةً وكان بيتها مبعثرًا وأبناؤها غير أسوياء؟ هذا إذا افترضنا جدلاً استحالة أن توفق المرأة بين صفتها كربة بيت وعملها كإنسانة تلقت تعليمًا في مجالٍ ما وسعتْ للإفادة فيه، مع أننا لا نقول بذلك الآن، ولم يطلب أحد منها أن "تضحي بمستقبلها" تمامًا، وإنما أن تحاول التوفيق وتحرص على عدم هضم حق البيت والزوج والأولاد في سعيها المحموم لإثبات جدارتها خارج البيت، وهذا التوفيق قد يقتضي في حالة إحدى النساء أن تُبطِّئ من سرعة تطورها الوظيفي لانشغالها ببيتها وأبنائها، وقد يقتضي عند امرأة أخرى أن تترك العمل بالكلية، إما لكثرة أبنائها أو لعدم قدرتها على فعل الشيئين في الوقت ذاته، أي أن هذا يختلف من امرأة إلى أخرى حسب ظروف كل واحدة وقدراتها.

واختصارًا لهذا كله يا أسماء: كوني أيًّا ما شئت وحققي ما تريدين من النجاح كامرأة عاملة لها كيانها الخاص، لكن إذا اخترتِ أن تكوني زوجةً وأمًّا -وهو شيءٌ لن يُجبركِ أحدٌ عليه- فعليكِ أن تقبلي عن طيب خاطر تبعاتِ هذا الاختيار والتي يمكن تلخيصها في أن يكون البيت والزوج والأولاد في صدارة أولوياتك، وأن يقع عليهم اختيارك إذا اضطررتِ للاختيار بينهم وبين وظيفتك واستحال عليكِ الوفاء بحقوقهم لكونك امرأة موظفة في مكان ما"

قالت لميس بصبر غبطتُّها عليه.

"هذا يشبه أن تقولي إن على المرأة إذا اختارت أن تكون زوجةً وأمًّا أن تقبل أن تكون بالتبعية تحت خطر التخلي عن وظيفتها في أي وقت، يبدو لي هذا كعقاب!"

"لأنك لا تُحسنين فهم الزواج ولا الأمومة، وأريد أن أقول لكِ: لو كان صعبًا عليكِ التخلي عن وظيفتك أو أخذ إجازة منها من أجل رعايةِ طفلٍ صغير أنتِ مَن قررَ إنجابه وليس أحدًا آخر فينبغي أن يكون من السهل عليكِ في المقابل ألا ترغبي في الزواج أو الأمومة، طالما أنك شديدة التمسك بكيانك العملي وضرورة تحقيق نفسك في موقعك الوظيفي إلى حدٍّ أن تستطيعي التضحية بأي شيء آخر فعليكِ إذن أن تُضحي ولا تتزوجي أو تنجبي، لكنني أعرفُ أنك لن تفعلي ذلك. لأنك تريدين امتيازات الزواج وإرضاء غريزة الأمومة دون أن تتكبدي عناء الالتزام بشيء،

مع أنك في عملك تتكبدين الكثير من المتاعب وترضين بكثير من الالتزامات التي قد لا تكون مطلوبة منك أصلاً من أجل أن تصلي إلى مبتغاكِ! وعلى كلّ أنا جفَّ ريقي من الكلام".

كان أسوأ شيء فعلتُه في تلك الليلة أنني تكلمتُ مرةً أخرى!

"في رأيي أن أسماء أشارت في ثنايا حديثها دون أن تنتبه إلى الخلل الذي ينشأ عنه هذا الخلط في تصور كل من الأمومة وتحقيق الذات، وهو أنها ترى أن البيت لا يحتاج أكثر من امرأة من الدرجة الثالثة تمتلك معرفة لا بأس بها بشؤون بيتية روتينية لا يُرى فيها أي تميز، وهذا يجعلنا قادرين على استشفاف تصورها عن ربة البيت؛ فهي عندها المرأة التي تكنس وتطبخ وتغسل الثياب والأواني ولا تجد الوقت للعناية بنفسها أو الترفيه، والأم على نفس المنوال هي التي تُرضع وتُطعم وتغير الحفاظات. ومع خطاب مجتمعي يُدخل في عقول النساء أن المرأة المُوظفة أو العاملة تستحق كل الإشادة والتقدير كونها امرأة أكسبتها صفة العمل رتبةً رفيعة حتى وإن كان عملها روتينيًا خاليًا من أي إبداع أو تميز، وإن كانت تقضي وقته في الثرثرة مع زميلاتها أو الحديث في الهاتف، بينما لا تحظى ربة البيت بأي إعجابٍ أو تقدير، فهي مجرد امرأة عاطلةٍ وخاملةٍ تقضي النهار كله في البيت، مع هذا الخطاب المشوّه أسهمت تلك النظرة القاصرة لمتطلبات مهنة كبيرة كمهنة ربة البيت والأم في تبغيضهما إلى عدد لا

يستهان به من نساء هذا العصر، حتى صرن يرين في الاقتصار الوظيفي على وصف "ربة بيت وزوجة وأم" هدرًا فظيعًا لمواهبهن وإنكارًا غير منصف لجدارتهن، بينما لو أحسنت الواحدةُ منهن فهم الزواج كنواةٍ لمجتمع صالح وصحيح، ووعتْ متطلبات الأمومة وأنها لا تقتضي فقط امرأةً على معرفة بالحد الأدنى من مهام الغسل وإعداد الرضعات وما شابه، وإنما تحتاج امرأة واعية على قدر عالٍ من الثقافة التربوية والنفسية، وتمتلك الأدوات اللازمة لإدخال فكرةٍ وغرس قيمة وترسيخ مبدأ، وتحمل في نفسها القدوة التي يصح لطفلها إذا نظر إليها أن يتعلم عمليًّا ما ينبغي عليه تعلمه، لو أحسنت فهم كل هذا ووعتْه لأدركت أن الأمومة والقيام على شؤون البيت أصعب وظيفةٍ من الممكن أن تشغلها امرأة، وبدلاً من أن تحاول إثبات جدارتها التي تفوق الاكتفاء بتلك الوظيفة والتخلي من أجلها عن الترقي في مهنة الطب أو الهندسة أو المحاماة فإنها ستراجع قدراتِها مئة مرةٍ لترى إن كانت مؤهلةً كفايةً لوظيفة الزواج والأمومة. وطبعًا، لكي لا يُساء الفهم، لا أقول إن كل هذه المطالب تختص بها المرأة وحدها دون الرجل، بل مطلوبٌ منهما معًا أن يكونا مؤهلين تأهيلاً كافيا للزواج وللتربية. ولا يمكنني الزعم أن كلّ رباتِ البيوت ناجحاتٌ كزوجات وأمهات، ولكن هذا خلل آخر يستوجب الإصلاح، خللٌ ناتجٌ عن تجهيل المرأة بمقتضيات وظيفتها الشريفة كزوجة وأم.

وأخيرًا، إن بوسع الكثيرين أن يُقدموا للمجتمع ما تُقدمُه الطبيبة والمهندسة والمُحاسبة والمحامية ولكن ليس بوسع أي أحدٍ أن يجبر تقصيرها في وظيفتها التي لن يقوم بها سواها، أي وظيفتها كأم".

"من المثير حقًّا أن كلّ هذه الخطبة الحماسية والطويلة في تزيين دور ربات البيوت وترسيخ معاني البيت والأسرة هي من نفس الإنسانة التي قالت لصاحبة هذا البيت في أول ليلةٍ لها هنا إنها بلا أهل وأنَّ أحدًا لن يسألها أو يحاسبها إذا اختفت فجأة عن الوجود! كلُّ هذا وأنتِ لم ترَي ذلك الترابط الأسري الذي يُعززُه وجود أمٍّ تُقدرُ مهمة الأمومة في البيت، ولربما لم يكن لكِ بيتٌ أصلاً! أحسنتِ حقًّا؛ كم أنَّ الإنسان كائنٌ يمتلك قدرة هائلةً على التظاهر بعكس ما هو عليه!"

جمَّدتني الصدمةُ وفقدتُ أي قدرةٍ لي على الكلام، لم أستطع إلا أن أرفع رأسي وأنظر داخل عيني أسماء بتحدٍّ لم أستطع فهمه. يحدث أن تذبحنا كلمة، لكننا نُدركُ عندما نسمعُها أنه يتحتمُ علينا ألا نترك دماءنا تظهر على السكين لأن هذا سيذبح كرامتنا أيضًا، وهو ما لا نستطيع تحمله.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ساد جو من المفاجأة تداركتْه ليلى سريعًا..

"أسماء.. احزمي أغراضك واتركي هذه الشقة حالاً، ولا أريد أن أراكِ حول هذا المكان مرة أخرى ولو كصدفة عابرة".

وقالت كاميليا بعصبية:

"هذه سمات الذين لا يقفون في آرائهم على أرضية صلبة من الحجة والمنطق؛ عندما يعجزون عن الرد تمامًا يُحاولون تسديد ضربة غير نظيفة، متخيلين أنهم بهذا ينتصرون لرأيهم، بينما هم في الحقيقة يفعلون ذلك انتصارًا لغرورهم المزيف والجريح، وفي النهاية لا ينتصرون لهذا ولا لذاك، ولا يستطيعون سوى أن يكونوا مُقرفين ومثيرين للتقزز!".

كلٌّ واحدةٍ في ذلك المجلس وبختها بما يكفي حتى تركت الصالون مهرولة إلى غرفتها؛ انطلاقًا من المسؤولية الأخلاقية تجاه تصرف غير خلوق أو إشفاقًا عليَّ، أيًّا ما تكن الأسباب فقد اجتمعن على توبيخِها وتسخيف فعلها وتأييد قرار ليلى بطردها من الشقة، وعلى عكس ما قد يكُنَّ توقعن لم يخفف ما فعلنه من حدة الموقف الذي تعرضتُ له، وإنما زاد من شعوري بالحزن وبكوني أصبحتُ أُرى فجأةً كشخصٍ مثير للشفقة يسعى الجميع للربت على ظهره والتخفيف عنه.

ألححتُ ساعتها على رفض هذا الطرد، وكمحاولة لشرح هذا الإلحاح الذي وجدن صعوبة بالغة في فهمه قلت بأن طردها سيعني أنها ارتكبت في حقي إثمًا كبيرًا بذكر ظروفي العائلية الخاصة، وأنا لا أود اعتبار هذا الأمر إثمًا يُجرِمُ من يأتي على ذكره ويُعاقب بالطرد، وأنني أتفهم مشاعرهن الطيبة تجاهي ورغبتهن في الوقوف في صفي، لكن رحيل أسماء عن هذه الشقة لن ينتج عنه سوى أن أشعر بعده بأنني هذا الشخص الذي أشفق عليه الجميع وعاقبوا مَن حاول جرحه بذكر ظروف حياته الخاصة بطريقة هازئة

ومُستخفّة، لذلك لن أستطيع البقاء هنا إذا تم طردها لأنني لن أستطيع أن أكون ذلك الشخص، ومهما يكن فإنه لم يبق لها إلا أسابيع قليلة قبل أن تغادر الشقة من نفسها لانتهاء دراستها.

لا أعرفُ ماذا قالت لها ليلى كإلغاء لقرار الطرد، لكنها دخلت عليَّ الغرفة في تلك الليلة بعد رحيل الجميع واتجاه البنات إلى غرفهن، نظرت إليَّ ثم إلى لميس ثم إليَّ مرة أخرى بكلِّ الحنق الذي يُمكن لإنسان وقالت لي:

"لا تظني أنني سأبقى هنا بفضل سماحتك اللعينة، بل سأبقى لأنني لا أرى أنني أخطأت، وتأكدي أنكن جميعًا ستدفعن ثمن ما حصل الليلة، ومَن لم يُرضِني الثمن الذي دفعتْه سأحرصُ بنفسي أن تتكبد العقاب الذي يُرضيني".

نجحتُ فيما أردتُه من إبداء عدم التأثر والصلابة أمامهن في ذلك الوقت، تمكنتُ من التحكم في غددي الدمعية وإجبارها على ألا تذرف دمعةً واحدة في حضور واحدة منهن، وفي الليل عندما أوين جميعًا إلى فُرُشهن وخلوتُ بنفسي على تلك الأريكة بكيتُ كثيرًا حتى أحرقتُ عينيَّ وانشقَّ قلبي.

***

(6)

مرت السنتان الأُولَيان لي في "شقة العباسية" سهلتَين ولطيفتين في المجمل إذا استثنينا البلادَ التي لم تكن تعرف كيف تستقر على حال.

من الشقة للجامعة، من الجامعة إلى الشغل، ومن الشغل إلى الشقة؛ كان ذلك ملخص أيامي ما عدا يومي الخميس والجمعة، ورغم الإنهاك الجسدي وتمددات التعب على جسمي وإمعاني في النحول كنتُ أشعر أنني على خير ما يُرام؛ أنا طالبة في الكليةِ التي أُحبها، حصلتُ على تقديرٍ عامٍ جيدٍ جدًا في الفصل الأول، حظيت بوظيفة جديدة كموظفة في دار نشر أتقاضى عليها دخلاً شهريًا ثابتًا يُمكنُني من دفع إيجار السكن والإنفاق على نفسي وتكاليف الدراسة، صار عندي هاتفٌ محمولٌ يفتحُ لي نافذةً على عالمٍ إليكترونيٍّ سحريٍّ وفسيح، صار عندي حذاءان بدلاً من واحد، وأصبح معي معطفٌ شتويٌّ طويلٌ من الصوفِ بلون العنب، وحقيبةٌ نسائيةٌ أنيقةٌ بلون الكرز، وقميصان وثلاثة إيشاربات وشالٌ صيفيٌّ وتنورةٌ سوداء رائعة. ورغم أن كل هذه الأشياء ليست من أغلى ما يكون ولكنها تعني لي كثيرًا، وأتمنى أن تُتاح لي الفرصة للحديث عن كلّ منهم بتفصيل أكثر.

في تلك الأيام تغيرتْ نظرتي لنفسي كليًا، نظرتي لأنوثتي وتعاملي مع جسدي على وجهِ الخصوص، فلقد عشتُ بينَ بناتٍ ناعماتٍ، يُمارسنَ العنايةَ الشخصيةَ ببساطةٍ كما يشربْن الماء، وبدا لي أنَّهن نزلن من بطونِ أمهاتِهنّ يُجدْن أصول العناية والاهتمامِ بالجمال، أو أنَّ أُمهاتِهن دأبْن على تعليمِ الواحدةِ منهُنَّ كيف تُنظفُ نفسَها كأنَّها تُلمِّعُ قطعةَ ألماس، كيف تغسلُ شعرَها وتُمشِّطُه وتُدلِّله بالزيوتِ والدهاناتِ مثلَ طفلٍ صغير، كيف تُهذِّبُ أظافرها بدلالٍ وتُرطِّبُ جلدَها بحنوٍّ كأنَّها تُمسِّدُ فراءَ وسادةٍ في الجنة، كيف تتعاملُ مع كلِّ جزءٍ في جسدِها على أنَّه الجزءُ الذي خرجَ للتو من تحتِ يدِ اللهِ الذي أتقنَ كلَّ شيءٍ صنعَه، ولم تكن لي أمٌّ لتُعلِّمَني، لكنني راقبتُهنَّ بخشوعٍ ودوَّنتُ في مُفكرتي منذ اليومِ الأول لي بينهنَّ ما أحتاجُه من الأدواتِ والوسائلِ لأكونَ تلك الأنثى المُعتدَّة بأنوثتِها، التي تهتمُّ بجسدِها كما تهتمُّ بعقلِها وروحِها، والتي تعتني بجمالِها باعتياديةِ مَن تشربُ كوبَ ماء؛ فهي لا تتذمَّرُ إذا قامت لتشرب ولا تُخطئُ يدُها موضعَ فمِها.

كُنَّ صاحباتِ حيلِ العنايةِ الحديثة، وكنتُ ربَّةَ الاهتمام التقليديِّ القديم؛ الاهتمامِ الذي أشربتْنيه جدتي قبلَ أن تواتيَني حيضتي الأولى ثمَّ تركتْني بعدَ ذلك لأواجهَ أنوثتي الفعليةَ وحدي. كُنَّ –في عنايتِهنّ بأنفسِهن وفي أفكارهنّ عن الأنوثةِ والزواج والبيوت– بناتٍ ناعماتٍ مثلَ بتلاتِ الورد، وكنتُ بنتًا حادةً مثلَ نصل، قد جئتُ من الريفِ بحمولةِ أفكارٍ

أصوليَّة لا تُضاهيها في النزاهةِ أفكار، لكنَّها تفتقدُ إلى طراوةِ ونعومةِ الأنثى في قاموسِ البندر، فكانَ لا بدَّ لي من أن أنبهرَ بسيلِ الأضواءِ الأنثويةِ المُلوَّنةِ البرَّاقةِ وأنا أُنثى اللونِ الواحد.

كانت جدتي امرأةً راسخة، أورثتْني هذا التطرفَ في الأنوثة، مع أصالةٍ قديمةٍ أبقتْني واثقةً من أفكاري فيما يخصُّ كوني امرأةً تعرفُ قدرَ نفسِها وتقدرُ البيتَ والزوجَ والأولادَ كلاً منهم قدرَه دونَ أن تُهوِّنَ من نفسِها أو ترى في ممارستِها أدوارَها الأولى هدرًا أو تواضعَ شأن، ثم أتاحَ لي سكنُ شقةِ العباسية مع أولئك البناتِ أن أضعَ أفكاري الأصيلةَ على الطاولةِ وأُزيِّنَها بطقوسٍ جديدةٍ تنطوي على كثيرٍ من تقديرِ الجسدِ وحبِّ الذات، وكنتُ من الرزانةِ بحيثُ أمكنَ لي أن أُحبَّ جمالي وأعتني به، دونَ أن تدفعَني تلك العناية به أو ذلك الزهوُ الناشئُ عنها إلى أن أبتذلَه وأستجلبَ الثناء عليه.

وكبنتٍ تعرفُ جيِّدًا قيمةَ كلِّ شيءٍ صغيرٍ تشتريه من كدِّها في العملِ قدَّرتُ أشيائي الجديدة أيَّما تقدير، حتى أنني كنتُ أُسلِّمُ عليها عندما أستيقظُ من نومي وعندما أعودُ من الشغل، وما أكثرَ ما امتننتُ للهِ على امتلاكي كلَّ هذه الأدواتِ والوسائلِ لأهتمَّ بجمالي؛ دهانٍ يقي بشرتي من أشعةِ الشمس ويحفظُ وحدةَ لونِها، غسولْ لتنظيفِها بلطفٍ وعمق، دهانٌ لترطيبِها قبل النومِ وبعدَ الصحو، قناعات طبية للوجه بمكوناتٍ مُغذية، والكثير من المُستحضرات للعناية بالبشرة والشعرِ وفرتْ لي طقوسًا كنتُ

أجدُ فيها لذةً لا تُضاهى وتمنحُني ثقةً في جمالي الذي كنتُ أتعهدُه بالتدليل والرعاية، والذي رأيتُ أنَّه حريٌّ بذلك التدليل.

باختصار كنتُ مُحصنةً ضدَّ طولِ الكآبة وهجماتِ الذاكرة المسعورة، نسيتُ كلَّ شقاء طفولتي ومراهقتي، وأنا، إذا تحرَّينا تفسيرًا صحيحًا لسعادتي في تلك الأيام، إنسانةٌ تمتلك قابلية عاليةً واستعدادًا فطريًّا للفرحِ بأقل الأسباب المُتاحة، وعندها من جاهزية الرغبة في نسيان الأيام الصعبة ما يُمكنُها من رؤيةِ الحياةِ كفردوسٍ أرضيٍّ متى ما توفَّرت لها أسبابُها الصغيرة والبسيطة.

يُضاف إلى أسباب سعادتي في ذلك الوقت حظوتي لدى بنات الشقة خاصةً لميس وزينب وكاميليا، يُمكنُني القول أنني ربحتُ ثلاث صديقاتٍ رائعات دفعةً واحدة، توثقت أواصر الصداقة بيننا بسرعةٍ وكنا كثيرًا ما نجتمعُ في إحدى غرفتينا ليلاً ونقضي الوقت في السمر أو في مشاهدةِ أفلام الرسوم المتحركة، وأحيانًا كنا نشترك في إعداد طعامٍ ندعو إليه الجميع، وكثيرًا ما باءت محاولاتُنا المطبخية بالفشل خاصةً في تلك الأكلات التي كانت غريبةً عليَّ لأنَّها لا تُعَدُّ غالبًا في قرى الريف، وإلا فما كنتُ لأسمحَ، وأنا التي تربيتُ في المطبخِ وأمامَ التنور، أن تفسدَ طبخةٌ تُعدُّ في وجودي.

***

في يناير 113 تعرَّفتُ إلى ميسون أبو سعدة للمرةِ الأولى، كانت حتى ذلك الوقت مجرد طبيبةٍ مُنقبضةٍ عن جاراتِها الطالباتِ لا تُحبُّ أن تطرقَ بابَ غرفتِها إحداهن تحت أي ظرف، لذلك لم يكن مسموحًا لأيٍّ منا أن تقتربَ من ذلك الباب، وحدَها ليلى كانت تفعل، ليس لأنها صاحبة الشقة التي تستأجر ميسون إحدى غرفِها، بل لأنَّها صديقتُها الوحيدة.

كانت ليلةَ جمعةٍ وقد عدتُ لتوي من نزهة بالخارج، وقد تلقيتُ على جسمي ما يكفي من المطرِ لأُزكمَ أسبوعًا كاملا، لكنني كنتُ في أسعدِ حالاتي. لم يكن في الشقةِ في تلك الليلة غيري أنا وميسون، ليلى ستبيتُ في المشفى، وبقية البنات في بيوتهن يقضين عطلة منتصف العام، لم يبقَ إلا أنا في عالمي السعيد وميسون في عالمِها الذي لا أعرفُ عنه شيئًا.

فورَ أن عدتُ إلى الشقةِ خلعتُ ملابسي التي غرقت في ماء المطر إلى حدٍّ استلزمَ أن أعصرَها قبلَ أن أضعَها في سبَتِ الغسيل، أخذتُ حمَّامًا ساخنًا أعادَ ضبطَ حرارةِ جسمي الذي يُوشكُ أن يتجمَّدَ، ارتديتُ بيجامتي الشتوية الأثيرة ولففتُ شالاً صوفيًّا حول كتفيّ..

"هذه أجملُ فوائدِ شراءِ الملابسِ من محلاتٍ فارهة؛ تكونُ لها رائحةٌ جميلةٌ وتستمرُّ فيها طويلاً"!

قلتُ لنفسي وأنا أدسُّ أنفي في خيوطِ الشالِ وأتنشَّقُ عبقَه وأُمنِّي مِزاجي بليلةٍ شتويةٍ رائعةٍ بصحبةِ كتاب جديد. حينما صارَ حساءُ الخضراواتِ جاهزًّا كانت الساعةُ تُشيرُ إلى الثانيةَ عشرة وسبع دقائق بعدَ

منتصفِ الليل، ولأنَّ الليلَ صديقي الأقربَ بين كلِّ الأوقاتِ كنتُ أُحبُّ أن نسهرَ معًا، ولم أكن أنامُه في العادةِ إلا مُضطرةً بسببِ تعبٍ أو سيطرةِ نعاس.

ليس في الشقةِ أحد، وهذه ليلةٌ رائعةٌ لأقضيَها وحدي. أخذتُ طبقًا من الحساءِ يتصاعدُ منه البخار ساخنا ولذيذا إلى الصالة، جلستُ على الأريكةِ ومددتُ غطاءً فوقَ قدميّ، وعلى المنضدةِ أمامي رحتُ أتفحصُ غلاف الكتاب الذي كنت على وشك قراءته.

وبينما كنتُ أتقلبُ من سعادةٍ إلى أخرى في الصالةِ قطع الصمت صوت مفاجئ؛ كانَ صوتَ آلةٍ موسيقيَّةٍ اعتقدتُ أنَّها ناي، وعرفتُ بعد ذلك أنها كلارينيت؛ آلة صنعَها عاشقٌ من عظامِ زوجتِه الميتة، لذلك كان لها صوتٌ كالبكاء، ينبثقُ من حجرةِ الطبيبةِ الغامضة، ميسون أبو سعدة التي انفتحتْ في قلبي مثلَ جرحٍ ولم تندمل قط.

كانَ الصوتُ حزينًا على نحوٍ لا يُمكنُ تحمُّله، لم أستطعْ ساعتَها أن أُحدِّدَ إذا كانَ يُشبهُ نواحًا خفيًّا أم ولوغَ سكينٍ حادٍّ في دم، وعرفتُ وأنا أسمعُه أنَّه عزفٌ حيٌّ لا ينبعثُ من أسطوانةٍ أو تسجيلٍ لأنني كنتُ أسمعُ أنفاسَها قريبةً بوضوحٍ، تتقطَّعُ على شكلِ المعزوفةِ وتصعدُ وتهبطُ في منحنياتِها.

امتدتْ تلك المقطوعةُ الرهيبةُ على طولِ أربعِ دقائقَ تقريبًا، نخرتْ خلالَها روحي ثم انسحبتْ فجأةً مثلَ خروجِ سكينٍ من اللحم، وبقيتُ

بعدَها ساعةً في مكاني مأخوذةً بالرعشةِ التي أمسكتْ قلبي وبرغبةٍ جارفةٍ في طرقِ الباب، وبعدَ ترددٍ طويلٍ وتفكيرٍ في الأمرِ كتبتُ ملاحظةً صغيرةً على ورقةٍ ملونةٍ وألصقتُها على بابِ غرفتِها:

"مرحبًا؛ اسمي رئيفة. أثَّرتْ فيَّ المقطوعةُ التي عزفتِها إلى حدٍّ لا تتصوَّرينه، هل يُمكنُني أن أدعوكِ إلى فنجانِ شاي؟"..

وفي السابعةِ صباحًا عندما خرجتُ إلى الصالةِ لأتابعَ نشرةَ الأخبارِ لاحظتُ غيابَ الورقة، وكانت على البابِ رسمةٌ تشغلُ نصفَه الأعلى كلَّه، رسمةُ علامةِ الخطر؛ جمجمةٍ تتقاطعُ عليها عَظْمَتان حمراوان.

إنها تُحذِّرني؛ إنها ترى نفسَها سامَّة!

***

(7)

عندما كان يُناديني حامد في طفولتِنا "شيتا" ساخرًا من شعري الطويلِ المُجعَّدِ لم أكن أستطيعُ أن أسخرَ منه إلا بلساني؛ كانَ باستطاعتِه أن يُطبِّقَني كورقةِ كرَّاسٍ ويُطوِّحَني في الهواءِ ويُصوِّبني مثلَ حربةٍ إلى جذعِ شجرةِ التوتِ التي في الحقل، لم يفعلْ ذلك لكنَّه شرحَه لي عندما سألتُه مرةً هازئةً عما بإمكانِه أن يفعلَه لو لم أُعطِه كرتَه المطاطة، سخرتُ منه وأخرجتُ له لساني لكنني رميتُ له الكرةَ لأنني صدقتُه، صدَّقتُ أنَّ بإمكانِه أن يستخدمَني كحربةٍ رغمَ أنَّه لا يكبرُني إلا بيومين، لكنَّه كان جسيمًا، وكنتُ شديدةَ النحولِ وليسَ في شيءٍ مني صحةٌ إلا لساني.

ما زلتُ أحتفظُ بهذه الندبةِ تحتَ ذقني كتذكارٍ منه، كنتُ قد نعتُّه بالحمارِ وعيَّرتُه برسوبِه في مادةِ الرياضياتِ في السادسِ الابتدائي، عندما سألني إذا ما كانَ الحجابُ يُشعرُني بحالٍ أفضلَ كونَه حجبَ شعري البشع، يومَها لطمَني على وجهي فسقطتُ سقطةً مؤلمةً كلَّفتني غُرزتَين أسفلَ ذقني، لم يُعاقبْه أحدٌ على ما فعلَ بي، لكنَّه اختفى بُعيدَ تلك الحادثةِ لثلاثةِ أشهر ولم يعد إلا بعدَ بدايةِ العامِ الدراسيِّ الجديد، وأخبرَني بعدَ ذلك بسنين أنَّه كانَ في تلك المدةِ يُعاقبُ نفسَه لأنَّه ضربني، لكنَّه لم يُخبرْني كيف فعل.

***

كلُّ ما كان في ذاكرتي عن حامد حتى نهاية أبريل **115** لم يكن ليسرَّه أو يسُرَّني، لقد كنا ذينَك الطفلين اللذين بإمكانِهما أن يمعنا في إيذاء بعضِهما ويختلقا فيما بينهما مساحاتٍ شاسعةً من البغضِ والمضرَّة، على أني كنتُ أبغضُه عن حقيقتي، وكانُ يُهيِّئُ لي أنَّه يبغضُني ليُداريَ حقيقتَه.

حامد، ذلك الطفلُ الذي كانَ يُعدُّه أهلُه ليكونَ شيطانًا يُساعدُهم في الحفاظِ على سطوتِهم في البلدة، أفلحَ في إقناعي أنَّه بالفعل شيطان، ثم حينَ قابلَني في المكتبةِ العامةِ في الرابع والعشرين من أبريل **115** شابًا طويلاً لا أعرفُه، أفلحَ في إرباكي من ناحيته، لا أزعمُ أن ذلك الارتباك كان شرارة حب، لقد كان الارتباكَ الذي تشعرُ به إذا فاجأكَ عدوٌّ قديمٌ بأنه إنسانٌ صالح، فيردُّكَ إلى نفسِك لتسألَها: هل كنتُ أنا الشخصَ السيء، الشيطان؟

كانَ يلتقطُ كتابَ هندسةٍ فراغيةٍ من الرفّ، وكانَ من الخفةِ والصدقِ بحيثُ أخبرَني ضاحكًا بوداعةٍ أنه ما زالَ "حمارًا" في الرياضياتِ وأنه لم يدخل المكتبةَ ليقرأ كتابًا في الهندسةِ الفراغيةِ وإنما ليُكلِّمني. كانَ يسوقُ لي مُلابساتِ عداوتِنا القديمةِ وأنا تحتَ وطأة الدهشة؛ كيف كانَ يُحبُّ شعري ويكرهُ نفسَه لأنه أحبَّ شيئًا ما، أحدًا ما، خالعًا ما سمَّاه له أهلَه "الرجولةَ" وما عرفَ بعدَ الكثير من الخساراتِ الفادحة والسنين أنَّه موتُ القلب، وكيف كانَ يسخرُ مني ليضبطَ ميلَه إليَّ ويُعدِّلَ من وضعِ قلبِه،

وكيف أكلَه الندمُ "مثلَ فأرٍ يقرضُ مريضًا بالشللِ يعجزُ عن الاستغاثةِ والنطق" -على حدِّ وصفِه- عندما مدَّ يدَه على الإنسانةِ الوحيدةِ التي يُشعرُه وجودُها أنَّه يريدُ أن يعيشَ ويضحك، وكيف كانت وستظلُّ تلك الإنسانةُ هي أنا!

عندما عرضَ عليَّ الزواجَ ذلك اليومَ أضحكتني طريقتُه،الضحك الذي يُحبُّه القلبُ ويتلبسُ بالسخرية. قالَ لي بجديةٍ فيها شيءٌ من خجلِ تلميذٍ لم يكتب الواجب:

"لا أستطيعُ أن أحلَّ مسائلَ الرياضيات، أنتِ تعرفين أنني كنتُ ذلك التلميذ البليدَ في حسابِ الأعداد، لكنني أستطيعُ أن أحلَّ مسائلَك، كما أنني لم أستخدمِ الحسابَ في حبِّك، أي، كما ترين، ليس مهمًّا".

كانَ بوسعِه أن يفقدني تقديري لمخزونِ قُدرتِه على الإدهاشِ عندما قال:

"طبعًا ليس من الصحيحِ أن تتزوجي رجلاً فقط لأنه يستطيعُ أن يحلَّ لكِ مشاكلَك، لأنَّ الزواجَ هو رؤيةُ الأيامِ السعيدةِ وليس زحزحةَ الأيام السيئة فقط، لكنني لستُ "فقط"، أنا أُحبك، وربما أستطيعُ أن أجعلَكِ تُحبينني إذا صدقتِني".

متى صارَ هذا الطفلُ رجلاً ذا قلبٍ ومنطقٍ إلى هذا الحد؟ لقد استطاعَ أن يجعلَني أُحبه بالفعل، حبًّا غريبًا لا أستطيعُ تفسيرَه، كأنَّ عشبةً طيبةً نبتتْ فجأةً في ذكرياتِ طفولتي الحزينة، كأنني أحببتُ أن يكونَ شخصٌ

بهذا النبلِ وهذه الرهافةِ جزءًا في حياةٍ عاشتْها إنسانةٌ بائسةٌ مثلي، وإن كانَ جزءًا من حياةٍ تركتُها خلفي.

وأنا أستمعُ إليه اجتاحني لوهلةٍ شعورٌ غريبٌ مثل موجةٍ عاتية؛ أردتُ بشدةٍ أن يكونَ ابني، ابني فقط، هنا والآن. لم أُحبه كما تُحبُّ النساءُ الرجال، وإنما خفتُ عليه وأردتُ أن أكونَ أمَّه. بعد يومين من لقائنا في المكتبةِ العامةِ سأتمنى لو أنني لم أحزنْه، لو أنني لم أتسبب في ذلك التأرجحِ المهيبِ للدموعِ في عينيه، سأعتذرُ له لأنني كرهتُه يومًا ما، وأتأسفُ لأنني نعتُّه بالحمارِ وروادتني الرغبةُ في وقتٍ من حياتي في الانتقامِ منه ولو كانت رغبةَ طفلةٍ مُستفَزَّة، وأتأسفُ كذلك عن أنني لم أقبل حبَّه الرجوليَّ بكلِّ ما كانَ فيه من الزخمِ وفوضى التعابيرِ المرتبكة، وأنني لم أبادله ذلك الحبَّ كما أرادَ وكما كانَ يستحقُّ أن تتدلَّهَ في حبِّه فتاةٌ ما، لكنَّه لن يسمعَني، وسيأكلُني الندمُ "مثلَ فأرٍ يقرضُ أطرافَ مريضٍ بالشللِ يعجزُ عن الاستغاثةِ والنطق" حينَ أعرفُ أنَّه صعدَ بمسألتِه المُستعصيةِ على الحلِّ، والتي كنتُ جزءًا منها، إلى السماء، وسأظلُّ أحملُ في قلبي ذلك الذنبَ الفظيعَ تجاهه دونَ أن أنسى صورتَه على التلفازِ في مساءِ السادس والعشرين من أبريل 115؛ ممددًا على أرضيةٍ باردةٍ وثمةَ رصاصةٌ ثقبتْ صدرَه، في الخلفيةِ هرجٌ ومرج، وصوتُ مُذيعٍ يُعلنُ عن سقوطِ قتلى في أثناء قيام قوات الأمن بالتصدي لملاعين حركة التمرد التي بدأت تحاول من جديد قبل أشهر أن تضرب أمن البلد.

لم أكن مهتمة بشأن هذا التمرد قبل ذلك اليوم، ولم يكن يخطر لي حامد قبل أن ألقاه في المكتبة، خلال يومين اثنين بدأ كابوس من أسوأ كوابيسي، انبثق فجأة من اللاشيء. الشاب الذي لم يكن يعنيني أمره طوال ثلاثة وعشرين عامًا، كان مقدرًا له أن يُصبح فجأة نقطة سوداء حزينة في ذاكرتي إلى الأبد!

لماذا لا نشعرُ بقيمةِ الذين يُحبوننا قبلَ ألا يعودوا موجودين؟ في حالاتٍ كهذه يأتي الإدراكُ متأخرًا، لكنَّه يأتي مُصطحبًا معه الندم.

***

(8)

في ظهرِ السابع من مايو وبينما كنا جميعًا منشغلاتٍ بالاستعداد لامتحانات نهاية العام سمعْنا صوتَ ارتطامٍ خفيفٍ وجلبة، عندما نظرتْ لميس من الشرفة صرختْ وأبانتْ بصعوبةٍ عن أنَّ ميسون عالقةٌ في حبالِ شرفةِ الطابقِ العاشر التي تقعُ تحتَ شرفتِها، كانَ ذلك عصيًّا على التصديقِ لولا أننا نظرنا جميعًا إلى حيث نظرتْ لميس. هرعنا إلى أحجبتِنا التي وضعناها كيفما اتفق وهبطْنا إلى شقة الطابقِ الثامنِ التي وجدناها مكتظةً بمن صادفت الحادثةُ وجودَه من سكانِ البنايةِ أو من المارة، وعندما استطعنا اختراقَ ذلك الزحام كانوا قد حملوا ميسون إلى سريرٍ في الغرفةِ التي تقع فيها تلك الشرفة، وعلى سريرٍ مقابلٍ كانت تتمدَّدُ السيدة سعاد مغشيًّا عليها؛ صاحبة الشقة الأربعينية التي أنقذتْها.

حملتْهما سيارةُ الإسعافِ إلى المشفى خلالَ نصفِ ساعة، وهناك تم إبلاغُ قوات الأمن وهيئة الرقابة، وقامَ الرقيب المختص باستجوابِ كلِّ من شهد الواقعة من الحضور، قال الجميع أنَّهم لم يروا إلا جسدَها العالقَ في شرفة الطابق الثامن حين سمعوا صوتَ الارتطامِ الذي تبعَتْه صرخاتُ السيدة سعاد، وبسؤالِنا كزميلاتِها في السَّكنِ قلنا إنها كانتْ تُحاولُ تنظيفَ سقفِ الشرفةِ ففقدتْ توازنَها وسقطت، أما السيدةُ سعاد التي لم تستعدْ قدرتَها

على الكلامِ إلا بعدَ أربعِ ساعاتٍ فحكتْ ما جرى وهي تشهقُ ببكاءٍ مصدوم..

كانت في الشرفةِ تُنظِّفُ الحبالَ المعدنيةَ التي كانَ اللحَّامُ قد ركَّبَها لها قبل ثلاثة أيام، وقد لجأتْ إليها رغم اعتراضِ جيرانِها في الطوابقِ التسعة الأولى لثقلِ غسيلِها دائمًا والذي تسبَّبَ أكثرَ من مرةٍ في انقطاعِ الحبالِ وسقوطِ الملابسِ عندَ الجيرانِ أو في الشارع، وبينما كانت تمسحُ الحبالَ بقطعةِ قُماشٍ مُبلَّلةٍ ارتطمَ النصفُ السفليُّ لميسون أمامَها بينما كانَ رأسُها يتدلَّى إلى أسفل، وسترُ اللهِ أنَّها استطاعتْ في غمرةِ الصدمةِ أن تتشبَّثَ بقدميها ما إن رأتْها دونَ أن تُفكِّر، ثم بدأتْ بالصراخ، تصرخُ بهيستريا وتتشبثُ بقدمي ميسون كأنهما وسيلةُ نجاة، فاجتذبتِ المارةَ والجيرانَ إلى شقتِها خلالَ أقل من دقيقتين وحملوا ميسون.

عندما أُغلقَ المحضرُ وانصرفت الشرطةُ كانت ليلى قد حضرت، اقتربَ منها أحدُ الجيرانِ ونحن ننتظرُ أمامَ غرفةِ العملياتِ وقال لها: "أنا أعرفُ أنَّها ليست حادثة، هذه البنت قصدتْ الانتحارَ وقد رأيتُها وهي تقفز، لم أقلْ شيئًا أمام الشرطةِ حتى لا أضرَّها وقد لحقَ بها ما يكفي من الضرر، لكن لتذهب إلى طبيبٍ نفسيّ أو لتردِّيها إلى أهلِها ليبقوا أعينَهم عليها".

***

نُقلتْ ميسون إلى إحدى غرفِ المرضى بعد خمسِ ساعاتٍ من وصولِها المشفى، وهناك كانت قد استعادت وعيها؛ إذ حدث لها إثر تلك المحاولة كسرٌ في ذراعِها اليمنى ورضوضٌ متفرقةٌ في جسدِها، فورَ أن دخلْنا غرفتَها طلبت من ليلى بصوتٍ مهدودٍ أن تصرفَنا، خرجت لميس وزينب وكاميليا قبلَ أن تطلبَ منهم ليلى ذلك، بينما كنتُ متجمدةً في أحدِ أركانِ الغرفةِ أرتعشُ مثلَ عصفورٍ مبلولٍ أثبتُ عليها عينيَّ بدمعتَين متأرجحتَين وألمٍ حاد، ولم تُجدِ فظاظتُها شيئًا معي ولا ليلى حاولتْ أن تتدخل، فيئستْ مني أخيرًا وأهملتْني في ذلك الركن كأنني غير موجودة، جلستْ ليلى على الكرسي المجاورِ لها بحنقٍ جاهدتْ في كتمِه ولم تستطع..

"متى ستتوقفين عن محاولةِ الموتِ مثل طفلٍ مدلَّل يُحاولُ أن يُعاقبَ لصًّا سرقَ منه لُعبتَه؟"

"عندما أنجحُ في ذلك، ليس كطفلٍ مُدلَّل وإنما كروحٍ تُحاولُ أن تتخلصَ من عبءِ الحياةِ الذي لا يُحتمَل، ما سُرقَ مني لم يكن لُعبة"

"هل أنتِ فقط التي تُعاني في هذا العالم؟ ألـ.."

"لا، لستُ وحدي مَن يُعاني، هناك آخرون يُعانون ما هو أفظعُ مما أعاني، لكنَّهم يستطيعون التحمل، أما أنا فلا أستطيع، لذلك توقفي عن هذه المقارنات الغبية ووفِّري وعظَكِ لأنه لن يُجدي"

"توقفتِ عن تناولِ أدويتِك؛ أليس كذلك؟"

"هل أنتِ مُقتنعةٌ أنَّ الأدوية هي التي ستُبقيني على قيدِ الحياةِ التي لم أعدْ أريدُها؟"

"هل تذكرين الكتابَ الذي أعرتُكِ إياه لتقرئيه منذ شهرين؟ لاحظتُ الخطَّ الذي شددتِه تحتَ جملةِ المُقدِّمة: (الحياةُ لا تُعطى لأحدٍ كملكيّة وإنَّما كاستعمال).."

"وماذا يعني أنني شددتُ خطًّا تحتَ جملةٍ لعينة؟"

"أنَّكِ تأثرتِ بها في لحظةٍ ما"

"صحيح. لكن للأسف ليس التأثرَ الذي قد يُعجبُك، عندما قرأتُها قلتُ لنفسي إنَّ الاستعمالَ السيءَ للحياةِ أفظعُ من التخلصِ منها"

"وما الذي يُجبرُكِ على الاستعمالِ السيِّءِ لحياتِك؟"

"يُجبرُني أنني لستُ مَن يستعملُها، يستعملُها الذين يتحكمون في مصيري ويحاولون كل يوم أن يثبتوا لي أنني لست سوى تاء مربوطة لعينة كل فائدتها في الحياة أن تكون موضوعًا لفرض السيطرة وإثبات الرجولة، مَن منا يستعملُ حياتَه بنفسِه؟ هل تستعملينها أنتِ؟"

"لماذا لا تريدين أن تفهمي أنَّ الموتَ ليس هو الحل؟ ماذا سيحصل..."

"أريدُ أن أعودَ إلى الشقة"

"ليس بإمكانِك أن تُنهي الكلامَ متى ما أردتِ، إذا كنتِ تُصرينَ على محاولةِ الموتِ فسيكونُ هناك دائمًا ما ينبغي عليكِ أن تسمعيه.."

"أريدُ أن أعودَ إلى الشقة"

قالت بإصرارٍ أشدَّ وهي تضغطُ الحروفَ كأنَّ ضغطَها يزيدُها توكيدًا، فلم تجد ليلى بُدًّا من الانصياعِ لها في نهايةِ الأمر.

بعدَ الانتهاءِ من إجراءاتِ الخروجِ طلبتْ مني ليلى أن أُساعدَها في إسنادِ ميسون، رفضتْ ميسون بحركةٍ مُبعِدةٍ من يدِها، لكنها ما إن وقفتْ على الأرضِ حتى داهمَها الدوارُ ولم تستطع الاعتمادَ على ساقَيها المرضوضتَين أو الاكتفاءَ بالاستنادِ على جسدِ ليلى الصغيرِ والضعيف، فاضطرتْ لقبولِ مساعدتي.

في الشقة، وبعدَ أن وضعناها في سريرِها بمساعدةِ زينب ولميس اللتين خرجتا من الغرفة بنفسيَهما حتى لا تضطراها إلى طلبِ ذلك، قالت لليلى إنها لا تريدُها إلى جانبِها، نظرتْ إحداهما للأخرى ثم لي في اتفاقٍ ضمنيٍّ خرجتْ على إثره ليلى من الغرفة وأغلقتِ البابَ وراءها، وطوالَ أربعين دقيقةً لم أفُه بكلمة، تذكرتُ المرة التي أقدمت فيها على الانتحار حين كنت في الثامنة عشرة، كان عمي قد أتى يومها للبيت مع رجل بدين في الخمسين من عمره وطلب مني إحضار الشاي، عندما دخلت كان يقول للرجل إنه سيزوجني له في غضون أسبوعين، أفلتُّ الصينية وركضت ولم تتوقف قدماي إلا تحت شجرة التوت في الحقل، ودون كثير تفكير فككتُ حبل الدلو في البئر القريبة وربطتُّه إلى غصن شجرة متين، وضعتُ الطوق حول رقبتي وأوشكت أن أقفز عن الغصن، لكنني لم أفعل.

"عزفُك على الناي جميل جدا، لكنَّ شكلَه غريب"

قلتُ فور أن وقعت عيناي على آلتها الموسيقية في ركن الغرفة.

"اسمعي؛ وافقتُ على وجودِك في الغرفةِ لأتخلَّصَ من ليلى، أنتِ هنا لتراقبيني، حسنًا، ولكن لن أقبلَ أيَّ كلامٍ وعظيٍّ أو خطبًا رنانة عن ضرورةِ حبِّ الحياةِ والتمسُّكِ بها، ورِمتُ من هذا الكلامِ ولم يُجدِ، فلا تتعبي نفسك"

"لستُ هنا لأُراقبَك، وليست عندي تلك القناعة بأنني قد أُثنيكِ عن الانتحارِ بكلمتين أو جرعةِ أمل"

"لماذا أنتِ هنا إذن؟"

"لا أعرف. ربما لأنني فكرتُ فيه من قبلُ وأفهمُ الحالَ التي تؤدي إليه"

"فيمَ فكَّرتِ؟"

"في التخلصِ من حياتي"

"وإلامَ انتهى تفكيرُك؟"

"هي خطوةٌ ستوقفُ تدفُّقَ المآسي، لكنني لا أعرفُ ما سأجدُه بعدَها، والذي ربما يكونُ أفظعَ مما تركتُه خلفي"

"يحتاجُ التنفيذُ إلى شجاعةٍ كافية"

"أو إلى جهلٍ كافٍ"

"خفتِ من ألا تحتملي ما ينتظرُكِ على الجانبِ الآخرِ فأحجمتِ"

"أوَلَمْ تنفد قدرتُكِ أنتِ على احتمالِ ما يحدثُ على هذا الجانبِ فأقدمتِ؟ فما الذي يُدريني إذا هربتُ مما لم أحتملْه هنا أنني سأحتملُ ما ينتظرُني هناك حيثُ لا فرصةَ للهرب؟"

"تُجيدين السفسطة"

"بل أُحاولُ استخدامَ عقلي. تقتضي الشجاعةُ الكاملةُ معرفةَ ما يترتبُ على الخطوةِ قبلَ أن أخطوها والقبولَ به رغمَ ذلك، أما أن أتعامى عنه فهو جُبنٌ مُقنَّع، وعدمُ معرفتِه جهلٌ لا شجاعة"

"أنتِ إذن من أنصارِ الشعارِ القائلِ بأنَّ الشجاعةَ في مواجهةِ الحياةِ لا في الهروبِ منها، وأنَّ الحياةَ لا تُعطى لنا كملكيَّة وإنما كاستعمال"

"لا، أنا من مُعتقدي المسؤولية الكاملة المُترتبة على التصرُّفِ في الحياةِ كمُلاَّكٍ لا كمُستعملين، إذا كنتُ مُلِّكتُ الإرادةَ والقدرةَ الفعليةَ على إنهاءِ حياتي بنفسي فقد اخترتُ مصيري الأبديَّ بنفسي أيضًا، امتلاكُ هذه الإرادةِ الحرةِ وهذه القدرةِ على الفعلِ يعني أننا لم نُعطَها كمُجرَّدِ استعمالٍ في الأصل، وإنما مُلِّكناها مع تحمُّلِ العواقب، بالضبطِ كما نُسلِّمُ ورقةَ امتحانٍ فنُجازَى بحسبِ ما نفعلُ بها"

"ليس صحيحًا؛ خياراتُ الفعلِ أمامَنا محدودةٌ في تلك الورقة، ليس منها مثـ.."

"الخياراتُ مفتوحةٌ ونمتلكُ القدرةَ على أيِّ شيء نختارُه حتى ونحن نعرفُ أنَّه لن يُرضيَ المُصحِّح؛ أن أُجيبَ الإجاباتِ التي تُعجبُني لا

الصحيحة، أن أُجيبَ إجاباتٍ خاطئةً بسببِ الجهلِ أو قصورِ فهمِ الأسئلة، أو أن أُمزِّقَ ورقةَ الامتحانِ مُقرِّرةً الخروجَ من اللجنةِ دونَ أن أُجيب. مُشكلتُنا أننا عندما نتذمَّرُ فليس لمحدوديةِ الخيارات؛ نحن نستطيعُ أن نُنهي حيواتِنا بالفعل، لكنَّنا نُريدُ معَ خيارِ إنهائها في الوقتِ الذي نُريدُ ألا نجدَ بعدَ إنهائها ما لا نُريد، يعني نُريدُ أن نختارَ دونَ أن تكونَ لتلك الاختياراتِ عواقب، ولو امتلك كلُّ إنسانٍ هذا الحقُّ لفسدتِ الدنيا ولاستحالت الحياةُ إلى غابةٍ حيثُ لا يُحاسَبُ أحدٌ على ما يجني في حقِّ الآخر"

"أوليس هذا هو الحاصل الآن؟"

"لكننا نعرفُ أنَّ هناكَ آخرةً وحسابًا وجزاءً لكلِّ إنسانٍ على إجاباتِه عن الأسئلةِ التي طُرحتْ عليه، عندما أقولُ "الحياة" فأنا أقصدُ الحياةَ كلَّها؛ بما فيها بوابةُ الموتِ بينَ جانبَيها"

"ليس أمامَنا إذن إلا أن نُجيبَ عن الأسئلةِ منتظرين انتهاءَ الوقت!"

"هذا خيارُنا الذي اخترناه من بينِ الخياراتِ ولا ينبغي أن نتذمَّرَ من أجلِه ولا أن نشكوَ انعدامَ الحيلة. نحن اخترنا بأنفسِنا أن نجهدَ في سلوكِ طريقِ السلامةِ الأبدية، ليس علينا أن نلومَ أحدًا من أجلِ ذلك ولا أن نمتعضَ من كثرةِ الأسئلةِ أو صعوبتِها"

"وهل أنتِ مَن تُجيبين على كلِّ الأسئلة المطروحة؟!"

"لا أسمحُ لأحدٍ آخرَ أن يفعل"

"بطلةٌ إذن!"

"على الإطلاق! ولكنني تعلَّمتُ أن أضعَ كلَّ شيءٍ في موضعِه؛ إذا قالَ أحدٌ غيري شيئًا في ورقةِ حياتي، إذا حدثَ حادثٌ لم أكن فيه أكثرَ من مُتلقٍ، فهو سؤالٌ حتى إذا وضعتْ في آخرِه نقطةٌ بدلاً من علامةِ استفهام"

"طريقةٌ مُريحةٌ في إقناعِ النفسِ بامتلاكِ كلِّ الأجوبة"

"بل يقظةٌ مطلوبةٌ لأساليبِ الأسئلةِ غيرِ المُباشرة"

"كيف تحتملين الحياةَ التي فكرتِ من قبلُ في التخلصِ منها؟ إذا كنتِ فكرتِ في الانتحارِ بالفعلِ فهذا يعني أنها كانت عندَ نقطةٍ ما غيرَ مُحتمَلة"

"ولم تتوقف عن كونِها كذلك"

"هل أصبحتِ أنتِ أقوى؟"

"لا، أنا أفهمُ أسئلةَ الحياةِ لكنَّ هذا لا يعني أنني أستطيعُ الإجابةَ بشكلٍ صحيحٍ على الدوام، أحيانًا أجدُ القوةَ للوقوف، وأحيانًا أنكمشُ في الركنِ وأبكي وجِلةً من صعوبةِ السؤالِ عليّ، وأحيانًا أقولُ لنفسي عندما يُطبقُ عليَّ سؤالٌ بينَ فكَّيه أنَّ اللهَ يراني ويرى دمعي وضعفي ومُحاولاتي المُنهَكةَ من أجلِ الفكاكِ فأجدُ في إدراكِ اطلاعِه ومُراقبتِه السلوى والقدرةَ على مواصلةِ الصمود، ويمدُّني بمزيدٍ من الطاقةِ علمي بأنَّ الإجاباتِ لا تقتصرُ على الفعلِ وإنما قد يكونُ العجزُ إجابةً، وأحيانًا أخرى أفقدُ أيَّ قدرةٍ على الاحتمالِ فلا يسعُني إلا أن أُهيِّئَ لنفسي أنني غيرُ موجودةٍ وأنَّ

هذه الحياةَ المُترعةَ بالأسى ليستْ حقيقيّة، وتلك هي الأوقاتُ التي تتمكّن فيها الاضطراباتُ النفسيَّةُ مني ويكونُ عليَّ لكي أتجاوزَها أن أتعاطى بعضَ الأدوية.

باختصار؛ لقد فهمتُ بعدَ كثيرٍ من التخبُّطِ مثلَ طائرٍ في الشَّرَكِ أنَّ اختيارَ مواصلةِ الحياةِ حتى انتهاءِ الوقتِ لا يعني امتلاكَ القدرةِ على احتمالِ أسئلتِها على الدوام، وإنما يعني ألا أُفكِّرَ في تمزيقِ الورقةِ مهما بلغتُ من الضعفِ والعجزِ ومهما بلغَ السؤالُ من الصعوبة"

"ألا أُفكِّرَ في تمزيقِ الورقة؛ يحتاجُ هذا إلى قوةٍ خرافيّة!"

"أو إلى نبذِ الفردانيّة والخروج من النفسِ والانصهارِ في المجموع"

"لم أفهمكِ؛ ماذا تعنين؟"

"كشخصٍ فكَّرَ مراتٍ عديدةً في الانتحارِ أقولُ لكِ بصراحةٍ إنني كنتُ عائشةً في حدودِ نفسي لا أتعدَّاها، لذلك ما إن تحدثْ لي كارثة حتى أرى أنني أتعسُ الناسِ نفسًا على وجهِ البسيطة، ولا يُخيَّلُ لي أنَّ في الدنيا من هو أكثرُ بؤسًا وأصعبُ معاناةً مني، وحتى عندما بدأ وعيي بالعالمِ من حولي يتفتَّحُ وبدأتُ أرى مآسي الناسِ في الفقرِ والحروبِ والمجاعات، وظننتُ أنني خرجتُ من نفسي وانصهرتُ في همومِ المجموعِ الذي أُعدُّ فردًا منه، لم أكن كذلك في الحقيقة، لأنني ما زلتُ وحدي، نعم نظرتُ إلى مصائبِ غيري ولكن ما زلتُ أسيرةَ توحُّدي، والحاصلُ أنني لم أنصهرْ في المجمع بل أدخلتُ أخبارَ تلك المجموعِ إلى نفسي فزدتُ أحزانًا جديدةً إلى حزني،

وأصبحتُ أمامَ نفسي أكثرَ نُبلاً؛ إنسانةً تبتئسُ لمعاناةِ البشر، بينما في الحقيقةِ لم يكن موقفي من تلك المعاناةِ أكثرَ من موقفِ قارئةِ القصصِ التي تقرأ القصةَ من خارجِها، ثم تبكي وتؤذي نفسَها في سبيلِ الإنسانيةِ التي لم تحتملْ رؤيتَها تُعاني.."

لم تكن تبدي ردة فعل لكن نظراتها كان جليّا فيها الاهتمام، ما شجعني على المواصلة..

"ورغمَ ذلك، رغمَ قربِ معاناةِ الآخرين مني إلى ذلك الحدّ الذي كنت أتوهمه، كنتُ أسيرة تلك الفردانية والعيش داخل نفسي، حيث هذه النفس هي بالنسبةِ لي أهمُّ ما في هذا الوجود، أهمّ من الغاية من الوجود حتى، لذلك كانت مُنطلقي في اختيارِ إجاباتي على أسئلةِ الحياة؛ ما أسهل أن أقرر تمزيق الورقة إذا وجدت مشقةً في الإجابة، رغمَ أنَّ هذا التخلصَ الرديء من الحياةِ لن يكون صفعة على وجوه من تخلصتِ منها بسببهم ولا قبلة على رؤوس الذين فعلتِها حزنًا عليهم، فمَن كانَ محورَ الاهتمامِ هنا وأنتِ تختارين في رأيِك؟

ثم إنَّكِ إذا نظرتِ للأمرِ نظرةً فيها مزيدٌ من التفكُّر ستجدين في هذا الفعلِ كثيرًا من الأنانية؛ أن أختارَ التخلصَ من حياتي بسببِ أثرِ مأساةٍ ما عليَّ يعني أنني أقولُ للأشخاصِ الرئيسين في تلك المأساةِ إنني لا أُريدُ أن أحملَ ذلك الهمَّ أكثرَ وأُريدُ بدلاً من ذلك أن أُريحَ نفسي، لن أقبلَ هذا التعبَ وهذه المعاناة. هذا نوعٌ من التخلّي في رأيي"

"وما الحلُّ إذا لم يكن الموتُ حلاً لفقدِ القدرةِ على الاحتمالِ والمواصلة؟ وأنا أقصدُ هنا العجزَ الحقيقيّ عن التحمل، لا الأنانيّة ولا إيثار الراحة ولا الرغبة في التخلي، أقصد العجزَ الذي قد يجعلُ من صاحبِه مريضًا نفسيًّا تُصرفُ له الأدوية"

"سألتُ نفسي هذا السؤالَ من قبل، ووجدتُ الحلَّ في شيئين: معرفةِ موقعنا الحقيقي في الحياة، والانصهار في مجموعٍ ما، الأولى توفر لك قناعةً بعدم منطقية الانتحار كخيار، والثانية تمنحك قدرةً ما على التحمل"

"تقولين إنَّ المواساةَ تُخفِّفُ عنكِ دونَ أن تُثقلَ منكِ أحدًا أو تُمِلَّ منكِ أو تُقلِّلَ شأنك!"

"كم يُحاصرُ الإنسانُ نفسَه بأوهامٍ يُعذِّبُ روحَه بها! لماذا قد أُستثقَلُ أو أُمَلّ أو أقلّ عندما أحتاجُ المساندة؟ هل لأنَّ مَن يُساندُني هو شخصٌ مُحصَّنٌ ضد الهمِّ والحَزَن؟ أم لأنَّ الحُزنَ نقيصةٌ تغضُّ من شأنِ صاحبِها؟ ثمةَ أُناسٌ بقلوبٍ بيضاءَ كأفئدةِ الطير؛ تستطيعين معهم أن تُحسِّي أنَّهم يألمون لكِ كما لو أنَّ ألمَكِ قد نفذَ إلى عظامِهم فهم لا يتكلَّفون لكِ الدمعةَ ولا الرَّبتة، وإنما يجيءُ انفعالُهم صادقًا من قلوبِهم وأكثرَ من مجرَّدِ شفقةٍ لحالِ حزين، هذا جرَّبتُه مع زينب، عندما عرفتْ أنَّ أمِّي ماتت وأنني يتيمةٌ منذ كنتُ طفلةً أخذتني في حِضنِها بعفويةٍ أدهشتْني ورأيتُ دمعتين كبيرتين تنحدران من عينيها بسلاسة، فعرفتُ ساعتَها أنَّني أمامَ إنسانةٍ تملكُ القدرةَ على المُشاركةِ الصادقةِ دونَ أن تتركَ لي الفرصةَ لسؤال

نفسي: هل أبدو مثيرةً للشفقة؟ وقد رُزقَ وفيرًا مَن التقى في رحلةِ الحياةِ إنسانًا يأخذُ أحزانَه كأنَّها أحزانُه الخاصة، ويجلسُ ليبكيَ معه عندما يعَضُّه الألم".

***

بتُّ تلك الليلةَ إلى جوارِ ميسون، وكانَ بإمكاني أن ألحظَ تحتَ شعاعِ الضوءِ المُنسربِ من تحتِ البابِ دمعتَين كانتا تظُنَّانِني نائمة، وتكشَّفتْ لي في ذلك الوقتِ ميسونُ الفظةُ المُنقبضةُ التي تدفعُ الجميعَ بعيدًا عنها عن ميسونَ أخرى مختلفةٍ تمامًا؛ هادئةَ النبرةِ عاريةَ الخوفِ مُحتاجةً إلى يدٍ تمتدُّ إليها لتُخرجَها من الجُبّ.

***

(9)

عندما لفظت زينب كُرِيِّم روحَها على كفِّ يدي اليسرى في ذلك الأحدِ الحزينِ من نوفمبر 115 حاولت مرارًا أن أفتح فمَها وأُعيدَ حشو الروحِ فيه، طلبتُ بجزءٍ من تلك الروح المبللة والهلوعة أن تنزلق منه حتى رئتيها وتنفضهما..

"هيا، البنت تسقط في النوم وهذا مشهدٌ مُخجلٌ أمام خلق الله!"

"ماذا تفعلين بحق الله يا زينب! ألم أقل لكِ إن قلة النوم غيرُ مأمونة العواقب؟ انظري.. ها أنتِ تنعسين في بردِ الشارع أمام الناس على رصيف خشن!"

"يا إلهي! إن أهلها بدو؛ سيحبسونها في البيت وربما يقتلونها إذا عرفوا أنها ماتت في الشارع! .. يا إلهي ماذا أقول؟!"

"ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟ قولي لي –وكيلُك الله– ماذا أفعل يا زينب؟"

كنتُ قد رأيتُ حلمَ الحمامِ والبهلولِ في الليلةِ السابقة، وعلى الرغم منه خرجتُ معهما في ذلك الأحد، الرابع عشر من نوفمبر 115، كنا متوجهتين للقاء لميس فاتح والذهاب ثلاثتنا لتناول الغداء في مطعمٍ بوسط البلد، إذ بعد تخرج لميس من الجامعة في العام المنقضي صرنا نتحين الفرص للقائها في مطعم هنا أو مكتبة هناك.

عندما وصلنا المحطة، حيث كان من المفترض أن ننتظر لميس القادمة من بلدتها بالقطار، كانت تنتشرُ قوات حفظ الأمن، لم أكن على درايةٍ بالشغب الجاري في البلد في ذلك الوقت ومحاولة الحكومة التصدي له.

كانت الأمور هادئة إلى حدٍ ما في بادئ الأمر، لكن بعد مرور حوالي ربع ساعة تغير كلُّ شيء لسبب غير معلوم، ثم بدأ إطلاق الرصاص والغاز المسيل للدموع، في البدء كانوا يُطلقون في الهواء، فاعتقدنا أنا وزينب أنهم كانوا يريدون تفريق المتمردين فحسب، وقفنا في ناحية عند مدخل المحطة قائلتين إننا لا شأن لنا بما يجري، فلسنا متمردتين لنخاف، لكننا كنا مُخطئتين وهذا ما أدركناه فيما بعد.

لم أرَ الرصاصة التي اخترقت صدر زينب، سمعت صوتها فقط على مقربةٍ مني وشممتُ رائحة احتراق، لا أنا ولا زينب نفسها استوعبنا ما حصل، في اللحظة التي اخترقتْها فيها الرصاصة انتفضتْ للخلف كأنَّ أحدًا دفعَها ثم سقطتْ مثلَ بناءٍ ينهار دفعةً واحدة، لم أستوعب أن تلك رصاصة رغم أني رأيت أثرَها بقعةَ دم حمراء واضحة كالمصيبة على ثوبها الأبيض، قعدت بجوارها وأخذتُ رأسها على ذراعي الأيمن وسألتها عما حدث لها ولم تكن أعلم مني، كانت عيناها تُحدقان فيَّ بذهول، للوهلة الأولى لم يكن على وجهها أيٌّ من أمارات إصابةٍ برصاصة، قالت لي:

"القاهرة الغريبة، لا أستطيع فهمَها، ماذا يجري هنا؟"

لم تكن تستطيع فهم القاهرة التي ظلت عصيَّةً على دماغها حتى اللحظة الأخيرة، كانت دائمًا في السنوات الأولى لمعرفتي بها تردد أنها مدينتُنا وحدنا عندما نقترحُ عليها الخروج للتنزه، تقولُ إنَّ الإنسان لا يتنزَّه في مكان لا يعرفُه وهي لا تعرفُ القاهرة، لا تعرفُها لأنها لا تفهمُها، ولا تفهمُها لأن لها ألف وجه وهذا لم تعتده، العريش–حيث قضت طفولتَها– ذات وجهٍ واحد، وفي العريش كلُّ الناسِ على نفس خط البلوى، أما القاهرة فتقسمُها خطوطٌ كثيرة، وهذا مخيف لشخصٍ مثلها اعتاد المدينة ذات اللون الواحد والتي تُعامل الجميع بنفس الشكل دون تمييز على عكس القاهرة. لم تكن تكرهها، لم تكن تعرفُها لتتخذَ منها هذا الموقف، وماتت دون أن تستطيع فهمها. مكتبة سُر مَن قرأ

"ماذا يجري هنا؟"، ذبحني سؤالها وأحسستُ أني مُذنبةٌ في حقها وكأني أنا القاهرة، كأني أنا تلك المدينة التي خوَّفت زينب وخبطتْها في صدرِها فسقطت، لم أعرف ما الذي يجري، ولم أعرف ماذا عليَّ أن أفعل، وعاتبتُها، عاتبتُها كثيرًا على كل شيء؛ أنها سقطت أمام الجميع، وأنها لم تنم جيِّدًا ليلة أمس، وأنها سألتني بعد أن استمعنا لنشرة أخبارٍ عالمية كان فيها من أنباء الحروب أكثر مما يمكن تمريره: "هل يسمع الإنسان الرصاصة التي تصيبه؟" فجلبت لنفسِها الفأل السيء.

كالمجنونة رحتُ أطلب منها أن تقوم وتصلبَ طولها حتى نذهب إلى مسكننا، وارتعبتُ وأُسقطَ في يدي عندما شعرتُ بخروجِ روحِها على كفي

اليسرى، أصبتُ بهستيريا وأنا أسألُها ما الذي عليَّ فعلُه وهي لا تُجيبُني، لحظات ثم توقفت حدقتاها على وجهي!

ماتت زينب وتركت عينيها مُشرعتَين مثل سؤالين كبيرين ورباطًا ضاغطًا كانت تلفُّه على ألمٍ في كفِّها اليسرى، ماتت ولم تُخبرْني ماذا أفعل، وأنا بدوري كنتُ مُصرَّةً على رجائها أن تقوم لأني لا أستطيعُ تحملَ فكرة ألا يعود لي صاحبة اسمها زينب بعد الآن، لقد جئنا إلى هنا معًا فلماذا أرجعُ من هنا وحدي؟ لماذا تأتي زينب إلى هنا على قدميها ثم تتمدد أمامي الآن على الأرض؟ لماذا تتركُ لمساتِها باعتيادية على كلِّ شيءٍ في الشقة قبل أن نأتي ثم لا تعود إلى تلك الشقة أبدًا؟ لو أنَّ أواخرَ الأشياءِ تتخذُ شكلاً أكثرَ جلالاً واختلافًا عن هذه الاعتياديَّة يا زينب؛ لربما كان استيعابُ الفقد أسهل!

لم أعِ الكلامَ الذي كانَ يُقالُ من حولي، قالوا لي وهم يحاولون تخليص جسد زينب مني إن عليَّ أن أتركَها ليُحاولوا أخذَها إلى المشفى، ولم أكن مستعدةً لتركِها، لم يفكَّها مني إلا صفعةٌ لميس -التي لا أدري كيف ظهرت فجأة- على وجهي، وفي تلك اللحظة فقط أدركتُ أنها ماتت، ذهبت زينب وانتهى الأمر، شعرتُ ببرودةٍ قارسةٍ في كفي، لبقية حياتي سيلتفُّ الرباطُ الطبيُّ الضاغطُ الذي كانَ على كفِّ زينب على تلك الكف، ولن أستطيع استعمالها في القبضِ على شيءٍ أو التمسك بشيء، ولن أستطيع أن أفهم كيف يمكنُ أن تتحولَ سخونةُ أنفاسِ زينب الأخيرةِ إلى كلِّ هذا البرد القاتل!

(10)

عرفتُ السيِّد مُحمَّد فريد إسلام في أوائل شهر فبراير 116، بعد حوالي أربعة أشهر من رحيلِ زينب، كنتُ إنسانةً مُحطَّمةً تمامًا، أو الأصح أنني كنتُ شبحَ إنسانة، لم أكن أستطيعُ تصديق تلك الحقيقة المؤلمة؛ أنَّ زينب لم تعد تتنفس في هذه الحياة التي أحياها، لكنني كنتُ أستطيعُ أن أتكلم كثيرًا أيامها، وأن أضع ضحكةً على وجهي، أن أشتغل بتفانٍ، أن أقرأ، ولم أكن أتوانى عن السخرية.

كنتُ مُنشغلةً ببيعِ الكتب، وكانَ ذلك النهارُ الشتويُّ صحوًا شاركتْ فيه الشمسُ بحضورٍ لطيف، فيه شيءٌ من البرودةِ المحببة، وكانَ أحسنُ شيءٍ يُمكنُ فعلُه في ذلك الطقسِ الرائعِ هو التواجدُ في معرضِ الكتابِ والدلالةُ على كتابٍ جيد، إرشادُ أحدِهم إلى روايةٍ لا يخرجُ منها ذلك الإنسانَ نفسَه الذي دخلَها. مراقبةُ شخصٍ وهو يمرُّ بأصابعَ حائرةٍ على أغلفةِ الكتبِ دونَ أن يتستطيعَ اتخاذَ قرار، تلك الفئةُ من القراءِ تستهويني متابعةُ حركتِها عندَ الأرفف، وفي لحظةٍ مناسبةٍ أقررُ التدخلَ بترشيحِ كتابٍ لطيفٍ من شأنِه أن يدخلَ ذلك الرأسَ الذي لا يعرفُ كثيرًا ماذا يريد.

"هل تودان أن أُساعدَكما؟"

كانتا شابتين في بداية العشرينات على ما أظن، تتجولان بخطًى وئيدة بين أرفف الرواياتِ وتتفحصان الأغلفة بتردد.

"نعم، في الحقيقة لم آتِ إلى المعرض بقائمة كتب مُحددة"

خمنتُ أن التي ردت عليَّ هي التي تريد شراء كتاب، بينما الأخرى مجرد مُرافقة قد تكونُ خُدعت بإمكانيةِ الفسحةِ في مكانٍ مليءٍ بالكتب وزحامِ طالبي الثقافةِ والمُتظاهرين بها والعرق.

"يحدث. في الغالب أنتِ تريدين رواية، أليس كذلك؟"

"ليس شرطًا، قد آخذُ كتابًا إذا كان جذابا"

"ما رأيُك في هذه الرواية؟"

قلتُ وأنا أُناولُها (مزرعة الحيوان) لجورج أورويل.

"مزرعة الحيوان. امم.. عمَّ تحكي؟"

"كقارئةٍ لا أحبُّ أن يُخبرني أحدٌ بفكرة الروايةِ التي سأقرؤها، لكن يبدو أنَّك لستِ كذلك. الرواية تدور حولَ حيواناتٍ في مزرعة قرروا التمرد على صاحبِها الذي لم يكن يُحسنُ مُعاملتَهم، وتمردوا عليه بالفعل حتى اضطروه للهرب، لكنَّهم تحرروا من قبضةِ السيد الأول والذي كان بشريًّا ليقعوا في قبضةِ سادة آخرين منهم أنفسِهم"

"ههه؛ حيوانات تقوم بتمرد؟ لا بدَّ أن الكاتبَ مؤلفُ قصصٍ للأطفال تحت سنِّ التاسعة!"

أغضبتني نبرتُها الهازئة وكلامها الذي ينم عن جهلٍ وحماقة، لكنني حاولتُ قدرَ الإمكان أن أكظمَ غيظي، ففي مكانٍ تعملُ فيه بائعًا عليك أن تُبديَ أعلى درجاتِ اللطفِ والكياسةِ وضبطِ النفسِ مهما كان مستوى

حماقةِ مَن تتعامل معه، قد يبدو هذا مُبالغًا في الماديةِ كونَنا نتحدثُ عن كتبٍ لا عن مجردِ سلعة، لكن في النهايةِ ما الذي يفعلُه موظفٌ في مكتبةٍ لبيعِ الكتب؟ مهما رأينا أنَّ مهمتَه التي تستلزمُ ثقافةً معقولةً وسعةَ اطلاعٍ ودماغًا عالي الجودةِ مهمةً تسمو على مجرد لفظِ البيعِ فإنه رغمَ كلِّ شيءٍ يبيعُ الكتب، وعلى هذه التجارةُ ألا تكسدَ إذا كنا نريدُ ألا تتركُ الكتبُ الجيدةُ أماكنَها لطوفانِ الكتبِ الرديئة، ومن أجل ذلك على بائع الكتبِ أن يكونَ لطيفًا ما وسعَه اللطف، ذكيًّا في تحبيبِ كتبه التي يثقُ فيها إلى القارئ وإقناعِه بها، واسعَ الصدرِ طويلَ حبالِ الصبرِ حليمًا، ليشقَّ بذلك بين الفئاتِ المختلفةِ للقراءِ قنواتِ القبولِ للأدبِ الجيدِ والفكرِ النيِّر وما لا ينبغي أن يُعدَلَ عنه من الكتبِ إلى غيرِه. من أجلِ كلِّ ذلك كانَ عليَّ أن أتغاضى عن سخافةِ البنتِ وجهلِها المركب، وعزَّيتُ طبيعتي العصبيةَ بأنَّ الجاهلَ يُعلَّم، لا يُحتَدُّ عليه ولا تُردُّ في وجهِه سخافتُه وتُقلبَ عليه محاولةُ الظهور كشخصٍ ظريفٍ يجيدُ الدعابة.

"طيب، يبدو أنَّ الموضوع لم يعجبْكِ كثيرا، لنرَ شيئًا آخر.."

تناولتُ (رجال في الشمس) لغسان كنفاني، كنتُ أتعمدُ اختيارَ رواياتٍ صغيرةٍ وخفيفة، إذ استنبطتُ أنها ليست من النوع الذي سيصبرُ على قراءةِ روايةٍ تقعُ في أكثرَ من مئتي صفحة..

"هذه الرواية ربما تُعجبُك. إنها عن مجموعةٍ من الرجال المسحوقين تحت الاحتلال والفقر والذين يُحاولون الخروج من هذه الحال بالهرب إلى بلدٍ عربيٍّ خلالَ شاحنةٍ وقود.."

"امممم.."

زمَّت شفتيها ولم يبدُ عليها كثيرُ اهتمام.

"هل أستطيعُ أن أجدَ عندكِ روايةً رومانسية؟ لا أريدُ روايةً فيها فقر أو حرب أو سياسة أو حيوانات تثورُ على صاحبِ المزرعة.."

وتوقفت هنيهةً لتعيد كساءَ وجهِها بهيئةٍ جديةٍ بينما لم تفلح صديقتُها -لسببٍ ما- في كظمِ ضحكتِها الصاخبة، هاتان البنتان تمتلكان مخزونًا هائلاً من الضحكِ الذي لا يحتاجُ أسبابًا وجيهة.

"فقط أريد روايةً فيها رجلٌ يقع في حبِّ امرأة، وإن كان لا بدَّ من أن تكون هناك مشاكل فلتكن غيرتُه عليها مثلا أو نسوةً شريراتٍ يضعن العراقيلَ في طريقِ حبهما"

أكملت بما أمكنَ لها من الجد فبدتْ لي مُضحكةً جدا في تفاهتِها -الساذجة.

"يؤسفُني أنَّ طلبَكِ ليس هنا"

"ولا كتابَ خواطر كالتي يكتبُها فلان؟"

"ولا كالتي يكتبُها أصدقاءُ فلان"

"ماذا تفعلون إذن كمكتبة وليس عندكم كتابٌ واحد يستطيعُ الواحدُ قراءته ليُسلِّيَ وقتَه؟!"

"ننشرُ كتبًا يقرؤها الواحدُ فيتمكنُ من أن يكونَ إنسانًا وأن يرفعَ الجهل عن نفسِه وأن يعرفَ لماذا جاء إلى هذا العالم وما الذي عليه فعله قبلَ أن يرحلَ عنه"

"يا إلهي! ألا يمكن للواحدِ أن يكون إنسانًا يعرفُ كل الذي قلتِه ويجدَ كتابًا ظريفًا مُضحكًا أو رومانسيًّا يُرفِّه به عن نفسِه؟ هل الترفيه لا يليق بالإنسان؟"

"يليقُ به طبعًا، ولا بأس بقراءةِ كتبٍ صُنعت للتسلية والترفيه، كلُّ ما في الأمر أنَّ عليكِ ألا تتذمري لأنكِ لم تجدي عندنا شيئًا من تلك الكتب، فلا بدَّ أن أحدًا آخرَ يأخذُ على عاتقه مهمةَ تسليةِ العالم، أما نحن فتقوم سياستُنا على توفير الكتب المهمة في الأدب والفلسفة والسياسة والاقتصاد وغيرِها والتي لا تتوافر غالبًا للقارئ، وإذا وجدَها أعجزتْه أثمانُها، أي أنَّها اختصاصاتٌ ورؤى ليس أكثر"

"يعني تقولين إنكم اختصاصيون في نشر الهمِّ والحزنِ الثقيل"

وهذه المرة لم تحاولْ كبتَ ضحكتها فدوت ضحكتان عاليتان!

"نعم، بوسعِك أن تسمِّيه كذلك، والآن هل تسمحان لأستطيع مساعدةَ هذا السيد الفاضلِ في اختيارِ حزنٍ مناسب؟"

بلعتْ غيظَها وانصرفتْ هي وصديقتُها حانقتين، فالتفتُّ للسيد..

"في الحقيقة لم أجهز قائمةً للأحزانِ التي أريد أن أشتريها"

قالَ بنبرةٍ جادة.

"معذرةً، لا تؤاخذنا!"

"لا داعي للاعتذار، ليس سهلاً أن يكونَ الإنسان بائع كتب"

"صحيح. هل تهتمُّ بكاتبٍ معين؟"

"كما قلتُ منذ قليل؛ جئتُ بدون قائمة"

"أستطيعُ أن أُرشِّح لك"

"بالطبع"

"ما الكتب التي تهتم بها؟ تربية، فلسفة، أدب، اقتصاد، سياسة؟"

"أهتم بأيِّ كتابٍ سيضيفُ لي جديدًا أيًّا كان موضوعه"

"هذا الكتابُ رائع في موضوعه، يهدمُ الفكرة الشعبية القائلة بأن اليهود وراء كلِّ مصيبة تحصلُ في العالم، ويعطي صورةً موضوعية وواقعية عن اليهود من الداخل؛ جماعاتِهم وأحزابِهم وطوائفِهم ومحطات التغيير التي مروا بها عبر العصور، مثير للاهتمام ويُقوِّضُ نظرية المؤامرة ببراعة"

قلتُ وأنا أقدمُ له كتاب (اليد الخفية) للدكتور عبد الوهاب المسيري.

"يبدو أنكِ قرأتِه"

"نعم"

"هل ترشحين لي كتابًا غيره؟"

"ألم تتحمس له؟"

"ليس لهذا السبب، لكنني قرأتُه وعندي نسخةٌ منه"

شعرتُ بحرج وغيظ؛ لماذا تركني أتكلم عن كتابٍ قرأه كأنني أُحبِّبُ كتابًا لشخصٍ لم يسمع عنه؟

"أنا واثقة من أنك لم تقرأ هذا الكتاب"

قلتُ بما يشبه الشماتة والتحدي وأنا أُقدِّم له كتابًا اسمه (الخوف وقوارض أخرى).

"لماذا تثقين هذه الثقة؟"

سأل بابتسامةٍ واسعة.

"لأنَّه جديد، هذه طبعتُه الأولى وهذا يومُه الأول على الرف وحضرتُك لم تأتِ إلى هنا في أيِّ وقتٍ من اليومِ ولذلك فلا يُمكنُ أن تكون اقتنيته"

"لكنني لن أشتريَه رغمَ ذلك"

استفزَّني ردُّه، كيف يُمكنُ لإنسانٍ أن يعدمَ الذوقَ إلى هذا الحد؟ ألا يُمكنُه أن يعبرَ عن رأيِه بطريقةٍ ألطف؟ استشف غضبي فاستدرك:

"في الحقيقة لا تثير اهتمامي الكتب الجديدة، أقصد تلك التي يكتبُها كُتَّابٌ صغارُ السنِّ إلى حدٍّ ما.

"لا أعرفُ سنَّ مؤلفِ هذا الكتاب، ومع ذلك لا يُمكنُك أن تحكم على كتابٍ دون أن تقرأه"

"هذا صحيحٌ في العموم، لكن ما الذي قد يدفعني لشراء هذا الكتاب على وجه الخصوص؟ مشكلةُ الكتابِ الجدد أنَّهم مخاطرةٌ بجيب القارئ بسيط الدخل"

"إذا كنت مهتمًا بالسياسةِ وعلم الاجتماع ومجالاتِ الفكر الإنساني بوجهٍ عام وتُحبُّ الأدب أستطيعُ أن أضمن لك هذا الكتاب"

"هل قرأتِه؟"

"نعم"

"هل يُمكنُ أن تُحدثيني عنه قليلاً إذا سمحتِ؟"

"بالطبع!"

قلتُ فرحةً بهذا الانتصار الصغير؛ جميلٌ أن يُقنعَ الإنسانُ شخصًا ما بسماعِ كلامٍ عن كتابٍ لم يكن مُتحمسًا لاقتنائه.

"فكرةُ الكتاب بديعة جدًّا؛ يتناولُ صفاتِ الشعوبِ التي تُسيِّدُ عليهم المستبدين، ويُمثِّلُ كلَّ صفةٍ منها بكائنٍ من الحشراتِ أو القوارض، فالخوفُ مثلاً هنا فأر، الشعور بالمهانة وحقارة الشأن صرصار، الخنوع عقرب، وهكذا.. كلُّ كائنٍ/ صفةٍ منهم تقرضُ صاحبَها وتؤذيه وتُسمِّمُه بقدرِ ما يحملُه في نفسِه منها"

"جميل"

قال مُستحسنًا بابتسامةٍ كبيرة.

"هل ستشتريه؟"

"لا"

لم يترك لي الغضبُ مساحةً كافيةً من مخي لأستخدمَها في الحلمِ عليه!

"ما الذي تُريدُه يا أيها السيدُ بالضبط؟ كيف يُمكنُني أن أساعدَك؟ لماذا جئتَ إلى هنا؟ هل تريدُ اقتناءَ كتابٍ أم تطليعَ روحي؟"

"لماذا غضبتِ؟ صدقي أنني لم أقصد إزعاجك"

"لكنك فعلت"

"أعتذرُ إذن"

جاءت السيدة مليكة مديرة الدار في تلك اللحظة. هل كانَ انفعالي وصوتي عاليين؟ إذا طردتني هذه السيدة لن أجدَ ما أقوله. كانَ عليها أن تحضرَ من الأول؛ من أولِ المراهقتين، لا في آخرِ هذا الـ... لترى كيف غضبتُ دون أن ترى آخرَ صبري. طلبتْ مني أن ألحقَها إلى الكافيتريا، امتثلتُ ولكنَّ ذلك الرجلَ ذهبَ معنا إلى هناك، هذا ما كانَ ينقصُني؛ سيشكوني إليها!

"ماذا حدثَ يا مُحمَّد؟"

(وتعرفُه أيضًا؟ هكذا طُردتُ رسميًا). قلتُ لنفسي.

"حدثَ سوءُ تفاهم. أعتذرُ للآنسة مرةً ثانية وأؤكدُ أنني لم أرد إزعاجها"

"ماذا حصل يا رئيفة؟"

سألتني بنبرة صارمة..

"هذا السيد لم يأتِ ليشتريَ كتابًا، إنما ليُسلِّي وقتَه ويستمتعَ –حسبَ ظنِّه– بسلطةِ مالكِ المالِ بمالِه على البائعِ برغبتِه في رواجِ بضاعتِه. إنني

أتساءلُ كيف يرى مهنةَ بائعِ الكتبِ ليتصرفَ بهذا الأسلوب! إنني أبذلُ جهدي لتحبيبِ الكتابِ الجيد إلى إنسانٍ واحد، لجعل إنسانٍ واحدٍ على الأقلِّ يأخذ الكتابَ الصحيحَ بدلاً من إهدارِ المال والوقت في الكتبِ التي لا طائلَ منها إلا ترقيق الدماغ وقصفَ عمرِ العقل، لكنَّ الأستاذ يضعُني موضعَ مُروِّجِ الأدواتِ المنزلية الرخيصة ويضعُ نفسَه موضعَ صاحبِ المال؛ يطلب مني بنفسِه أن أحدثَه عن الكتاب ثم يقولُ بكلِّ ما يُمكنُ لإنسانٍ من العنجهية: "لن أشتريَه". ماذا سيشتري؟ إمَّا أنَّه لن يشتريَ شيئًا أو سيشتري ذلك العبث الماسخ الذي يُباعُ في الصالةِ الثالثة في دار الـ...، بينما يُفني آخرون أعمارَهم من أجلِ أن يعرفَ البقيةُ، لا يفعلُ البقيةُ إلا الاتكاءَ على ظهورِهم وتعاطي كتاباتِ أميرِ الغرام وعاشقة الانتقام والجميلة والوحش!"

"ألم أقل لك تجاوزي هذا الغضبَ يا رئيفة؟ ألم أقلْ لكِ أنكِ لن تُصلحي العالمَ ولن تعدلي المائلة إذا غضبتِ من كلِّ شيء؟ ألن تتوقفي عن تحميلِ كلِّ من تَرينَه ذنبَ إنسانةٍ لا يعرفونها؟ هل ستُجبرين الناس على اقتناء الكتبِ التي ترينها جيدة؟ هل ستُجرعينَهم المعرفةَ التي ترينَها واجبةً بالملعقةَ مثلما يُجرِّعُ الطفلُ دواءً لا يُحبُّه؟ ماذا تظنين نفسَك فاعلة؟"

فاجأني تغييرُها الموضوع، أو النفاذَ إلى عَظمِه مباشرةً ودون تمهيد. التفتت إليه دون أن تنتظرَ مني ردًّا.

"وأنت، ما الكتابَ الذي قلتَ لن تشتريَه؟"

"الخوف وقوارضُ أخرى، كتابٌ جديدٌ تلك أولُ طبعةٍ منه وهذا أولُ يومٍ له على الرف"

استفزتني نبرتُه وتكرارُه كلامي!

"هل علينا أن نرمي الكتبَ الجديدةَ في النهرِ لأنَّ حضرتك وفئة القراء التي تنتمي إليها لا تثقون في الكُتَّابِ الجدد؟"

"لا فائدةَ من كلامي، أليس كذلك؟"

قالت لي السيدة مليكة بنبرةٍ هادئة وحليمة..

"هذا ما يحصلُ عندما تُصدِّرين غضبَك في معاملة الناس؛ لن تفهميهم، وسترتكبين أخطاءً من هذا النوع: أن تُحاولي بيعَ كتابٍ لمؤلفِه مثلا"

"ماذا؟ مَن؟ ماذا تعنين؟"

"أعني أنَّه لم يرفض الكتاب زهدًا أو استخفافًا، بل لأنه لا يُمكنُنا أن نبيعَ للكاتبِ كتابه، هكذا ستسوء سمعتُنا كدار نشر يا رئيفة، وإلا ما رأيُكِ أنت؟"

من أين جاءَ ذلك الخجل الرهيب؟ ومن أيِّ ثقبٍ في جدرانِ حذري وانقباضي تسرَّبت إليَّ تلك العاطفةُ المحمومة؟ وكيف استحالَ كلُّ ذلك الغضبِ إلى كلِّ هذا الحب؟

كانَ مُحمَّدُ الحلمَ والأناةَ والألمَ الرزين، وكنتُ العجلةَ وطيشَ اللحظةِ المتهورة، كان الاعتدالَ والاتزانَ وانضباطَ الخطوة، وكنتُ بنتًا تتعثَّرُ في نفسِها، لسنواتٍ سألتُ نفسي: كيف أمكنَ أن يمتزجَ حبُّه، وهو الهادئُ الصبورُ على الدنيا، بحُبيباتِ دمي الفوارة؟

***

(11)

هناك حبٌّ شرِه؛ مهما أكلَ من طاقةِ الطرف الآخر لا يشبع، دائمًا مُصابٌ بالأرق، حبٌّ عدوُّ الأسِرَّةِ يتأملُ الملامحَ طوالَ الليل، يصرخُ بهستيريا طوالَ الوقتِ بأنَّه لا ينالُ كفايتَه من شعورِ المحبوبِ وحضورِه، ذو هالاتٍ سوداءَ وبؤبؤين أحمرين كالدم. حبٌّ كهذا يموتُ صاحبُه من أثرِ الركضِ الزائد، ويموتُ إذا نفدَ احتمالُ الطرفِ الآخرِ وقرَّرَ التعافي.

هنـاك حـبٌّ طفـلٌ مُبـالغٌ فـي الطفولـة؛ لا يفـرحُ إلا بالكلمـةِ والهديـةِ والـوردةِ حـدَّ القفزِ كالأطفـال، يُصفِّقُ بانتشـاءٍ وشـعورٍ بـالزهوِ إذا وقـفَ ليـراه أحـد، ويُحـبُّ دائمًـا أن يُشيرَ إليـه الآخـرون ويتخـذوه مثالاً على المُعجزات الباهرة، يتناولُ الخلافاتِ بنزقٍ ويتعاملُ صاحبُه كطفلٍ يُريدُ لنفسِه أن يستأثرَ بجميـعِ الـدمى التـي تُعجبُـه، لا يفهـم الحـبَّ إلا كمـا يفهـمُ دميـةً من دُمـاه تجذبُ أنظارَ الآخرين إليه.حبٌّ كهذا يختفي من تلقاءِ نفسِه عندما ينبتُ شاربُ النضج، أو يُخلَعَ مع ثيابِ رعونةِ البنتِ القديمة.

هناك حبٌّ مُرتعشٌ مُرتبكٌ ضعيفُ الذاكرةِ كعجوز؛ يصحو بالليلِ سبعَ عشرةَ مرةً ليتأكدَ من غلقِ النوافذ، يُفتِّشُ المريضُ به قلبَ الطرفِ الآخرِ بعدَ عودتِه من العمل، يتحسسُ جسدَه بالليلِ ليبحثَ عن خيانةٍ أُهملت في شأنِها الاحتياطاتُ هنا أو هناك، يدسُّ يدَه في جيوبِ القمصانِ وحقيبةِ العمل وبطنِ الهاتفِ ليستخرجَ غلطة.حبٌّ كهذا يستنزفُ طرفَيه، لا تنامُ

شكوكُه ولا يرتاحُ جنبُه في السرير، يُقتلُ يومًا برصاصةٍ طائشةٍ من مسدسِ الشك، ويعتقدُ صاحبُها أنها مؤامرةٌ دبرها الآخرُ للتخلصِ منه!

عندما صدقتُ معَ نفسي واعترفتُ لروحي أنني أحبُّه عرفتُ أنَّ حبِّي للسيد مُحمَّد فريد إسلام لم يكن أيًّا من هؤلاء، لم أكن حين أحببتُه طفلةً ولا شرِهةً ولا مُرتبكة. كنتُ أعرفُ نفسي وأثقُ فيها وأُحبُّها، وكنتُ أعرفُ محمدًّا وأثقُ فيه وأحبُّه، رغمَ أنَّ معرفة ذلك الحب والاعتراف به بعد الانتباه إليه قد كلَّفاني كثيرًا من أيامي، ورؤيتَه خائفًا في كثيرٍ من أيامِه ألا أحبَّه.

كانَ مُحمدٌ رجلاً يعرفُ كيف يُهدِّئَ من روعِ بنتٍ مستوحشةٍ من العلاقاتِ دونَ أن يبدو أنه يبذلُ جهدًا من أجلِ ذلك أو يتعمدُه، لكنه بعد أن يفعل ذلك يبدأ في الخوف الذي لا أجيد طمأنته! عندما جرى بيننا أولُ نقاشٍ شعرتُ بالإجلالِ والإكبار؛ هذا رجلٌ هائلُ المعرفةِ بوسعِه أن يقضيَ نهارًا كاملاً يُحدثُك عن أشياءَ لم تكن تعرفُها بأسلوب يجعلُك تُحبُّ أن تقولَ له: "حدِّثْني عن كلِّ الأشياءِ التي تعرفُها ولا أعرفُها"، أستاذٌ جامعيٌّ على قدرٍ غيرِ عاديٍّ من الثقافةِ والوعي الجديرِ بالغبطةِ وحسنِ المنطقِ الذي يجعلُكَ تتذوقُ كلَّ كلمةٍ يقولُها كأنَّها من حلاوةِ التعبيرِ مُكعبُ سكر.

في البدءِ أردتُ أن أنهلَ من ثقافتِه ومعرفتِه إلى أقصى ما أملكُ من مساحةٍ مُتاحةٍ في دماغي، ومنذ الحديثِ الأولِ أدركتُ أنَّ هذا الأستاذ الشابَّ لا ينبغي أن يُفوِّتَه طالبُ وعيٍ ومبتغي ثقافة، ولذلك كنتُ أحضرُ كلَّ

ندواتِه ومحاضراتِه التي كانت تُعقدُ في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة، أُسجلُ كلَّ ما يقولُ حتى نفدت ذاكرةُ الهاتفِ واشتريتُ بطاقةَ ذاكرةٍ جديدةٍ بسعةٍ أكبر، كنتُ أجلسُ في مُحاضراتِه كالمجذوبةِ بقوةٍ خارقةٍ للطبيعة، أتلذذُ بكلِّ معلومةٍ جديدةٍ في السياسةِ أو حقيقةٍ في التاريخِ أو نُكتةٍ في الاقتصادِ أو لطيفةٍ في اللغة، وكنتُ أشعرُ في نفسي مع كلِّ مفهومٍ جديدٍ أو فكرةٍ مُدهشةٍ بامتنانٍ عميقٍ وشعورٍ بالامتيازِ عن بقيةِ الناسِ الذين لم يواتِهم الحظُّ الجيدُ ليحضروا تلك المحاضراتِ ويعرفوا ما كنتُ أعرفُه، كان ذلك الإحساسُ بسعادةِ المعرفةِ والتوقِ إلى المزيدِ منها يجعلانني أحرصُ على ألا تفوتَني محاضرةٌ أو ندوة، وواظبتُ على ذلك الحضورِ خمسةَ عشرَ أسبوعًا قبلَ أن أضبطَ نفسي في أثناءِ مُحاضرةٍ وأنا أراه للمرةِ الأولى؛ ليس كأستاذ أتلقى عنه المعرفةَ وكاتبٍ أهتمُّ بكتاباتِه، وإنما كرجل.

لسببٍ لا أعرفُه آلمني ذلك الاكتشافُ وصدمني وأغضبني من نفسي، فبطريقةٍ ما كنتُ أشعرُ أنَّه ليس من المناسبِ لي أن أقعَ في الحب، ليس من اللائقِ أن أكونَ طرفًا في علاقة، وليس مما يُمكنُ التغاضي عنه أن أضبطَ نفسي مُتلبسةً برؤيةِ رجلٍ كرجلٍ لا بأيِّ صفةٍ أخرى. كانت ظروفُ حياتي التي عشتُها تُملي عليَّ اعتقاداتٍ صارمةٍ بعدمِ إمكانيةِ ذلك، وعلى الرغمِ من أني تركتُ تلك الحياةَ خلفي فإنني حملتُ نتائجَها معي؛ وحدةً مثل شجرةٍ وحيدةٍ في الغابة، خوفًا من العلاقاتِ كأنني كائنٌ هبطَ لتوِّه على

أرضٍ غريبةٍ فهو يرى من مقتضياتِ السلامةِ أن يستوحشَ من الناسِ وأن يقاومَ أي رابطةٍ دائمةٍ تربطُه بهم، وذكريات سيئة تجعلُ من الصعبِ أن أمتلكَ القدرَ اللازمَ من السواءِ النفسيِ لأستطيعَ إسعادَ شخصٍ آخر.

الحاصلُ أنني انقطعتُ عن محاضراتِه وندواتِه، أسبوعًا، اثنين، ثلاثةً، حتى كلمتني السيدة مليكةُ الحق ونقلتْ إليَّ سؤالَه القلِقَ عني، وسألتْني عن سببِ انقطاعي عن دروسِه فتعللتُ بانشغالي وضيقِ الوقت، ولم تقتنع غير أنها لم تُرد أن تُلحَّ عليّ.

وبعدَ أيامٍ من سؤالِها وجدتُ رسالةً منه في بريدي الإليكتروني، كان يسألُني أيضًا عن سببِ غيابي ويبدي تخوفَه من ألا أكونَ بخير، أجبتُ بأسلوبٍ جامدٍ دون أن أسأله من أين أتى بعنوان بريدي؛ لأنني كنت أعرف من أين حصل عليه. قلت إنني منشغلةٌ وأنني قد لا أستطيعُ أن أحضرَ طوال الفترةِ القادمة، سألَني عن حدودِ تلك الفترة، قلتُ بجفاء أنني لا أعرف.

لم يُرحْني ذلك الانقطاع عن دروسِه، ولم أكن أنتظرُ أن يُريحَني لأنني لم أكن مُتعبةً من الحضورِ لأرتاح بالغياب، بالعكس.. كانَ الحضورُ يناسبُني جدًّا ويستهويني ويُعجبُني، لكنني فعلتُ ما توجَّبَ عليَّ فعلُه، فمهما تكن الأسباب وتحتَ أيِّ ظرف لم يكن لائقًا أن أضبطَ نفسي في تلك الحال. هكذا كنتُ أفكر وتلك كانت قناعتي، على أني عشتُ في غمٍّ عظيمٍ طوالَ ما يقربُ من العام، كانت تتناوشُني الحيرةُ بين طبيعتي الأنثويةِ

التي تميلُ إلى الحبِّ وتتمنى أن تكونَ سيدةً في بيتٍ وتتلهفُ على الأمومةِ واعتقادي الراسخِ أنني لا أصلحُ لأيٍّ من ذلك.

كنتُ أُحاول التشاغلَ عن التفكير، لكنني كنتُ أعترفُ لنفسي في لحظاتِ الصدقِ أنني تعلقتُ بذلك الرجل، رأيتُ فيه الأنموذج الأمثلَ الذي كنتُ لأحبَّه لو أنني كنتُ صالحةً للحب، وكنتُ أقولُ لنفسي ساعتَها: "آهٍ لو أنني كنتُ صالحةً للحب"، لكنَّ ذلك كان يزيدُ من حدةِ غضبي على نفسي، وكانت المرأةُ العاقلةُ التي في داخلي تقولُ لي بصوتٍ له صدًى كأنَّ داخلي قبوٌ فارغ:

"وماذا إذا كنتِ صالحةً للحب؟ هل هذه كلُّ المشكلةِ الآن؟ على أساسِ أنكِ إذا قلتِ: (أنا صالحةٌ للحبِّ) وعُدتِ إلى محاضراتِه ونظرتِ إليه كامرأةٍ تنظرُ إلى رجلٍ وتتعلقُ به فإن هذا الرجلَ سيقولُ لكِ: (مرحبًا بملكةِ قلبي)؟"

الحاصلُ أنني انقطعتُ ولكنه لمِ ينقطع، كانَ يُرسلُ إليَّ مع السيدةِ مليكةَ كتبًا يقولُ إنها مهمةٌ ولا ينبغي أن تفوتَني، وكانَ يواظبُ على تقييمِ مقالاتي في الأدبِ والسياسةِ وشؤون المرأةِ التي أعرضُها عليها فكانت تُطلعُه عليها دون معرفتي ثم تردُّها إليَّ وفيها ملاحظاتٌ له بقلمِ الرصاصِ على الهوامشِ وبين السطور. كنتُ أُبدي امتعاضي من ذلك، لكنني كنتُ أنطوي على شعورٍ حلوٍ جراءَ هذا التواصل غير المباشر، وأُمضي الليلةَ في دراسةِ ملاحظاتِه وتنقيحِ المقالِ مُستفيدةً منها.

استمرت الحالُ كذلك طوالَ الخمسة عشر شهرًا التي تخلفتُ فيها عن محاضراتِه، أهلكتُ نفسي في الشغلِ والمذاكرةِ والقراءةِ ومتابعةِ الأخبار وعيشِ قصصِ صديقاتي معهن، كتبتُ المقالاتِ وترجمتُ النصوصَ وبعتُ الكتبَ وراجعتُ الرواياتِ المُرشحةَ للنشرِ وتخرجتُ وضحكتُ وبكيتُ لكنني كنتُ أفكر فيه بين هذا كله من وقتٍ لآخر، أُفلتُ زمامَ قلبي وأجدُني أُفكرُ فيه رغمًا عني، أفكرُ فيه كإنسانٍ كان احتمالاً لحياةٍ سعيدةٍ وقصةٍ تستحقُّ العيش، ثم أبتسمُ وأقولُ لنفسي أنني فعلتُ الشيء الصحيح عندما انقطعتُ عن دروسِه وكففتُ عن رؤيتِه بتلك الطريقة، وإلى أبعدِ حدٍّ كنتُ أشعرُ بالرضا عن نفسي، عن قدرتي على الإمساكِ بزمامِ الأمورِ ومنعِ قلبي من أن ينجرفَ مع ذلك التيار، عن حمايةِ نفسي من الوقوعِ في فخِّ الحبِّ المحفوفِ بالغواية.

كنتُ على قناعةٍ ورضا عن تصرفي إذن، وكنتُ أرى أنني سعيدةٌ بكوني تلك البنت التي تعرفُ كيف تُديرُ حياتَها وتختارَ لنفسِها الأصلح. لكن حين وجدتُ رسالةً منه في بريدي الاليكتروني يُهنئُني فيها بتخرجي انتكستُ عما ظننتُه تعافيًا من التفكير في ذلك الاحتمال، إذ لم تكن رسالتُه تهنئةً فحسب..

(الآنسة رئيفة علاء الدين، لعلك بخير..

وددتُ أن أهنئكِ بتخرجِك، أنتِ تستحقينَ الأفضلَ دائمًا وفي كلِّ شيء، عسى أن تكونَ أيامُكِ القادمة كلُّها هناءةً وسرورًا.

كتبتُ لكِ هذه الرسالةَ من أجلِ التهنئة في الأساس، لكنني أودُّ أن أسألَكِ، إذا لم يكنْ يُزعجُك، سؤالاً ظللتُ أتقلبُ عليه طيلةَ الأشهرِ الفائتةِ دونَ أن أستطيع تمريرَه إليكِ: ماذا ساءكِ مني يا رئيفة حتى صرتِ تحرصين على ألا تجتمعي بي في مكان؟ في البدءِ انقطعتِ عن المحاضرات وتعللتِ بالانشغالِ وبعُسرِ التحرك من القاهرة إلى الجيزةِ أسبوعيًّا، لكنَّكِ بعد ذلك صرتِ تتعمدين الانصرافَ من المكتبةِ إذا أتيت، وصرتِ تردِّين الكتبَ التي أُرسلُها لكِ دونَ تعليقٍ واحد، وهذا النفورُ أوقعني في اضطرابٍ شديدٍ حتى صرتُ اسألُ نفسي: هل رابَها مني شيء؟ هل قالَ أحدٌ ما عني شيئًا أمامَها نفَّرها مني فرأتْ أنني رجلٌ لا ينبغي أن يكونَ بينها وبينه أي تعامل؟ هل قلتُ شيئًا أبعدَها دونَ أن أنتبه؟

هل تُدركين إلامَ أوصلتْني هذه الحال يا آنسة رئيفة؟ لقد شككتُ في نفسي وهذا ضدُّ ما هي عليه عزةُ نفسِ الرجل، وأخبرتُكِ الآن أنني شككتُ في نفسي وسألتُك، وهذا أسوأ من الشك؛ أنني لم أحتفظ به لنفسي.

على كلِّ أعتذرُ إليكِ؛ لم أقصدْ أن أُزعجَك، كوني على يقينٍ من ذلك.

بعد هذا كلِّه؛ هل يُمكنُكِ أن تُخبريني سببَ تجنبكِ المفاجئِ لي؟

تقبلي خالص احترامي).

***

بمجرد أن قرأت تلك الرسالةَ انهارت دفاعاتي فجأة، وبكيتُ لأربعِ ساعاتٍ متواصلةً دونَ أن أعرف لماذا أبكي على وجهِ التحديد، وسألتُ نفسي: عمَّ يعتذرُ بالضبط؟ كيف يرى أنه يُزعجُني؟ وإذا اعتذرَ فيعني أنه يعرفُ سببًا؛ فكيف يسألُني عنه في السطر الذي بعدَه؟ لم يبدُ لي أنَّه يعرفُ جيِّدًا ما يقول، أو ربما يعرفُ ولكن لا أفهمُه. كانَ عليَّ أن أرد، لكن ماذا أقول؟ هل أقولُ انقطعتُ عن دروسِك لأن التواجدَ معك في مكانٍ واحدٍ يُشوِّشُ إشارةَ قلبي ويُربكُني؟ هل أقولُ إنني لم أنفرْ منك ولكن نفرتُ من الرجلِ الذي فيك عندما رأته الأنثى التي فيّ؟

لم أستطع إلا أن أنفيَ كونَه المتسببَ في شيء، وأصررتُ على أنني انقطعتُ لانشغالي وتعسُّر السفرِ عليّ مع أنني كنتُ مُستعدةً لأُسافرَ إلى آخرِ الكون، ورغم أنني أعرفُ أنَّ أسبابي غير مُقنعة وأنَّه على الأغلبِ يعرفُ من السيدة مليكة حجمَ انشغالي الذي ليس كبيرًا إلى حدٍّ أن يمنعني من حضورِ درسٍ مرةً في الأسبوع، لكنَّه قنع مني بذلك، ربما لأنها كانت أولَ مرةٍ نتكلمُ فيها مُباشرةً بعدَ انقطاعي عنه. واستمرَّ في إرسالِ الكتبِ إليَّ مع مديرتي في العمل، السيدة مليكة، والتي كانت قد أصبحتْ صديقتي الكبيرة التي تجدُ في نفسِها مُتسعًا لأن تعودَ بنتًا في الخامسةِ والعشرين من العمرِ لكي تُجاريني في غيرِ أوقاتِ العمل.

كانت تتولى نقلَ الكتبِ منه إليَّ والعكس، وقد أرضاني ذلك التواصلُ الطفيف معه من خلالِها، لكنني لم ألبث أن وجدتُ نفسي أتساءلُ عن

شكلِ العلاقةِ بينه وبينها حتى تستطيع أن تنقلَ منه وإليه بهذه البساطة، ولسببٍ كنتُ أجهلُه ملأني هذا السؤالُ غيظًا وحنقًا جاهدتُ طوالَ أسابيعَ لأكتمَه، حتى تصرفت رحمةُ اللهِ بي.

"لقد أثنى مُحمَّد كثيرًا على مقالِك الأخير"

قالت دونَ أن ترفعَ عينيها عن الأوراقِ في يدها.

"مُحمَّد مَن؟"

"كم مُحمَّدًا نعرف؟ مُحمَّد فريد إسلام، ذلك الأستاذ الذي قاطعتِه فجأة لسببٍ غيرِ مفهوم.."

"ماذا يعني أنني قاطعتُه وكيف قاطعتُه؟ "

"يعني أنكِ كنتِ تواظبين على حضورِ دروسِه كالنحلةِ النشيطةِ ثم انقطعتِ فجأةً فكأنكِ لم تعرفي يومًا كاتبًا تحترمينه ولا أستاذًا تحرصين على الحضورِ له اسمُه محمد"

"قلتُ إنني منشغلة، وإلا فلماذا قد أنقطعُ عن دروسٍ أستفيد منها؟"

"وأنا أيضًا لا أدري ولذلك سألتُه أمس كما أسألُكِ الآن، ولم يُجبْ بشيءٍ غيرَ أن يتركَ المائدةَ مُلفِّقًا الحجج دونَ أن يُكمل طعامَه!"

"لم أفهم، هل قابلتِه أمس؟ هل من أجلِ أن تُطلعيه على مقالتي؟"

"لا، لم يتكلف أحدُنا شيئًا من أجلِ مقالتِك، كانَ يزورُني أمس وأطلعته عليها ببساطة"

"كان يزورُك؟!"

"هل غريبٌ أن يزورَ الإنسانُ خالتَه؟"

"خالته؟! هل أنتِ خالتُه؟"

"لماذا تفاجأتِ هكذا؟ أولم تكوني تعرفين؟"

"لا! إطلاقا! كنتُ أظنُّ أنَّه مجرد كاتبٍ تتعاملُ معه دارُ النشرِ التي تُديرينها مثلما تتعامل مع أي كاتبٍ آخر!"

"ولماذا سأعرضُ كلَّ مقالاتِك على مجردِ كاتبٍ تتعاملُ معه الدار وأتولى دور توصيل الكتب منه إليكِ؟"

"لا أعرف.."

شعرتُ بخجلٍ رهيبٍ إذ خُيِّل إليَّ أنَّها قد تكونُ رأتْ في تصرفاتي في الأسابيع الماضية شيئًا مما كنتُ أنطوي عليه من الغيظ والحنق، لكنني وجدتُ راحتي أخيرًا بمعرفتي أنه ابنُ أختِها، ابنُ أختِها فقط وهذا كلُّ ما في الأمر، وكانت في داخلي امرأةٌ صغيرةٌ عاقلةٌ تنهرُني مُستنكرةً ذلك الإحساسَ بالراحةِ وتُحاولُ أن تُعيدَني إلى صوابي، لكنني لم أستمعْ إليها، وبقيتُ مُبتسمةً دونَ سببٍ ظاهرٍ طوالَ اليوم.

بعدَ أيَّامٍ كانت المكتبةُ تُقيمُ له حفلَ توقيع روايتِه الجديدة، وكمُوظفةٍ هناك لم يكن ثمَّ بدٌّ من التواجد، وبعدَ انتهاءِ اليومِ جلسَ إلى خالتِه يتحدثان بينما كنتُ بالقربِ أرتِّبُ كتبًا جديدةً على الرف، وكان بوسعي أن أسمعَها تسألُه عن رأيه في اليومِ وكيف سارَ الحفل، فردَّ عليها بقولِ الشاعر عبد الوهاب البياتي:

وينفرُ مني كظبيٍ وديعٍ أحاقَ به صائدٌ مُجرمُ

حدقتْ فيه بتفحصٍ مُحاولةً فهمَه، ثم، وكأنَّه كانَ غائبًا عن وعيه وعادَ فجأة، انصرفَ مُستأذنًا دونَ أن يتركَ لها فرصةً لقول شيء.

في تلك الليلةِ ذاتِها أرسلَ إليَّ أولَ رسالة حب..

***

(12)

(الآنسة اللطيفة المُهذَّبة رئيفة علاء الدين:

تحيَّةً طيِّبةً وبعد..

العالَمُ مجنونٌ بما يكفي ليضربَ الحمقى باللئامِ ويجلسَ على جنبٍ ليُشاهدَ ضاحكًا ومُصفِّقًا للعبةِ الأكثرِ لؤمًا والنكتةِ الأشدِّ بذاءة، ماذا أقولُ لك؟ إننا نتحرَّكُ كعرائسِ الماريونيت على مسرحِ العالم!

عندما انتهتِ الحربُ العالمية الثانية في القرن قبل الماضي كانت أمريكا أقوى دولِ العالم عسكريًّا واقتصاديًّا، مما أعطاها السلطةَ الأقوى على بقية الدولِ المنتصرةِ عندما جلسَ الجميع ليُقسِّموا كعكةَ العالم، لذلك تمكنت من فرض اتفاقية بريتون وودز قبل مئتي عام والتي أصبح الدولار بمُوجبِها المعيار النقدي الدولي لكل العملات الموجودة على سطح الأرض في ذلك اليوم، قبلَها كان الذهب والفضة هما المعياران النقديان، ولكي تفهمي أكثر فببساطة كانت كل العملات تُقاسُ بالذهب والفضة، أي أن الجنيه مثلا كان يُساوي كذا من الذهب أو كذا من الفضة، وكذلك سائر عملاتِ الدولِ الأخرى، وبالتالي كانت كلُّ دولةٍ لا تصكُّ من العملاتِ إلا بقدرِ ما لديها من الذهبِ والفضة بما يُعادل قيمة العملاتِ المصكوكة، وبطبيعةِ الحالِ فإن الدولة التي تمتلكُ ذهبًا أكثرَ تمتلكُ غطاءً نقديًّا أعلى واقتصادًا أقوى، وكلما امتلكتْ دولةٌ رصيدًا من الذهب كان بوسعِها أن

تُنافسَ أمريكا اقتصاديًّا وربما سياسيًّا أيضًا، وهذا ما لا يُعجبُ أمَّنا أمريكا؛ أن تكونَ موازينُ القوى مُوزَّعةً بحسبِ امتلاكِ الثروات، ينبغي أن تكونَ الأقوى على كلِّ الأصعدة وأن تفرضَ سطوتَها ووصايتَها على العالم، لذلك كانت فكرةُ فرضِ الدولار كمعيار نقدي، لكن ما الميزة التي يمتلكُها الدولار ليحلَّ محلَّ الذهب والفضة وهو مجرَّدُ ورقةٍ خضراء مثل سائر الورق لا تساوي شيئًا في الحقيقة؟

لا ميزة على الإطلاق، كلُّ ما يملكُه أنه فكرةُ الدولة المنتصرة وصاحبة الكعب الأعلى. لعلك ستسألين: وما الذي يُجبرُ بقيةَ الدولِ أن ترضى بهذه الورقة الخضراء كمعيارٍ لقيمة عملاتِها وتتخلى عن الذهب والفضة؟ وهل أُجبرت تلك الدول على خوضِ حربٍ من أجل رفضِ هذه السيطرةِ الفجَّة؟ وأقولُ لكِ: على الإطلاق، لم تتكلَّف أمريكا من أجلِ ذلك رفعَ سلاحٍ واحد، بل ساقت الدولُ نفسَها بنفسِها كالنعاجِ البريئةِ إلى حظيرتِها! كيف؟ في اتفاقية بريتون وودز تعهدت أمريكا بأن تمتلكَ غطاءً نقديًّا من الذهب لكلِّ دولارٍ تطبعُه، وثبَّتت قيمة الدولار أمام الذهب بحيثُ أن كلَّ أوقيةٍ من الذهب تساوي 35 دولارًا، بينما يتمُّ مُعادلة باقي العملات إلى الدولار لا إلى الذهب، أي أن يُساوي الجنيه -مثلاً- كذا من الدولارات التي تساوي بدورِها كذا من الذهب، فيكون على أي دولةٍ ترغب في تبديل عملاتِها بالذهب أن تبدلَها دولاراتٍ أولا، وعلى هذا الأساس أعلنت أمريكا أنَّ أيَّ دولةٍ تُسلِّمُها 35 دولارًا ستأخذُ في المقابل أوقيةً من الذهب، ومن هنا أتت تسمية الدولار بالعملة الصعبة، فقد أصبح العملةَ الوحيدةَ التي يُمكن

استبدالُها بالذهب بعد أن أقبلتِ الدولُ بحماسٍ على هذا العرضِ المغري مُطمئنةً بتصريحِ أمريكا أنها لم تطبعْ دولارًا واحدًا لم تملك ما يُعادلُ قيمته ذهبًا، ومقابل سلعٍ وثرواتٍ راحتِ الدولُ تُخزِّنُ أكبرَ عددٍ يُمكنُها تخزينُه من الدولارات على أمل تحويلِه فيما بعد إلى ذهب، استمرَّ ذلك لثلاثة عقودٍ تقريبًا حتى السبعينات؛ حينما قال الرئيس نيكسون للعالم ببلادةٍ تامةٍ ولا مُبالاة إنَّ أمريكا لم تكن تمتلك غطاءً ذهبيًّا بقدرِ كلِّ تلك العملات، وأنَّها كانت تطبعُ الدولارات بلا حساب، أي أنكم -يا أيتها الدولُ الحمقاء المسكينة- بعتمونا ثرواتِكم وخيراتِكم ومنتوجاتِكم مقابلَ حفنٍ تافهةٍ لا قيمةَ لها من الورق الأخضر!

بالطبع كانت صدمةً قاتلة لدولِ العالمِ التي راحت طوالَ عقودٍ تُكدِّسُ الدولاراتِ في خزائنِها بشراهة، لكنَّ أي دولةٍ لم يكن بوسعِها أن ترفضَ هذا النظامَ الذي فُرضَ عليها بالمكرِ والحيلةِ لسببين:

الأول أنَّها بالرفضِ كانت ستُمنى بخسائر أفدح، حيث ستكون الدولاراتُ التي بحوزتِها، والتي دفعت في مُقابلِها الكثير من خيراتِها ومُقدَّراتِها، بلا أيِّ قيمة، وهو الأمر الذي يفوقُ بجاحة نيكسون سوءًا وبذاءة!

والثاني أن أمريكا عقدت صفقةً مع دول البترول لتسعير قيمة البترول بالدولار، وألا تقبل هذه الدول سوى الدولار لكي تبيعَ النفط، ما ضمن دوام حاجة الدول إلى الدولار حيث لن يُمكنَها شراء النفط إلا به.

وعندها قال نيكسون جملتَه المشهورة:

"يجبُ أن نلعبَ اللعبةَ كما صنعناها، ويجبُ أن يلعبوها كما وضعناها".

هل أعجبتكِ هذه النكتة البذيئة؟ عن نفسي ضحكتُ عليها كثيرًا حتى طفرتْ ثلاثُ دمعاتٍ كبيراتٍ من عينيّ.

الآنسة المُحترمة رئيفة علاء الدين..

ماذا كنت أريدُ أن أقولَ لك؟

ما رأيكِ في تساؤلِ نيتشه في كتابِه (إنسانٌ مُفرطٌ في إنسانيَّتِه) حينما قال: "ألا يُمكنُ قلبُ كلِّ القيم؟ والخير.. ألا يُمكنُ أن يكونَ هو الشر؟". أقصد هل تعتقدين أنه تساءلَ هذا التساؤلَ عن حيرةٍ حقيقية؟ تداخلتْ لديه المفاهيم حقًّا وتشوَّشتْ رؤيتُه فعلاً فنتجَ هذا التساؤل؟ لا أعرفُ لماذا لا أُصدقُ سؤالَ نيتشه، وأعتقدُ أنه لم يكن تساؤلاً وإنما فرضًا لمفاهيمَ مقلوبةٍ كان هو نفسُه يعلمُ أنَّها لن تنتشرَ في حياتِه وأنها غريبة، لقد كان ذلك الرجلُ مريضًا بجنونِ العظمة، هو الذي قالَ عن نفسِه إنَّه ليس إنسانًا وإنما عبوةُ ديناميت ستنفجرُ في وقتٍ لاحقٍ وتغيِّرُ وجهَ العالم، وذلك بعدما أعلن موتَ الإله وبشَّر بميلادِ إنسانٍ جديدٍ يستخدم القوة لنشر أفكارِه وآرائه؛ إنه مريضٌ حقيقي!

الآنسة المُحترَمة رئيفة علاء الدين..

يرى أنطوان دو سانت إيكسوبيري أنَّ الحبَّ ليس تحديقَ العشّاقِ إلى بعضِهم، بل تحديقُهم معًا إلى الاتجاهِ ذاته، وهي رؤيةٌ مُلهمةٌ جدًّا –في

رأيي- وهاديةٌ إلى احتياجاتِنا التي قد لا نعرفُها إلا متأخِّرين بسبب جنوحِ النُّخبِ المتصدِّرةِ للتنظير عن الحب وسائر العواطف إلى إشاعةِ المفاهيمِ التي تخلقُ الدهشةَ المؤقتة، بصرفِ النظرِ عما إذا كانت تلك المفاهيم حقيقيةً أم لا، وعما إذا كان اعتقادُها يُحقِّقُ صحة العلاقاتِ أم يُمرضُها بخطأ النظرةِ والتمسكِ بالقشور. ماذا يحتاجُ الإنسان من شريك حياته؟ أن يهتمَّ بما يحبُّ وما يكره، يُسمعَه الكلماتِ الحلوةَ والثناءاتِ الجميلةَ من وقتٍ لآخر، يُوفِّرَ له ملاذًا من خوفِه من نفسِه ومن العالم، يتذكرَ التواريخَ المهمة لقصتِهما ويُجيدَ اختيارَ الهدايا وتقديمَها وإن كانت بسيطة، يفهمَ مسرَّاتِه وأوجاعَه ويمتلكَ القدرةَ على احتواءِ مزاجاتِه الكَدِرة؛ كلُّ هذا مُهمٌّ ولكنَّه ليس كلَّ شيء، بقي أن يُحدِّقا معًا إلى الاتجاهِ ذاتِه كما يرى إيكسوبيري؛ أن يكونَ بوسعِهما التناقشُ بانسجامٍ حولَ قضيةٍ مُشتركة، أن يتَّفقا حولَ الطريقةِ التي سيُسيِّران بها زواجَهما والأسلوبِ الذي سيتبعانه في تربية الأبناء، أن تكون لهما نفس الآراء والاعتقادات في القضايا الكبيرة والمهمة، أن يمتلكا بعضَ الاهتماماتِ المُشتركة يكونُ بوسعِها أن تحميَ كلاً منهما من الشعورِ بالوحشةِ والغرابة.

في الحقيقة لا تنطبق رؤية إيكسوبيري هذه على الحبِّ فقط وإنما على الصداقة أيضًا؛ إذ ماذا بوسعِ المرءِ أن يجني من صداقة قاصرة على التنزه وهدايا ذكرى الميلاد والأحاديث حول الأحداث الشخصية في تقليص مساحات غربته الفكرية أو الروحية؟ مع مرور الوقت نُدرك أن

صداقاتٍ من هذا النوعِ غيرُ مشبعةٍ لاحتياجاتِنا، ويؤلمنا ألا نجدَ حولنا من يستطيعُ أن يفهم اهتماماتِنا بالقضايا العامة أو المفاهيم الاجتماعية التي تحتاج إلى تصحيحٍ عاجلٍ أو القراءات الفارقة، ألا نجدَ من يكونُ بوسعِنا أن نتناقش معهم حولَ معاني قصيدةٍ أو تداعياتِ حدثٍ سياسيٍّ أو كتابٍ أحدثَ فينا هزةً ما. من دواعي الأسفِ حقًّا أن نكون مُحاطين بالأصدقاء الذين يُمكنُهم أن يجزموا لنا أننا ما زلنا على ما كنا عليه ولم نتغيَّر بينما ليس فيهم صديقٌ واحدٌ فقط ينتبه إلى أننا لم نسقطْ بفعلِ الريح ولكننا تخلخَلْنا!

إن الآراء الجاهزة والتقليديَّة باتت تُسيطر على كلِّ شيءٍ صدقيني، ولم يعد الإنسان يُكلِّف نفسَه عناء التفكيرِ في الرأي قبل تبنِّيه أو مؤنةَ استغراقِ الوقتِ من أجلِ بناءِ رأيٍ خاص. أودُّ أن أقولَ لكِ –خلافًا للآراءِ الرائجةِ والتي حظيت بتصفيقٍ بالغ– أننا عندما نفشلُ في الاحتفاظِ بالأصدقاءِ فقد لا يُعزى هذا الفشل بالضرورة إلى غبائنا العاطفي أو ميولنا الانطوائية التي لا تتناسب وميولَهم، بل قد يعني أحيانًا أن الصداقةَ يُمكنُ لها أن تكون سببًا في تمديدِ مساحاتِ غربتِنا بدلاً من تقليصِها، وذلك حين لا نحظى بالأصدقاءِ الذين يُحدقون معنا إلى الاتجاهاتِ ذاتِها.

آنسة رئيفة..

ماذا أردتُ أن أقولَ لكِ؟ في الحقيقةِ إنني أدورُ منذ بدايةِ الرسالة وأتكلمُ كلامًا سخيفًا دونَ أن أقول ما أردتُ قولَه فعلا!

إنَّني يا رئيفةُ رجلٌ معجونٌ بالخوف؛ أخافُ أن أُقدِّمَ لكِ حبِّي فلا تأخذيه، وأخافُ ألا أُقدِّمَه لكِ فأكونَ حكمتُ على نفسي أن أُراقبَكِ وأُراقبَكِ حتَّى يأخذَكِ غيري.

أخافُ أن أُكلِّمَكِ فينسكبَ خوفي في حضورِك، وأخافُ ألا أُكلِّمَكِ فيجفَّ فيَّ الكلامُ وأنسى كيف أتكلَّم.

أخافُ أن تدخلي حياتي فلا تُعجبَكِ، وأخافُ ألاَّ تدخليها فلا تُعجبَني.

أخافُ أن تكوني معي فتبردي، وأخافُ ألاَّ أكونَ معكِ فأتحوَّلَ إلى تمثالٍ من الجليد.

أخافُ أن تأتي وأكتشفَ أنِّي لم أستعدَّ كفايةً لاستقبالِك، وأخافُ ألاَّ تأتي فأنتظرَ بتهيُّئي لكِ طويلاً حتى أموتَ وحدي.

لأنَّني رجلٌ فأنا مَن عليه أن يُبادر، ولأنَّكِ أكثرُ جمالاً من شجاعتي فإنني أنشغلُ بإحصاءِ الاحتمالاتِ وعدِّ الخسائرِ الممكنة، خسائري الفادحة، إذا لم أكُن سعيدَ الحظِّ بما يكفي.

أنا رجلٌ معجونٌ بالخوف، وأنتِ امرأةٌ مُدهشةٌ يعرفُ أيُّ رجلٍ أنَّكِ لا بدَّ ألاَّ تُفوَّتي؛ وهذا تحديدًا ما يُصيبُني بالخوفِ والغيرة!

فكرتُ كثيرًا كيف يُمكنُ لي أن أخرجَ من هذه الحيرةِ فلم أجد حلاً سوى أن أسألك؛ ماذا أفعل يا رئيفة؟).

***

عندما قرأتُ تلك الرسالةَ بقيتُ أروحُ وأجيءُ في الصالةِ أمامَ دهشةِ ليلى دونَ أن أعرفَ ما الذي أفعلُه، أدخلُ الغرفَ وأخرجُ منها دون سببٍ واضح، وأضحكُ بصوتٍ عالٍ وأنا لا أنتبهُ لأيِّ شيءٍ من حولي، لم يكن العالمُ في مكانِه، كان هو العالم.

قد يكونُ الرجلُ أديبًا كبيرًا، لكنَّه عندما يُكلِّمُ البنتَ التي يُحبُّها تجفُّ بحارُ اللغةِ في رأسِه.

***

(13)

أنكر محمد على نفسِه في تلك الرسالة أحاديثَه الطويلة التي لا علاقةَ لها بالموضوع الذي راسلني للكلام فيه، والحقُّ أن الموقفَ كان غريبًا جدًّا؛ لا أعتقد أن رجلاً غيره كلَّم الفتاةَ التي يُريدُ الاعترافَ لها بحبِّه عن صدمة نيكسون وأكذوبة النظام الاقتصاد العالمي – جنون نيتشه وفكرته عن الخير والشر – ورؤية أنطوان دو سانت إيكسوبيري لحقيقة الحب المُخالفة للمفهوم الرائج! هو وحدَه من كان بإمكانه فعلُ ذلك، ولقد أحببتُه منه على عكسِ ما كان يظن؛ في أول الرسالة ومع الانتقال بين المواضيع شعرتُ بالغبطةِ لكوني مقصودةَ أستاذٍ وأديبٍ مثله لمشاركة ما يجول في خاطره من أفكار عن الاقتصاد والسياسة والفلسفة والحب، وبعد اعترافِه في آخر الرسالة بقيتُ ساعتين لا أستوعبُ ما قال، لم يكن مُتوقَّعًا بعد كلِّ هذا التشريق والتغريب في الأفكار أن ينتهي الكلامُ إلى تلك النهاية، إنه لم يكن يعرضُ عليَّ حبَّه بصورةٍ مباشرة، بل كان يسألُني ماذا عليه أن يفعل في حبِّي!

هل كان يدركُ ما يفعل؟ ما الذي كانَ يجولُ في رأسِه عندما سألَني ذلك السؤال؟ وماذا كان ينتظرُ أن أُجيبَه؟

فكرتُ كثيرًا أن أتجاهلَ الرسالة، لقد أخجلني مُجرَّدُ التفكيرِ في الرد، لكن التجاهلَ كان سيُفهَم كرفضٍ وهذا ما لم أكن أريده بطبيعة الحال،

فرددتُ برسالةٍ بعدَ ثلاثةِ أيام، تكلمتُ فيها بكلامٍ غير ذي قيمةٍ كبيرة عن نفس المواضيع؛ صدمة نيكسون ومشكلة الخير والشر والحب عند إيكسوبيري، ولم أُعرج بالطبع على الموضوع الأخير والأساسي والذي كان ينتظرُ الرسالة من أجله، لم أقل شيئًا مُطلقا، كأنه لم يقلْ شيئًا!

وفهم هذا العزوفَ على محمل الرفضِ أيضًا، وانقطعت بيننا الاتصالات -وقد كانت ضروراتٍ من أجلِ العمل- شهرين كاملين، شهران وأنا لا أفعلُ شيئًا سوى إفرازِ الأسئلة والندم، حتى وصلتْني رسالة منه -كان مُضطرًّا إليها- ليوضحَ لي بعض الأمور حول كتابه (الخوف وقوارض أخرى) الذي كُلِّف بمراجعةِ ترجمتي له في ذلك الوقت استعدادًا لنشرِه مُترجمًا إلى الروسية، وفي آخر تلك الرسالة اعتذرَ عن رسالتِه السابقة، فبدأت بيننا محادثة مرتبكة..

"أودُّ أن أعتذرَ منكِ عن رسالتي الأخيرة وأن أرجو أن تعتبريها لم تكن"

"لكنني لا أرى داعيًا للاعتذار"

"يدفعُكِ إلى قولِ هذا ذوقُك، لكنني أعلمُ أنها ضايقتكِ!"

"كيف تعلم؟"

"لم تردِّي على ذلك السؤال"

"لو كانت الرسالة ضايقتْني ما كنتُ كتبتُ ردًّا عليها"

"لماذا لم تجيبي عن سؤالي إذن؟"

"كيف يُمكن لفتاةٍ أن تردَّ على اعترافٍ بالحب؟"

"كيف؟"

"بالطبع لن تردَّ على سؤالٍ مثلِ ذلك!"

"تسكت؟"

لم أرد، ففهم ساعتَها فقط وعرف ردي. كم كنّا حبيبين غبيَّين في ذلك الوقت! غبيين تمامًا أرادا أن يقولا "مرحبًا" فأدارا ظهرَيهما وجلسا ساكتَين! ههه، كانت أيامًا حلوة!

***

في نفس تلك الليلة تلقيت اتصالا هاتفيًّا من كاميليا يزن، جرى بيننا حديثٌ طويل كنا سعيدتين فيه، أخبرتني أنها ستتزوج الرجل الذي تحبه وتسافر معه للعمل مع منظمة لإغاثة ضحايا الحروب، ولم أخبرها أنني وقعت في الحب، رغم أنني كنت أتحرق شوقًا لأقول، لكنَّ شيئًا في داخلي أمرني بعدم استباق الأحداث وبترك الأمور تأخذ كفايتها من الوقت.

بعد محادثتنا تلك تغير كل شيء واتخذت الأمور منحنًى جميلاً تطورت فيه بسرعة، فبعدَ كثيرٍ من سوء الفهمِ الذي تبادلناه فيما بيننا لم نجد بُدًّا من الحديثِ بصراحة، أسِفتُ لأنني دفعتُه بعيدًا حينَ كنتُ أريدُ أن يكونَ أقرب، وأسِفَ لأنَّه كانَ عليه أن يكونَ أكثرَ فهمًا للكيفيةِ التي أقولُ بها "نعم" ولم يكن.

نسيتُ فجأةً كلَّ المواثيقَ التي كنتُ أخذتُها على نفسي ألا أنساقَ لرغبتي في أن أكونَ زوجًا وأُمًّا وسيدةً في بيت، وإن لم أنسَ مخاوفي التي

دفعتْني لقطعِ كل تلك العهود، تلك المخاوفَ التي جعلتْني أسألُه سبعين سؤالاً في الجلسةِ التي طلبَ مني فيها أن نتزوج قبلَ أن أُوافقَ أخيرًا، وحينَ وافقتُ قالَ إنَّ علينا ألا نتأخر، وبعدَ خمسِ ساعاتٍ من الركضِ بين المصالحِ الحكوميّة كنّا نقفُ أمامَ السيدةِ مليكة كزوجَين!

لم أكن أكثرَ ثقةً من حبي له ورغبتي في أن أكونَ مُلازمةً له مثلَ جزءٍ من جسدِه مما كنتُ عليه في ذلك اليوم، حتى أنه كانَ يُمكنُ لحبَّةٍ خضراءَ مُدوَّرةٍ أن تكونَ تُفاحةً يلتقطُها من سلةِ الفواكهِ على منضدةِ مطبخِه، أو أن تكونَ أنا، أحيانًا كنتُ أقولُ لنفسي: من الجميلِ أن أختفيَ من هذا العالمِ في قبضةِ رجلٍ طويلٍ يقرأ الشعرَ في الشرفةِ عصرًا بينما يحتسي فنجانَ شاي، إنها طريقةٌ محبوبةٌ للألمِ إذا كانَ لا بدَّ منه، موتٌ بنكهةٍ طيبة.

وكانَ يُمكنُ لشيءٍ قماشيٍّ ثقيلٍ وأسمر، بفروِ ذئبٍ على الرقبةِ وأكمامٍ مُكشكَشةٍ وانتفاشٍ مزهوٍّ بالدفءِ الذي باستطاعتِه منحُه، أن يكونَ سترةً شتائيةً مُعلَّقةً على مشجبٍ خلفَ بابِ البيت، يلتقطُها في طريقِه إلى الخارجِ في مساءٍ مُمطر، أو أن يكونَ أنا؛ إنني مأخوذةٌ بكلِّ الاحتمالاتِ الصغيرة التي تؤدي إلى أن أكون سببًا في شعورِه بأنه في حالٍ جيدة. السترةُ، ورغمَ أنها ستُدفئه، سوف تشعرُ ببردٍ مُضاعفٍ طالما ستكونُ أدفءَ منه لكي يصحَّ لها أن تنقلَ الدفءَ إليه وتردَّ البردَ عنه، لكنَّ ذلك سوف يمنحُني السعادة، ليست هذه السعادةُ معزوةً إلى حب التضحيةِ أو ما شابه، بل إلى أن البردَ الذي لا بد أن يُحتمَل لأجلِ منحِه الدفءَ تافه،

ولأنني إذا صرتُ سُترتَه ستكونُ الحياةُ قد وافقت أخيرًا أن تعقدَ معي صفقةً ناجحة، سيكونُ اللهُ قد أعطاني -رغمَ كلِّ شيءٍ- شيئًا ثمينًا ببضاعتي المُزجاة.

وكانَ يُمكنُ لنصٍّ طويل، يصفُ في عشرين صفحةً ملاءةَ سريرٍ صفراء على حبلِ غسيلِ امرأةٍ قصيرةٍ تقفُ على أطرافِ أصابعها في الشرفةِ لتستطيع شبكَها في الحبل، أن يكونَ مقطوعةً يُعيدُ قراءتها في سياقِ قصةٍ يكتبُها عما أبقتِ الحرب للنساءِ في نهاية الأمر، أو أن يكونَ أنا؛ في الحقيقةِ أوافقُ أن أكونَ الملاءةَ الصفراءَ ذاتَها إذا كان سينظرُ إليَّ متأملاً كالمدةِ التي ينظرُ فيها في عشرين صفحة ليراجعَ أدق تفاصيلها.

في أي كينونةٍ سأتمكنُ من أن أكون إلى جواره من خلالها سيظنُّ أنه الطرفُ المستخدم، الإنسانُ الذي يستخدمُ الأشياء من حوله، في حين سأكون أنا قد حظيتُ بفرصةِ التجسس على خطواتِه الواسعة، طريقةِ مضغه للطعام، تعابير وجهه وهو يقرأ الشعرَ في الشرفةِ عصرًا، مذاقُ شايه المفضل وعدد ملاعق سُكَّرِه، ماذا يرتدي في العادة تحت سترةٍ شتوية، كيف يستقبل حباتِ المطر على وجهه، هل يحب اللون الأصفرَ أم لا، كيف يلتقطُ تفاحةً من السلة، إلى أيِّ حدٍّ يُضيِّقُ عينيه وهو يُشذِّبُ نصًّا كتبه للتو، وهل يُدخنُ، دونَ أن يعرفَ ذلك أحدٌ، شيئا ما وهو يكتبُ أم لا.

***

كنتُ أتلهَّفُ إلى أن أكونَ في بيتِه، وتقرر أن نُقيمَ زفافًا بسيطًا بعدَ أسبوعين يحضرُه أصدقاؤنا بعد أن نُنهي التجهيزاتِ اللازمة، وكانَ مُقرَّرًا كذلك أن أختارَ معه التغييراتِ التي أُحبُّها على البيتِ الذي كانَ يعيشُ فيه، لولا أنَّ المشكلة التي تعرضت لها ميسون أربكت كلَّ خُططِنا وأجَّلت الزواجَ إلى أجلٍ غيرِ مُسمًّى!

اختفتْ ميسون قبلَ زفافي بيومين حينما كانت ذاهبةً إلى عملِها في المشفى الحكومي القريب من الشقة، كانَ من المُفترضِ أن تعود في العاشرة مساءً على أقصى تقدير، ولكنَّ الصبح حلَّ دونَ أن تعود فجُنَّت ليلى قلقًا عليها واتصلت بي لتُخبرني وكذلك بلميس، ولما كان لميسون أكثر من محاولة سابقة للانتحار فقد اتفقنا جميعًا –دون أن نعلن ذلك– على نفس الخوف: أن تكون ألقت نفسها من فوق جسرٍ ما!

هاتفتُ مُحمَّدًا في الليلةِ السابقةِ لزفافي وأخبرتُه بإلغائه، وفي خلال ربع ساعة كان يقفُ تحتَ البنايةِ ينتظرُني، كانَ عصبيًّا وغاضبًا للمرةِ الأولى منذ أن عرفتُه، أخذني إلى مطعمٍ بالقربِ دونَ أن ينطقَ كلمةً في الطريق، ومشيتُ معه دون أن أفتحَ فمي، وحين جلسْنا هناك استغرقْنا ربعَ ساعةٍ تقريبًا قبلَ أن يفتحَ معي حديثًا جرحَ فيه كلٌّ منا الآخر بكلِّ ما يملكُ من قدرةٍ على ذلك!

"ماذا يعني أن تلغي الزفافَ من رأسِك؟"

"صديقتي مختفية منذ أمس، وإلى الآن لا أحدَ يعرفُ أين هي ولا كيف باتت ليلتَها، حتى إننا نخاف أن تكون قد فعلت في نفسها شيئًا سيئًا"

"لـم تُجيبي. ماذا يعني أن تُقرري إلغاءَ الزفافِ ثـم تُهاتفيني وتُخبريني بهذا القرار بتلك الصيغة؟"

"لستُ في حالٍ يسمحُ بأن أكونَ عروسًا"

"لا تدوري حولَ السؤال"

"بل أنتَ لا تتركْ مُعاناتي وتدُر حولَ نفسِكَ فقط، كنتُ سأمتنُّ لو أنَّكَ نظرتَ إليَّ ورأيتَ حالتي!"

"لم تتركي لي الفرصةَ لأفعل، متى عرفتُ أنا باختفاءِ صديقتِك؟ عندما هاتفتِني لتُخبريني بإلغاءِ الزفافِ الذي من المُقررِ أن يكونَ في الغد.. ولكن هذه قصةٌ لوقتٍ آخر، أنا أسألكِ الآن يا رئيفة: كيف تتخذين قرارًا كهذا وحدكِ ثم تُبلغينني به في النهايةِ كتحصيلٍ حاصل؟"

"ليس كتحصيلٍ حاصل.."

مكتبة
t.me/soramnqraa

"كيف إذن؟"

"لماذا تضغطُ عليَّ؟"

"ماذا يعني هذا؟ هل زواجُنا يُشكلُ لكِ ضغطًا؟"

"ليس زواجنا، وإنما عدمُ تفهمِك لحالتي الآن!"

"وهل ينبغي لأكونَ مُتفهِّمًا أن أوافقَ على أن تُهمِّشيني وتضعيني على جانبٍ حين تقعين في محنةٍ بدلاً من أن تركضي إليّ؟"

"لماذا تُصرُّ على أن تُغلِّطَني؟"

"ألا ترين غلطًا فيما فعلتِ؟"

"أنتَ لا تشعرُ بي!"

"بل أنتِ التي لا تشعرُين بي!"

وافترقْنا ساعتَها كلٌّ إلى بيتِه بعدَ أن تقاذفْنا كلَّ ما وقعتْ عليه أيدينا من التُّهم.

***

استمرَّ بحثُنا عن ميسون ثلاثةَ أيامٍ دون جدوى، بحثنا في كلِّ مكانٍ كانَ من الممكنِ أن تذهبَ إليه، حتى قالت ليلى أن لا فائدة وليس من الصائب أن ننتظر أكثر دون أن نخبر أهلها، عندما هاتفتهم اكتشفنا أنهم هم من أخذوها؛ جاء اثنان من إخوتها وانتظراها أمام المشفى حيث تعمل وأخذاها عنوةً إلى أبيها في البلد، كانوا يريدون إرغامها على التوقيع على تنازل عن نصيبها في إرثها من أبيها، وقَّعت وعادت إلى الشقة بعد خمسة أيام.

***

كنتُ أثناء اختفائها قد ألغيتُ زفافي، وكان مُحمَّد يُهاتفُني يوميًّا ليحاولَ التخفيفَ عني رغمَ الخلافِ الذي ظلَّ قائمًا بيننا في ذلك الوقت، وقد حفظتُ له ذلك وكبَّره في قلبي، وفي إحدى الليالي أردتُ أن أعتذرَ منه فأرسلت له بريدًا إليكترونيًّا، وكنتُ قد أدركتُ خطئي بعدَ أن انجلتْ عني غشاوةُ الصدمة، لكنَّ رده كان غريبًا..

"الناس بارعون في تذكر اللحظات الأولى التي بدأ فيها الحب، وأنا أحاول يا رئيفة، لكنني لا أفلح في القبض على لحظة بعينها والقول "هذه هي!".

عندما رأيتك أول مرة كنت غاضبة، وقلت لنفسي: "كيف بوسع الغضب أن يكون جذابًا للفرجة!"، وعندما كلمتك لأول مرة كنتِ تجهلينني وتكلمينني كشخص لم أكُنْه، وكانت المرة الأولى التي يعجبني فيها الجهل ويعجبني أن أكون إنسانًا غيري.

وعندما عرفتُ لأول مرة كتبك المفضلة قلتِ أسماءها كأنك تسردين أسماء أحبابك، شعرت أن المؤلفين هم رعاة الجمال في العالم.

وعندما بدأت معي أول حديث كنتِ خجلة وتعتذرين، أردت أن أقول لك: "اسمي محمد"؛ لتناديني فأتعرف إلى اسمي من جديد.

المشكلة ليست في الذاكرة إذًا، أنا أذكر كل مراتنا الأولى، لكن ليس بوسعي أن أقول أن أيا منها كان لحظة ميلاد الحب. لا أعرف متى بالضبط أحببتك، لكنك عندما غبتِ وخطر لي في صباح ذلك السبت أنك تتعمدين الابتعاد عني لم أرغب في النهوض من الفراش، وبدا لي أني إذا لم أعد أراكِ فسوف أفقد رغبتي في الخروج صباحًا، أدركت لأول مرة أن غيابك يقوض طمأنينتي وينقض صلحي مع العالم.

لم أنسَ ما فعلتِه، ولكن سأُحاسبُكِ عليه فيما بعد".

أخافتني جملته الأخيرة.

تمَّ زفافُنا في 21 يونية 118، بعدَ أسبوعين من الموعدِ الذي أُلغي. كان يومًا لا يُنسى بالرغمِ من قلةِ الأصدقاءِ الذين شهدوه معنا، فقد كانت كاميليا سافرت مع زوجها قبل أسابيع، وكانت ميسون تتقلبُ في كآباتِها التي لا تنتهي، وزينب ماتت بطبيعةِ الحال، ومحمد لم يكن قد بقي من أهله إلا السيدة مليكة، المُحصلة أنه لم يحضر إلا ليلى ولميس والسيدة مليكة، وعلى الرغم من ذلك كانت فرحتُنا لا تُقاس.

كانتْ الأيام الأولى لي كزوجةٍ مستعصيةً على استيعابي، لم أُصدقْ أنني أصبحتُ بالقرب منه طوالَ الوقت، أراه وهو يأكل، وهو يشرب، وهو يقرأ، وهو يرتشفُ الشاي من فنجانه، أراقبُ عقدةَ حاجبيه وهو يكتب، وأتأملُ ابتسامتَه الرائعة عندما أقرأ له قصيدةً نُحبُّها، كان حصتي من الأيَّامِ السعيدة.

(14)

بعدَ شهرٍ من زواجِنا حاولت ميسون أن تتخلصَ من حياتِها للمرةِ الثالثة فتناولتْ علبة مُنوِّم في جرعةٍ واحدة، أُصبتُ بنوبةِ هلع عندما أخبرتْني ليلى في مكالمةٍ هاتفية في حوالي السابعة صباحًا، هُرعتُ إلى المشفى أكادُ أُفلتُ يدَ مُحمَّد الذي كان يُحاولُ أن يُهدِّئ من روعي ويضبطَ خطواتي، وعندما وصلْنا أخبرتْني ليلى أنَّ ميسون بخير، وأنَّ معاوية هو الذي اكتشفَ مُحاولتها في الواحدة بعد منتصفِ الليل قبلَ فواتِ الأوان لحسنِ الحظ، عندما جاء مع أمه وطرق الباب ليلاً بعد معرفته بأنها أخلفت موعدًا كان بينها وبين أمه، زوجة عمها. قصت ليلى عليَّ كل شيء ثم أوصتْني أن أظلَّ إلى جوارِها لأنها مُضطرةٌ للسفرِ إلى عمتها لحلِّ مشكلةٍ معها.

عندما أُتيحَ لي أن أراها لم تكن تُشبهُ امرأةً خارجةً من مُحاولةِ انتحار، كانت ابتسامتُها واسعةً على غير العادةِ وتُجيدُ الإضحاك. قالتْ كلامًا كثيرًا انغرسَ أكثرُه مثلَ الحِرابِ في قلبي رغمَ أنها قالتْه وهي تضحكُ من نفسِها، سخرتْ من أنها على هذه الحالِ لن تستطيعَ أن تجدَ طريقةً تموتُ بها لأنها جبانةٌ إلى حدِّ ألا يُمكنَها الموتُ بطريقةٍ سبقَ أن جرَّبتْها، حكتْ كيف كانتْ واعيةً بالألمِ في كلِّ مرة، ولأولِ مرةٍ عرفتُ أنَّ مقطوعتَها الوحيدة التي كانت تعزفُها على آلةِ الكلارينيت وتُسمِّيها "طلوعَ الروح" هي في

الحقيقةِ ترجمةُ الصوتِ الذي كانَ لدمِها وهو يسيلُ بعدَ أن حزَّتْ شُريانًا في معصمِها الأيسرِ في أولِ محاولةِ انتحارٍ لها، لثلاثةِ أيامٍ بعدَ أن أخبرتْني ظلَّ الصوتُ في أذني لا يخرجُ منها، وقد اكتسى معنًى جديدًا عندي، معنًى موغلاً في الألمِ والفجيعة، مُتطرفًا في الوحشةِ التي يُعانيها إنسانٌ مُلقًى على الأرضِ يُصفِّي دمَه ويودُّ ألا يدخلَ عليه أحدٌ قبلَ أن تتركَه القطرةُ الأخيرة.

صممتُ على البقاءِ إلى جانبِها حتى بعدَ أن خرجتْ من المشفى، وبتُّ الليلةَ معها في شقةِ العباسية التي لم تعد "شقةَ البنات" كما كانت؛ إذ تفرَّق شملُ البنات كلٌّ إلى حياتِها، كنتُ أُحسُّ بعدمِ رضا محمَّد، لكنه لم يُرد أن يُحزنَني.

في تلك الليلةِ جلستُ إلى جانب ميسون أنظرُ إليها وإلى المكانِ الخالي ممن كُنَّ فيه وأتحسَّر، كنتُ أتألمُ من أجلِها لكنني كنتُ عاتبةً عليها، وكانت تعرفُ هذا وتحاولُ أن تُشيعَ جوًّا من المرحِ محاولةً جعلي أتغاضى عن أنها حاولت الانتحار، وعندما كانت مُحاولاتُها تبوءُ بالفشلِ واحدةً بعدَ الأخرى كانت تُطرقُ خَجِلةً وحزينة..

"أعرفُ أنَّكِ غاضبةٌ مني"

"لا أستطيعُ أن أغضبَ منك، إنما أنا عاتبةٌ عليك. لقد أريتِني موضعي منكِ يا ميسون، وكنتُ أظنُّ أنني صديقتُك بعدَ تلك الليلة منذ ثلاث سنين، وكنتُ أظنُّ بعدَ حديثِنا ذاك أنَّكِ ستكونين أكثرَ رويَّةً وتعقُّلاً أمامَ فكرة الانتحار وأنَّكِ لن تُقدمي على التنفيذ، لقد جعلتِني أُدركُ قلةَ نفعي

كصديقة، أشعرُ بالخيبةِ تنخرُني وتُفرِّغُني من كلِّ ما كنتُ أؤمنُ به حيال صداقتِنا!"

"أعترفُ بأنني أخطأت، هذه المحاولة لم تكن كسابقاتِها، أقدمتُ هذه المرة رغمَ كلِّ ما عرفتُه عن اللهِ وما وجدتُه في صحبةِ الأصدقاءِ الجيدين، وهذا أكثرُ فظاعة، لكن صدقي أنني عندما أُحاولُ تذكرَ اللحظةِ التي قررتُ فيها ازدرادَ هذا الشريط لم أذكرْها، كلُّ ما أذكرُه أنني تلقيت رسالةً من أخي يتوعدني بتزويجي من رجل لم أكره في حياتي أحدًا كما أكرهه، رغم أني لم أفعل له شيئًا والله، بالعكس، أحاول دائما تجنبهم، تعلمين أني وقَّعتُ تنازلا عن حقي في إرث أبي من أجل أن أخلص منهم، ماذا يريدون مني بعد؟ ما الذي تركوه لي وما زالوا يطمعون فيه؟ لم تمرّ خمسُ دقائق بعد قراءتي الرسالة حتى كنتُ قد ابتلعتُ عشر حبَّات مُنوم، أي أنني لم أُفكر، فعلتُها فجأةً دونَ تقليبٍ للفكرةِ في رأسي، فعلتُها كما يشعر المرء بالعطش فيشرب.."

"لكنَّ هذا لم يكن لينفي فداحةَ العواقبِ لو أنَّ المحاولةَ نجحت!"

"أعرف.."

"احمدي اللهَ إذن أنَّ معاوية أدركَكِ قبل فواتِ الأوان"

"في المرتين السابقتين امتلأتُ غيظًا وحنقًا عندما كنتُ أجدُ الناسَ يتدخلون في رغبتي ويقطعون طريقي إلى الموت، لكنني هذه المرة أحملُ في قلبي امتنانًا عميقًا للهِ أن منحني فرصةً أخرى"

"لا يُمكنُنا الاتكاءُ دائمًا على إمكانيةِ الحصولِ على فرصة أخرى"

"أعرف، وأعدُكِ أنها لن تتكرر، أريدُ أن تصدقيني يا رئيفة، أفهمُ أنَّه صعبٌ وأنني خذلتُك وأنكِ فقدتِ ثقتَكِ فيّ، لكن صدقيني هذه المرةَ لأنَّ تصديقَكِ مُهمٌّ بالنسبةِ لي، لن أفعلَها مُجددًا، وثقي أنني حينَ أفقتُ أدركتُ أنني لا أُريدُ أن أفعلَ هذا لك، لا تستحقين أن تموتَ صديقتُك بهذه الطريقةِ وأن تشعري بانعدامِ النفعِ لشخصٍ أحببتِه إلى هذا الحد"

"ولا أنتِ تستحقين! هذا ما وددتُ دومًا أن تؤمني به، أنتِ لا تستحقين هذه الميتة، لا يستحقُّ شخصٌ مثلك أن يُمزِّقَ الورقةَ في حينِ أنَّه يعرفُ الإجاباتِ الصحيحة، هذه خسارةٌ فادحةٌ عليكِ ألا تتكبديها صدقيني!ثم إنه ليس أنا فقط مَن عليكِ أن تقلقي بشأنِ شعورِه بالعجزِ وانعدامِ الجدوى إذا كررتِ ذلك، هناك أيضًا مُعاوية؛ الرجل الذي يُحبُّك وما زال يحفى وراءكِ وما زلتِ تتصرفين كأنَّه ليس موجودًا، هو أيضًا لا يستحقُّ أن تموتَ البنتُ التي يُحبُّها بهذه الطريقةِ بينما يُحبُّها إلى هذا الحد، ولا يستحقُّ أن يُتجاهَلَ حبُّه ويبقى وضعُه طوالَ سنين على ما هو عليه".

***

في الصباحِ زارَها مُعاوية مع أمه، لم تبدُ لي أنَّها تطيق ميسون كثيرًا، سلَّمتْ عليها وخرجتْ إلى الصالةِ متذرعةً بعدمِ احتمالِها للأماكن الضيقة، وهناك ضيَّفتُها شايًا وجلستُ معها، حاولتُ بدءَ حديثٍ عن تقلباتِ الجوِّ الغريبة، لكنَّها أخذتْ الكلامَ إلى منحًى آخر..

"هل هذه البنتُ هكذا مع الجميع أم مع ابني فقط؟"

"عفوًا، لم أفهم قصدَ حضرتِك!"

"هل هي لا مُباليةٌ ومتحجرةُ القلبِ هكذا تجاهَ الجميع؟ تجاهكنّ أنتنّ -صديقاتِها- مثلاً؟ تجاه زملائها في العمل؟ أم أنَّ هذا الموقفَ خاصٌّ لابني وحدَه؟"

"واللهِ يا خالة أنا صديقتُها وأقولُ لكِ الحق؛ ميسون من أطيبِ الناسِ الذين عرفتُهم نفسًا وأجملِهم قلبا.."

"أين هذه النفسُ الطيبةُ من ابني إذن؟ أين هذا القلبُ الجميلُ من حبِّه؟ ألا تراه؟ إذا كانت لا تراه فهي غبية، وإذا كانت تتعامى عنه فما أبغضَها، ليس لأنَّه ابني، ولكن المرأةَ التي تجدُ رجلاً يُحبُّها كلَّ هذا الحبِّ ولا يبالي أن يذهبَ معها إلى آخرِ الدنيا تاركًا كلَّ شيءٍ خلفَه ثم هي تُعلِّقُه ولا تبلُّ ريقَه كلَّ تلك السنين هي امرأةٌ مطموسةُ البصيرةِ عمياءُ القلب.."

"لا أعتقدُ أنَّها تتعامى عنه أو تقصدُ تعليقَه يا خالة"

"ما هذا الذي تفعلُه معه إذن؟ عشرُ سنواتٍ وأنا أراه يتقلَّبُ على جمرِ الحبّ وهي لا ترحم!"

"ما مرَّتْ به لم يكن هيِّنًا"

"مَن منا لم يمرّ بالمصاعبِ ولم تزرِ المصائب قلبه؟ هل هذه ذريعةٌ لتعذيبِ مَن حولَنا والتغاضي عنهم؟"

"أعتقدُ أنَّها تخافُ من فكرة الحبِّ والزواجِ وتكوين أسرة"

"إذا كانت تخافُ فلتقلْ له: "أنا أخاف" وبعدَها ترى إذا كان سيُطمئنُ هذا الخوفَ فتقبلُ به أم لا ينفعُها فيذهبُ كلٌ واحدٍ في طريقِه"

"هذا كلامُ العقل، لكن لا يسعُنا أن نكونَ عقلاءَ طوالَ الوقتِ يا خالة"

"إذا لم يعقِل المرؤ من نفسِه على إخوانِه أن يُعقِّلوه"

"أبشري"

"لا أريدُكِ أن تظني أنني أبغضُها، ميسون هذه قطعةٌ مني، تلقيتُها على ذراعيَّ هاتين عندما وُلدت، أطعمتُها بيديَّ وأحببتُها كأحدِ أبنائي، راقبتُها وهي تكبرُ شيئًا فشيئا، وزاد من حبي لها ما تلقاه من أبيها وإخوتها من ظلم وتعنت خاصةً بعد أن ماتت أمها، لكنَّ ما تفعلُه في ابني حرامٌ وينفطرُ قلبي وأنا أراه يذوي بهذا الحبِّ ويذوبُ سنةً بعدَ سنةٍ وهي لا تأبهُ به. على كلٍّ، لا يكونُ إلا الخير إن شاء الله، نادِه لي إذا سمحتِ".

قمتُ لأناديَه، طرقتُ البابَ الذي كانَ مفتوحًا عن آخرِه، ولأنَّه كانَ مفتوحًا سمعتُهما بمجردِ ما صرتُ عندَه..

قالَ لها: ولكنِّي أُحبُّك!

فقالت له: هذه مشكلتُك وحدك وعليكَ وحدَك حلُّها.

ولم أكن أعرفُ معنى أن يتساقطَ وجهُ رجلٍ حتى رأيتُ وجهَه إثرَ جوابِها؛ اعتراه ذهولٌ أليمٌ وأجزمُ أنَّه خرجَ من هناك مقصومَ القلبِ حتى آخرِ عمرِه، وبعدَ أن غادرَ بكتْ ميسون لثلاثِ ساعاتٍ دونَ توقفٍ حتى انتفخَ قلبُها، ولم تسمحْ لي أن أفتحَ تلك السيرة.

في الليلِ هاتفَني مُحمَّد ليُخبرَني أنَّه قادمٌ ليأخذَني إلى البيت، فأخبرتُه أنني سأبيتُ مع ميسون تلك الليلةَ أيضًا، لم يوافق وقالَ إن حالتَها أصبحتْ مُستقرة وبوسعي أن أزورَها في الغد، وأمامَ رفضِه اتهمتُه للمرةِ الثانية بأنَّه لا يُراعي ما أنا عليه من الحزنِ وأنني كنتُ على وشكِ أن أفقدَ صديقتي، وانتهتِ المُكالمةُ ونحن مُتخاصمَين، وأوجعَ ذلك الخصامُ قلبي.

لماذا يرى الجميع أن النساء فقط هنَّ مَن يُثِرن المتاعب؟ هن مَن يفعلنَ كلَّ شيءٍ بطلوعِ الروح؟ يرضَين بالرجال بطلوع الروح، يتزوجنَهم بطلوع الروح، يرضَين عنهم بطلوع الروح، يلدنَ بطلوع الروح، يُربين بطلوعِ الروح! ماذا عن الرجال؟ هل كلُّ شيءٍ يفعلونه يفعلونه ببساطةِ شرب الماء ودونَ أن يحتاجَ تفكيرًا أو قلقا؟ أُحدثُك عن الزواج مثلا؛ إذا وقعت امرأةٌ في الحب ستسأل نفسَها ألف سؤالٍ قبل أن تعترفَ به، ثم ألفَ سؤالٍ آخر قبل أن تتزوجَ الرجلُ الذي تحبه، هذا يُتعبُها ويُتعبُ من حولَها. ماذا عن الرجل؟ هل يعاني -من حيث كونه رجلاً- صعوبةً في التعامل مع المرأة التي يحبها؟ هل يستهلكُ وقتًا وطاقةً وقلقًا قبلَ أن يُقدمَ على خطوةٍ ما؟

لم تكن تلك مشكلة ميسون فقط في عدم تأكدها من صلاحها كامرأةٍ للرجل الذي أحبها، كانت مشكلة لميس أيضًا، لكن إذا كنت أستطيع عزو تعقيد ميسون تجاه الحب والزواج إلى الطريقة التي لطالما عوملت بها كامرأة على مدار حياتها من كل رجال العائلة فإن لميس لم تكن تعاني أي

إساءات من ذلك النوع، كانت محبوبة جدًّا من والديها، ورغم هذا لم تفلح في الرضا عن رجل ما!

شغلتني لميس كثيرًا في تلك الليلة، كنت قد تلقيت منها اتصالاً هاتفيًّا تسأل فيه عن ميسون وتريد أن تطمئن عليها، ولما كانت ميسون تتظاهر بالنوم حتى لا تكلم أحدًا فقد قضينا قرابة ساعتين نتحدث على الهاتف، كانت هشةً وعاجزةً كما لم أرها من قبل قط، لا تعرف إطلاقًا ما ينبغي عليها فعله، كانت مخطوبةً لرجلٍ لا تستطيعُ أن تتقبله، ولذلك تريد أن تنهي هذه العلاقة المحكومة بالفشل، لكن أهلها غير مقتنعين بأسبابها، بل لا يرون أنَّ عندها أسبابًا أصلاً، سألتُها: لماذا وافقتِ على هذا الرجل إذا كنتِ لم تشعري نحوه بالقبول؟ فانسرب منها دمع كثير وكلام مر.

لقد رغب في خطبتها رجالٌ كثيرون منذ كانت في الجامعة، كلُّهم كانوا يقولون لها: "سأفعلُ كلَّ ما تريدينه"، بينما هي نفسُها لم تكن تعرفُ ما تريدُه، وحين ترفضُ واحدًا يُقسمُ لها أنها لم تعرفْه لترفضَه، ولا يفهمُها حين تقولُ له إنَّها رفضتْه لهذا السبب نفسه؛ أنها لم تستطع التعرف إليه.

لم تشفِها من أسئلتِها كلُّ نصائحِ الصديقاتِ وخبيراتِ العلاقات، كنَّ يقُلن لها: "اتركي نفسَك، اسألي عما تودين معرفتَه، ثم استخيري"، وكانت تُلامُ بعد ذلك كمريضٍ بليدٍ لا يُفلحُ في تطبيقِ وصفتِه العلاجيةِ بينما تُقلِّبُ الأمرَ في رأسها وتُقسمُ أنها فعلت: ربما لا تعرفُ كيف يتركُ المرءُ نفسَه لكنها لم تدخل بحكمٍ مُسبقٍ أو توقُّعاتٍ ما، لم تسأل عن شيءٍ لأنها

تُفضِّلُ الاستماعَ إلى ما يودُّ الآخرُ قولَه عن نفسه، ثم تجدُ بعد أن ينتهي من كلامه أنها لا ترغبُ في السؤال عن شيء، وعندما تسأل اللهَ يحدثُ هذا بالضبط: لا تُريد.

هي لا تقول "لا أريد" للزواج نفسه، وإنما لرجلٍ بعد الآخر، قالت لي وهي تبكي أمس أنها تتمنى أن تجدَ طمأنينتها في رجلٍ ما ولكن ذلك لا يحدث للأسف، وتساءلت كثيرًا: "هل مشاعري مُعطَّلة؟ هل قلبي لا يعمل؟".

خُطبتْ لهذا الرجل لأنهم قالوا لها: "خوضي التجربة وستأتي الأُلفةُ والأمان والحب وكلُّ هذه الأشياء فيما بعد"، وقد فعلتْ ذلك، ليس لأنها اقتنعتْ بما قالوا ولكن لأنها لم تكن تملكُ قناعةً خاصة بخصوص هذا الأمر، والإنسان حينما يفتقدُ قناعةً وموقفًا واضحًا تجاه فكرةٍ ما يشعرُ بالخواء، ويدفعُه هذا الشعورُ إلى محاولةِ ارتداء قناعاتِ الآخرين حتى لو لم تكن على مقاسه. لذلك خاضت التجربة، وبمرور الوقت كان يزداد نفورُها، لا تستطيعُ تصورَ هذا الرجلِ إلى جانبِها على نفس الوسادة، عانت كثيرًا طوالَ ثلاثةِ أشهر حتى انفجرتْ لسببٍ أصابَ أهلَها بالجنون: قال لها وهو يعترفُ لها بحبه أنه لو كان كولومبوس لسمَّى أمريكا باسمها عندما اكتشفَها، لقد ارتكبت خطأً فادحًا عندما قدمتْ لأهلها هذه المقولةَ كسببٍ

لرفضِها الرجل، ولقد أُصيبوا بالجنون فعلاً وراحوا يوبِّخونها كما لم يحدث من قبل، وقال لها أبوها:

"كم شخصًا غيرك في هذا العالم يعرفُ المكتشف الحقيقيَّ لأمريكا؟ أنا نفسي لا أعرفُه، هل أُطلِّقُ أمكِ هذه لأنني أظنُّ -لسوء حظي- أن كريستوفر كولومبوس هو من اكتشف تلك القارة اللعينة؟"

لقد بكت كثيرًا؛ ليس لأنَّ أحدًا لا يفهمُها، بل لأنها هي لا تفهمُ نفسَها، بالطبعِ ليس سبب نفورِها النهائي منه تلك الغلطة، فإنها لو كانت تُريده لغفرت له حتى لو قال أن الشمس تنام تحت سريره، وهذا هو مربطُ الفرس؛ إنها لا تريدُه، ألا يرى مَن حولَها بماذا اهتمت من كلام الرجلِ الذي يعترفُ لها بحبه؟ تركته وحبَّه وانصبَّ تركيزُها على مكتشف أمريكا، ليقل لي أحدٌ ما: إذا لم تُفلح المرأةُ في تمرير خطإٍ في أمريكا لرجلٍ وهو يعترفُ لها بحبه فكيف ستتغاضى عن أخطائه في حقِّها عندما تهدأُ فورةُ العواطفِ وتجفُّ الاعترافاتُ ويتخذُ الحبُّ وضعيةَ فأرٍ في جحر: لا يخرجُ إلا مُضطَّرًا من أجلِ إنقاذِ موقف؟!

لم يكن عليها أن تُحاولَ تلفيق سببٍ لرفضِ رجلٍ لا تحبه ولا تشعرُ بأنَّها قد تُحبُّه، على "لا" في هذا الخصوص أن تُقبَل بلا أسبابٍ وبلا طلباتِ إثبات.

لقد بكينا معًا كثيرًا في تلك الليلة، لم يكن كلُّ بكائي من أجلها في الحقيقة، وإنما كنت أبكي نفسي وأبكي ميسون وليلى وكل ما أُجبرنا على عيشه فقط لأننا نساء!

في ذات الليلة هاتفتني كاميليا يزن من النصف الآخر للكرة الأرضية، قالت إنها ترافق الآن زوجها ويعملان في إغاثة ضحايا الحروب، وبعد يومين من تلك المكالمة سأقرأ خبرًا عن انفجار في المكان الذي تعمل وتقيم فيه، ولأشهر لاحقة لن نسمع صوتها في الهاتف أو خبرًا أكيدًا عنها!

***

صباحًا وجدتْني السيدة مليكة عندَ ميسون أثناءَ زيارتِها، وعندما سلَّمتْني كيسًا كبيرًا أرسلَه مُحمَّد عثرتْ يدي فيه على ورقةٍ مطويةٍ وسطَ عُلبِ الطعامِ الرديء الذي أعدَّه بنفسِه، فهمتُ من إعدادِه ذلك الطعامَ وإرسالِه أبعدَ من الاهتمامِ الذي أرادَ أن يُعبِّرَ عنه؛ أنَّه يعيشُ وقتًا صعبًا في غيابي، حيث أدركتُ أنَّه بهذا الطبخِ السيِّءِ لا بدَّ أنَّه يُعاني، وقد ملأني ذلك إشفاقًا عليه وغضبًا من نفسي، ليس لأنني لم أبتْ في البيتِ ولكن لأنني فعلتُ ذلك دون أن أُطيِّبَ خاطرَه.

عندما أخذتُ عُلبَ الطعامِ إلى المطبخِ ليُمكنَ لي أن أفتحَ رسالةَ مُحمَّد ملأني حنانًا عليه ورغبةً في أن أذهبَ إليه وأدفنَ رأسَه في صدري ونظلَّ كذلك حتى تقومَ الساعة. كانَ يقولُ في تلك الرسالةِ بخطٍّ غيرِ مُنتظم:

(إنني يا رئيفةُ رجلٌ معجونٌ بالخوف، أخافُ من كلِّ شيء؛ من أن أضعُفَ بكِ أمامَك، ومن أن تتقوَّيْ بي عليّ، ومن أن أُديرَ مفتاحي في البابِ بعدَ يومِ عملٍ مُنهكٍ وفظيعٍ فلا أجدكِ خلفَ الباب، أخافُ ألا

تُحبِّيني، وأخافُ ألا تُتاحَ لي الفرصةُ الكافيةُ لأكرهَك، وأخافُ أن تغيبي فجأةً عن هذا البيتِ حيثُ أنا مزروعٌ في مكاني مثلَ نبتةِ شوك، أخافُ أن تُمكني لي وأنا بكلِّ هذا القبح، وأخافُ ألا تُمكني لي وأنا رجلٌ حزين.

ماذا أقولُ لكِ؟ أخافُ ألا تطبخي لي، وألا تُمسِّدي ملابسي الحزينةَ بيديكِ الطيبتين، وألا تغسليني آخرَ الليلِ من كآبتي وهمومي. إنَّ الرجلَ يا رئيفةُ كائنٌ هشٌّ وضعيف، صحيحٌ أنَّ بإمكانِه خارجَ البيتِ أن يُصارعَ ويُصارعَ من أجلِ البقاء، من أجلِ لقمةِ العيشِ ومن أجلِ الكرامة، وهذا ما تقتضيه الحياةُ على كلِّ حال، لكنَّه يودُّ دائمًا أن يعودَ إلى البيتِ سريعًا ليتحولَ إلى قطٍّ أليفٍ تمسحُ امرأتُه على رأسِه. أنا هذا الرجلُ الهشُّ بدونِكِ يا رئيفة، حتى إنَّني سأبكي إذا رفعتُ وجهي عن هذه الورقةِ الآن ولم أجدكِ جالسةً على الأريكةِ تعبثين بكرةِ الصوفِ وتنظرين إليَّ!).

أردتُ أن أعودَ إلى البيتِ في أقلَّ من طرفةِ عين، لكنني لم أكنْ عفريتةً من الجنِّ كما كان يُشاكسُني بهذا النعت.

***

(15)

عندما أوشكَ أن يمرَّ على زواجِنا شهران تلقَّى مُحمَّد بريدًا إليكترونيًّا من جامعة كامبريدج البريطانية يُوافقونَ فيها على الطلبِ الذي قدَّمه منذ أسابيع للحصولِ على منحةِ الدكتوراة من هناك، وطوالَ عشرةِ أيامٍ كانَ يترددُ من جامعةِ القاهرة إلى السفارةِ البريطانيَّة والعديد من المصالحِ الحكومية الغارقةِ في رتابةِ الروتين ليُنهيَ إجراءاتِ سفرِه، ولأنَّه لم يكن يملكُ ما يكفي من المالِ لتسييرِ أمورِنا في الغربةِ فقد وجدَ مُشتريًا للبيتِ في خلالِ ثلاثةِ أيَّامٍ وباعَه إياهُ على أن يُمهلَه إلى آخرِ الشهرِ حتى نتركَه له، واتفقنا أن يُسافرَ أولاً وحدَه ويُدبِّرَ سكنًا هناك ثمَّ ألحقَ به متى ما استقرتْ له الأمور، وتوقعْنا أن تستقرَّ له في خلالِ أسبوعين على الأكثر.

وفي صباحِ يومِ الثلاثاء 13 سبتمبر 118 ودَّعني مُحمَّد في بيتِنا قبلَ أن يخرجَ مع حقيبةِ سفرِه، رفضَ أن أُرافقَه إلى المطار قلقًا من أن أعودَ وحدي وكانت تلك آخرَ مرةٍ أراه فيها؛ إذ كانَ من المُفترضِ أن يُهاتفَني في ذلك اليومِ فورَ أن تهبطَ الطائرة في لندن ولكنَّه لم يفعل، ومرَّت ثلاثونَ ساعةً دونَ أيِّ خبرٍ منه ودونَ أن أستطيعَ التواصلَ معه، وفي ظهر اليوم التالي لم أستطع المكوث في البيتِ أكثر، فحملتُ حقيبةً صغيرة وذهبتُ إلى شقة العباسية، وهناك بكيتُ في حِضنِ ميسون كما لم أبكِ من قبل، كانت تُواسيني قائلةً إنَّ الأمرَ يستحقُّ القلق ولكن ليس إلى حدِّ البكاءِ

بكلِّ هذا الانفطار في القلب، وأنَّه قد يكونُ أضاعَ هاتفَه أو حصلَ له أي ظرفٍ منعه من الاتصال، وعندما أفكرُ في كلامِها هذا الآن أجدُ فيه من سلامةِ المنطق والتعقُّل شيئًا كثيرًا، لكنني أعرفُ أنني لم أكن أبكي بالعقلِ ولا بالمنطق، وإنما بشعوري أنَّ غيابَ مُحمَّد ليس لظرفٍ طبيعي، ساعتَها كان قلبي ينقبضُ ويضيقُ كأنَّ قبضةً هائلةً تعتصرُه، وكنتُ أُحسُّ أن الرجلَ الذي أحببتُه بكلِّ كياني قد أُخذَ مني، الإنسان الوحيد الذي أصبحَ عائلتي بعدَ أن لم تكن لي عائلةٌ اختفى فجأةً وسُلبتْ مني سعادتي الوليدة، وكانَ هذا الإحساسُ مجهولَ الأسبابِ لا يستندُ على حقائقَ واضحة أو أخبارٍ عنه، حتى ماتت السيدة مليكة فجأة فارتفع منسوب الخوفِ في قلبي حتى صارَ يهدرُ من عينيَّ، وتيقنتُ أنَّني أُسلَبُ كلَّ شيءٍ فجأةً ودفعةً واحدة، وأن بساطَ الأيامِ السعيدةِ يُسحبُ من تحتي.

في أولِ ثلاثة أشهر واظبتُ على الكتابةِ إليه على بريدِه الإليكتروني آملةً أن يُتاحَ له في وقتٍ ما، بعد أسبوعٍ أو شهرٍ أو شهرين، أن يفتحَ بريدَه فيجدَ رسائلي، لكنني سقطتُّ في هوةِ يأسٍ سحيقةٍ بعدَ ثلاثة أشهر فتوقفتُ عن تركِ خوفي ولهفتي ويأسي وجنوني في بريدِه، واكتفيتُ بالبحثِ عنه والذي لم أكتفِ منه حتى الآن.

بدأتُ من مطارِ القاهرة، ولأنَّ لليلى قريبًا طيَّارًا تمكَّن من مساعدتِنا عرفتُ أنَّ زوجي لم يُسافرْ على متنِ الطائرة المتجهة إلى لندن، رغمَ أنَّ

اسمَه موجودٌ في سجلاتِ فحصِ الجوازات، أي أنَّه لم يخرج من مصر، وقبضت هذه المعلومةُ قلبي؛ خرجَ مُحمَّد في ذلك الصباح ليُسافرَ إلى حُلمٍ طويلاً ما حلُمَ به، كانت تلتمعُ عيناه وهو يُحدثُني عنه، يبتسمُ ابتسامةً حالمةً مثلَ طفلٍ صغيرٍ وهو يُخبرُني بخطتِه الدراسية عندما يُقبلُ طلبُ منحتِه، وعندما تلقى رسالةَ القبولِ تحولَ فعليًّا إلى طفلٍ وهو يترددُ بين جامعتِه والسفارة البريطانية بحماسٍ ليُنجزَ الإجراءات المطلوبة. صبيحة يوم الثلاثاء، آخرَ مرةٍ رأيتُه فيها، كنتُ أُعانقُه طويلاً ولا أريدُ أن ينفكَّ ذلك العناقُ أبدًا، لكنَّه كانَ يُرسلُني من حِضنِه لينظرَ في عينيَّ دونَ أن يقول شيئًا، كانت نظرتُه مختلفة في تلك المرة، كأنَّه كان يُريدُ أن ينفذَ إلى روحي من عينيّ، تذكرتُ ساعتَها عندما قالَ لي:

"عيناكِ هما مجازي إلى وطني الحقيقي"

"ما وطنُكَ الحقيقي؟"

"روحك"

"هل يندرجُ هذا تحتَ تأنُّق لغةِ الروائي واشتعالِ استعاراتِه؟"

"دعكِ الآن من الروائيّ والجحيم، لستُ سوى هذا الرجلِ الذي كان وحيدًا فوجد فيك أكثر مما كان يأمله من الأنس. تعرفين عندما تلتقي عينانا يا رئيفة أشعرُ أنني إذا أطلتُ النظرَ أكثر سأمرُّ منهما إلى روحِك، وهناك سأُمسكُ فيكِ ولن أودَّ الخروج أبدًا"

"آملُ ألا تملّ بعدَ مزيدٍ من أوقاتِنا معًا، فلقد قالَ الرافعي:

(ومتى تزوَّجَ الرجلُ بمَن يُحبُّها انتُهكَ له حجابُ أنوثتِها فبَطُلَ أن يكونَ فيها سر، وعادتْ له غيرَ مَن كانت)!"

"إنني أُحبُّك؛ ليس كما يُحبُّ أيُّ رجلٍ امرأةً جذبه فيها شيءٌ ما، حبي لكِ غريبٌ عليّ، استوثقتُ منه عندما وجدتُني أقولُ لنفسي: "أُريدُ أن أسكنَ هذه المرأةَ إلى الأبد"، لا أن أسكنَ قلبكِ كشعورٍ وأكونَ فكرةً في رأسِك، بل أن أسكنَكِ حتى لا يبقى لي وجودٌ خارجَك، أن أكونَ أنا وأنتِ إنسانًا واحدًا فكأننا كُنَّا هكذا منذ بدء الخلق، ألا يُقالَ بعدَ الآن: "راحَ مُحمَّد، جاءَ مُحمَّد، قالت رئيفة، فعلت رئيفة"، أن نكون شيئًا واحدًا لا اثنين، فلا يكون لأحدِنا ذكرٌ دونَ الآخر، ولا فكرٌ يستقلُّ به عن وعيِ صاحبِه، ولا ألمٌ حسيٌّ يُصيبُكِ في مكانٍ دونَ أن أعرفَ عنه لأنني بعيدٌ عنك. في البعدِ عنكِ أشعرُ بأنني عارٍ تحتَ المطرِ في مُنتصفِ العالم؛ حيث لا بيتَ لأدقَّ بابه ولا مظلةَ لأقفَ تحتَها. عندما بتِّ مع صديقتِك تينَك الليلتين حاصرتْني الثقوب، لمَّا رجعتُ إلى البيتِ وحدي وأغلقتُ البابَ ووجدتُني أعودُ وحيدًا بعدَ ثلاثين يومًا تعودتُ فيها أن أضعَ رأسي في حجرِك كلَّ ليلةٍ، رأيتُ الثقبَ في قلبي، نظرتُ إليه وتفحَّصتُه، كانَ غائرًا ويُفضي إلى مكانٍ لا أراه، وكان سلامي الداخلي يتسربُ منه بخفةٍ سريعةٍ وقابضةٍ وحزينة، وبعدَ منتصفِ الليلِ كانَ عليَّ أن أحشوَ قمصاني تحتَ البابِ لأسدَّ فراغًا فجائيًّا بدأ كبيرًا بشكلٍ مُريع، منامتي البيتيةُ أيضًا كانَ فيها خرقٌ في الظهرِ لم يكن ليسمحَ به وجودُك، ثقوبٌ في كلِّ مكان، وأنا لم أكن أفعلُ

شيئًا إلا محاولة سدِّ الفجواتِ اللعينة، هل تُدركين مدى فظاعةِ ما يُخلِّفه غيابُك؟"

"لقد اتفقنا ضمنيًّا منذ أولِ لقاءٍ أنَّكِ تسُدِّين الثقبَ في قلبي وأنا أسدُّ الثقبَ في رأسِك، تذكرين عندما قلتِ لصديقتِك ذلك اليوم: "أحيانًا يُفلتُ منِّي دماغي بشكلٍ نَزِق، عندما أحتاجُ رجلاً فسيكونُ احتياجي إلى رجلٍ يردُّه إليَّ دونَ أن أكسرَه"؟ لا تنظري هكذا، نعم سمعتُك، لذلك لم تكن أولُ مرةٍ أسمعُ فيها صوتَكِ -كما تعتقدين- عندما كنتِ تُجادلين تلك المُراهِقةَ كبائعةِ كتبٍ تُريدُ للكتبِ الجيدةِ أن تُنقذَ العالم، بل قبلَها بدقائق عندما كنتِ تتحدثين إلى صديقتِك. كان من الرائعِ أن تُرى امرأةٌ ذكيةٌ وكبيرةٌ تعترفُ بالثقبِ في رأسِها وأنَّ دماغَها يُفلتُ منها أحيانًا عبرَ هذا الثقب، وكنتِ ذكيةً وكبيرة، وكنتِ تعترفين بأسلوبٍ جعلَ هذا النقصَ فيكِ جميلاً وشهيًّا إلى حدٍّ لا يُقاوَم، سمعتُك، وعرفتُ منذ تلك اللحظةِ أنَّكِ الملءُ المُناسبُ تمامًا لنوعِ الثقبِ في قلبي، وفي كلِّ مرةٍ كانَ يُفلتُ فيها دماغُكِ فيما بعدُ كنتِ تنظرين إليَّ بتوسُّلٍ وأنا أُحاولُ -بمنسوبٍ مُختلفٍ من الغضبِ في كلِّ مرةٍ- أن أردَّه، ماذا حدثَ في تلك المرةِ حتى أدركتُ فجأةً أنني كسرتُ هذا الدماغَ العزيزَ دونَ قصد؟

إنكِ لا تعرفين يا رئيفة كيف يفزعُ رجلٌ عندما يكتشفُ رجولتَه غيرَ الكاملةِ إثرَ ذهابِ زوجتِه، رجولتَه التي تُمسي مليئةً بالثقوبِ فجأة، إنَّ هذه الرجولةَ لم تنقص حينما فشلتُ تينَكَ الليلتين في أن أُعدَّ لنفسي فنجانَ

قهوةٍ -عوضًا عن الشاي الذي كنتُ أرى في إعدادِه بنفسي خيانةً لك- دونَ أن يفورَ على الموقد، ولا في أن أُعدَّ لنفسي وجبةً مُشبعةً دونَ أن أُحدثَ جرحًا قطعيًّا في إبهامِ يدي اليسرى، هذا النقصانُ يا رئيفة لم يأكلْني إلا حينما لم نبِتْ على وسادةٍ واحدة؛ تنخرقُ رجولةُ الرجلِ فجأةً عندما يتوقفُ عن منحِ الأمانِ للمرأةِ التي يُحبُّها حتى تُغمضَ عينيها بسلام، وأنتِ أغمضتِ عينيكِ أو لم تُغمضيهما في مكانٍ آخر، حيث لم يكنْ بإمكانِ وجودي أن يكونَ إلى جوارِك ويُمارسَ مفعولَه.

عزيزتي يا رئيفة؛ أستطيعُ أن أحتملَ ألفَ خلافٍ بيننا، أقدرُ على أن أتحملَ أيَّ شيءٍ سوى أن تذهبي أو ألا نكونَ معًا تحتَ سقفٍ واحد، هذا لأنني أخاف، رغمَ أنني عشتُ سنين طويلةً وحدي قبلَكِ لكنني أخافُ غيابَكِ إلى حدٍّ مُرعب، أخافُ أن تأتيَ فاتورةُ الغازِ وأنتِ غائبة، أو أن تطرقَ البابَ جارتُنا العجوزُ لنُمرِّرَ لها الخيطَ في ثقبِ الإبرةِ فتكتشفَ عدمَ وجودِك، أو أن تُمطرَ الدنيا في الخارجِ فجأةً وأنتِ لستِ هنا، أو أن أذهبَ إلى عملي فينتبهَ جميعُ الموظفين والساعي ورئيسُ القسمِ والعميدُ والطُّلابُ أنني رجلٌ نيِّئٌ وحزين، أو أن أُديرَ مفتاحي في البابِ آخرَ اليومِ فلا أجدَكِ خلفَ الباب، أو أن أنظرَ إلى أريكتِك المُفضَّلة فلا أجدَكِ هناك تعبثين بكرةِ الصوفِ وتنظرين إليّ، أحتاجُ دائمًا أن تنظري إليَّ لأبدوَ لنفسي حقيقيًّا ومُستساغًا.

عزيزتي يا رئيفة؛ اعرفي بعدَ الآن أنكِ إن ذهبتِ تركتِ خلفَكِ رجلاً تسدِّين الثقبَ في قلبه، فلا تتركيني يومًا أتسرب من هذا الثقبِ بسرعةٍ وفظاعة!"

"لستُ ذاهبةً إلى مكانٍ ما، سنكونُ معًا إلى الأبد، ليس أمامَ أيٍّ منا خيارٌ آخر"

قلتُ وأنا أمسحُ دموعي بكفيّ.

***

هذا بالضبط ما يحدثُ منذ أن اختفى ذلك اليوم؛ سيلانٌ لا يتوقفُ لذاكرةِ المواقفِ بيننا، ورجوعٌ مُتكررٌ إلى المُحادثاتِ القديمةِ والرسائل الإليكترونية والمُلاحظاتِ التي كان يكتبُها على هوامشِ صفحاتِ الكتبِ التي كانَ يُمرِّرُها إليَّ كأننا كنا معًا جمعيةَ إنقاذِ العالمِ بالكتبِ الجيِّدة، حسرةٌ تُجدِّدُ نفسَها في كلِّ يومٍ حتى لا تقلَّ ودموعٌ كثيرةٌ وحرَّاقة.

من مشفًى إلى مشفًى ومن قسمِ شرطةٍ إلى آخرَ كنتُ أجرُّ نفسي مثلَ غرضٍ بالٍ وعتيق، أقولُ لهذا المدير: "رجلٌ ليس له عائلةٌ سواي في هذا العالمِ يا سيِّد"، وأقولُ لذلك الرقيب: "هل أخذتُم رجلاً طويلاً عندَه ثقبٌ في قلبِه كنتُ أُغلقُه بوجودي يا أيُّها الباشا؟ هل أخذتموه؟"، ولم يقلْ لي أحدٌ "نعم".

كيف بإمكانِ هذا البلدِ أن يكونَ قاتلاً باردًا إلى هذا الحدّ؟ لقد أخذَه مني وأنكرَ وجودَه، في المطاراتِ كانوا يقولون لي بنفادِ صبر: "زوجُكِ لم

يخرجْ من مصرَ أيَّتُها السيِّدة"، وفي الأقسامِ يقولون بلا مُبالاة: "لا نعرفُ عنه شيئا"، ومرةً أمعنَ الرقيبُ العام في قهري ودهسِ جرحي المفتوحِ وقالَ لي: "هل كانَ في هذا البلدِ رجلٌ اسمُه مُحمَّد فريد إسلام؟ أنتِ مُخطئةٌ يا سيدة؛ لم يكنْ هناكَ يومًا رجلٌ بهذا الاسم، اذهبي إلى بيتِكِ ونامي جيِّدًا لتمسحي هذه الأوهامَ من رأسِك، تناولي حبةَ دواءٍ لعلاجِ هذا الانتفاخ في بطنِك، ولا تذكري هذا الاسمَ مرةً أخرى"!

وعندما سمعتْ أختي هِندة –التي كانت قد عادت في ذلك الوقت– ما قالَه قالتْ لي وهي تزعقُ وتُهدِّدُني:

"ماذا قلتُ لك؟ ألم أقلْ ستنزعين هذا الوهمَ من رأسِك وتعودين إلى رشدِك يا رئيفة؟ ألم أقلْ لن تدوري على المشافي وأقسامِ الشرطةِ بعدَ الآن لتبحثي مثلَ مجنونةٍ عن رجلٍ ليس له وجود؟ لماذا لا تسمعين الكلام؟ هل عليَّ أن أُمسكَ في يدي عصا خيزران لتفعلي؟".

نفضتْ جسمي سيرةُ عصا الخيزران، وكانَ عليَّ أن أكتمَ قهري في حلقي مثلَ شوكةٍ عالقةٍ بالعرضِ وألا أُحاولَ أن أقيئه.

لم يكنْ مُحمَّدٌ شعرةً وقعتْ من رمشي أو غرضًا صغيرًا ليس له صاحب! يا إلهي؛ مَن عليَّ أن أسألَ في هذا البلدِ عن رجلٍ بطولِ البابِ له اسمٌ وجسمٌ وحكاية؟

***

(16)

في اللحظة الأولى التي عرفتُ فيها أنني حاملٌ انتابني شعورٌ غريبٌ لا يُقاوم. كنتُ قد انتقلتُ لبيتي الخاص، الشقةِ التي استأجرتُها في إحدى العماراتِ السكنية بوسطِ البلد، وكنتُ قبلَها، وعلى مدار أكثر من شهرين، أشعر بجسدي يثقلُ شيئًا فشيئًا، ليس في الوزن، ولكن كان ثقلاً من نوعٍ آخر، كنتُ أشعرُ أن ثمةَ شيئًا غريبًا ينمو في داخلي، وقد أخذ ذلك الشعور يتطورُ مع الوقت حتى اعتقدتُ أنني مسكونة، وأخافني ذلك الاعتقاد جدًّا خصوصًا عندما فكرتُ أنَّه كما يسكنُ الجنُّ البيوتَ التي هجرها أصحابُها بات يسكنُني جنيٌّ أو أكثر بعد إذ هجرني مُحمَّد.

هل هجرني مُحمَّد؟ لا أعرف، كلُّ ما أعرفُه أنه اختفى من عالمي فجأة، دفعةً واحدة، ودون مُقدِّمات. وقد خلَّف اختفاؤه المُفاجئ والغامضُ تشوُّشًا ورغبةً في الانتقامِ من العالمِ بطريقةٍ تُلحقُ به خسائرَ فادحة، كنتُ لفرطِ ما أنا فيه من الغمِّ والصدمةِ امرأةً حمقاء تظنُّ أن بإمكانِها، بنحولِها والهالاتِ السوداء تحتَ عينيها وضعفِها الجسديّ العام، أن تُلحقَ ضررًا بالعالمِ لأنَّه سلبَها عائلتَها ودفءَ بيتِها.

في عصرِ الرابع من ديسمبر (ما زلتُ أذكرُ التاريخَ جيِّدًا) كنتُ جالسةً إلى مكتبي أُحاولُ الانتهاءَ من ترجمةٍ كنتُ أعملُ عليها منذ ثلاثةِ أيامٍ دونَ

تركيز، توقفتُ عن التحديقِ في شاشةِ الحاسوبِ وقمتُ فجأةً وارتديتُ ملابسي على عجلٍ كيفما اتفق لي وخرجتُ من الشقَّة، وفي الصيدليةِ التي تقعُ في الشارعِ الذي كنتُ أسكنُ فيه طلبتُ من رجلٍ يناهزُ الخمسين من العمرِ اختبارَ حملٍ بكلِّ ما يُمكنُ لامرأةٍ من رعشةٍ في الصوتِ وترقُّبٍ ومشاعرَ مُلتبسة، ولأوقاتٍ مديدةٍ سأذكرُ ابتسامتَه الطيبة وهو يمدُّه لي في كيسٍ صغيرٍ ويقولُ لي: "لا تقلقي؛ ليس في هذه الحياةِ شيءٌ أجملُ من أن تحظَي بابنٍ صغيرٍ شاركتِ بالنصفِ في تكوينه"!

بعدَ عشرِ دقائق كانَ بوسعي أن أُدوِّرَ كلمتَه في بالي وأتأمَّلَها وأنا أُحدِّقُ في الشرطتَين الحمراوين في شريط الاختبار، كان ذلك كبيرًا وعصيًّا على الاستيعاب، لقد اكتشفتُ فجأةً أنني امرأةٌ كبيرةٌ إلى درجةِ أن أحملَ في بطني جنينًا شاركتُ بالنصفِ فيه، ذلك الكيسِ العضليِّ الذي لم يكن يُشعرُني بوجودِه إلا مرةً كلَّ شهرٍ بالنزيفِ والألمِ واعتكارِ المزاجِ صارَ الآن سيِّدَ الصورةِ والمايسترو لجوقةِ الجسدِ التي كانت منتظمةً إلى حدٍّ كبيرٍ قبلَه، صارَ المايسترو وينوي التسببَ في فوضى، حتى أنَّه بدأ بالفعل.

ما الذي تفعلُه الأمومةُ في الأنثى؟ إنها تقعُ في الحبِّ ولا تشعر، تعترفُ بالحبِّ ولا تشعر، تضعُ خاتمًا في بنصرِها ولا تشعر، تدخلُ بيتَ الرجلِ وتنقلُ حياتَها إلى جوارِه وتضعُ ملابسَها إلى جانبِ ملابسِه في الخزانةِ وتعلَقُ رائحتُه بجلدِها وتُرتبُ سريرَه كلَّ صباحٍ ويتقاسمان اللقمةَ والنومةَ والنَّفسَ، ولا تشعر في كلِّ ذلك إلا أنَّها بنتٌ وقعتْ في الحبِّ

فسارتْ خلفَه مثلَ المُنوَّمةِ لا تُدركُ كيف تتغيَّرُ حياتُها ولا متى، ربما لأنَّ الحبَّ هو نفسُه هذه الدهشةُ التي تُذهلُ الإنسانَ عما يجري له، لكنَّها متى ما رأتْ شرطتَين على شريطِ اختبارِ الحملِ شهقتْ وقالتْ: يا إلهي! متى صرتُ امرأةً وحملتُ طفلاً في جسمي!

الأمومةُ إذن هي تلك المُفاجأةُ التي توقظُ الأنثى من ذهولِها بالحبِّ وتقولُ لها: أفيقي؛ لقد صرتِ امرأة، والحبُّ الذي ركضتِ خلفَه مثلَ المجذوبةِ فتزوجتِ هذا الرجلَ فقط لتبقَي بقربِه دونَ أن تفكري تمامًا في المعاني الكاملةِ لهذا القربِ هو شيءٌ كهذا الذي ترَين؛ أن تُشاركي بالنصفِ في طفلٍ تحملينَه في بطنِك ثم تخرجيه حتى يراه العالمُ فيقول: "هذا ابنُ فلانٍ وفلانة"، وهو يعني: "هذا ما نتجَ عن تفاعلِ فلانٍ وفلانةٍ معا"!

عندما عرفتُ بحملي فهمتُ على نحوٍ دقيقٍ ما تعنيه العلاقةُ بين الرجالِ والنساء، ما يعنيه ميلُ رجلٍ إلى امرأةٍ وميلُ امرأةٍ إلى رجلٍ كأنَّهما أحدُ تكراراتِ سيِّدِنا آدمَ وسيِّدتِنا حوَّاءَ عندما استيقظَ من نومِه ووجدَها إلى جانبِه وقد خرجتْ من ضلعِه، الكائنَ الوحيدَ الذي يُشبهُه في تلك الجنة، وهو كانَ الكائنَ الوحيدَ الذي تعرفُه، فمال كلٌّ منهما إلى الآخرِ وكانا معًا في الغوايةِ والطردِ والغفرانِ وبدءِ الإنسانية، لم يكنْ لينفعَه كائنٌ آخر سواها ولم تكن لتأمَن سواه، هكذا بدأنا وهكذا ينبغي دائمًا أن نستمرّ، فهمتُ ذلك عمليًا، عرفتُ كيف يُنجبُ الأطفالُ إلى هذه الحياةِ ولكنني ازددتُ

جهلاً وعجزًا عن استيعابِ الكيفيةِ التي تقدرُ بها بعضُ النساءِ أن يحملنَ الأطفالَ من رجالٍ لا يُحبِبْنَهم أو لا يَجِدْن فيهم على الأقلّ شيئًا واحدًا تُحبُّه قلوبُهن، من رجالٍ يكرهنهم تمامًا أو يحتقرنَهم أو يعشن معهم بسببِ الخوفِ أو الحاجة!

أعادتِ الأمومةُ تشكيلي من جديد، أصبحتُ إنسانةً جديدةً كُلّيا، تغيرتْ نظرتي لكلّ شيءٍ حتى أنني صرتُ شخصًا آخرَ في كلّ علاقةٍ كنتُ طرفًا فيها، لم يعُدْ مُحمَّد الرجلَ الذي أحببتُه فقط، ولم أعدْ فقط تلك البنتَ الصغيرة التي كانت تريدُ أن تظلّ مُلتصقةً به طوالَ الوقت، صرنا أنا وهو هكذا؛ رجلاً وامرأةً تقابلا وتبادلا قلبَيهما فقالَ لها: "تعالَي أقلْ لكِ سرًّا" فقالتْ له: "قُلْ". ثم أخرجا للعالمِ ذلك السرَّ كإنسانٍ جديد، إنسان ليس أباه وحدَه ولا أمَّه وحدَها، وإنما نصفُ هذا مع نصفِ تلك.

لم أعُد تلك البنت الضعيفة والخائفة والمُنكمشة أمامَ أختِها الكبرى، فورَ أن علمتُ بحملي جمعتُ أغراضَ أختي هِندة وقلتُ لها حاسمةً وصارمةً وقوية: "من الآن فصاعدًا ستعيشين في القبو، ولن تخرجي دونَ أن أئذن لكِ"، كففتُ عن الارتجافِ متى ما زعقتْ فيَّ أو ذكَّرتْني بما كنتُ أهلعُ منه في طفولتي، توقفتُ عن كوني رئيفةَ القديمة التي تستطيعُ عصا الماضي المليء بالأسى والخوفِ أن تُرهبَها وتُحوِّلَها إلى قطةٍ أليفةٍ ومُطيعةٍ تتمسَّحُ في صاحبتِها لتتوسلَها العطفَ والرحمة.

منحني الحملُ القدرةَ على تقليصِ الدمعِ والحسرة، صحيحٌ أنني لم أتوقف تمامًا عن البكاءِ لكنني اختصرتُه إلى حدِّه الأدنى، الحدِّ الذي لا

يُمكنُ لامرأةٍ مفجوعةٍ في رجلٍ مثلَ مُحمَّدٍ أن تبكيَ أقلَّ منه. كنتُ أقولُ لنفسي إنَّه لا بدَّ سيظهرُ يومًا ما ليرى ما تركَه فيَّ قبلَ أن يختفي، وكنتُ أُحاربُ به إصرارَ أختي هِندة على أنَّه مجرَّدِ أوهامٍ في رأسي؛ إذ لا يستطيعُ الوهمُ أن يزرعَ طفلاً في رحمِ امرأة، ومع ذلك لم أخبرْها بحملي، لم أرد أن يكونَ طفلي تحتَ خطرِ جنونِ خالتِه ورغبتِها المريضةِ في إثباتِ أنها دائمًا على صوابٍ مهما كانت الوسائلُ التي تتبعُها من أجلِ هذا، وقد فعلت هذا من قبلُ فأخفتْ مني وثيقة الزواجِ لئلا تدعَ في يدي دليلاً واحدًا على ما أقول.

منذ اليومِ الأولِ لمعرفتي بالطفلِ النائمِ فيَّ مثلَ بذرةٍ صغيرةٍ بدأتُ أقرأ كلَّ ما تصلُ إليه يدي عن الحملِ والأمومة، توقفتُ عن السهرِ وامتنعتُ تمامًا عن تناولِ الوجباتِ السريعةِ وشربِ المياه الغازيّة، وبطبيعةِ الحالِ توقفتُ عن تناولِ أدويةِ الاكتئابِ والأرق، بل توقفتُ عن زيارةِ الطبيبِ النفسيِّ أيضًا عندما قرأتُ ملاحظةً كتبها لي على ظهرِ التذكرةِ الطبية كرئيفةَ المرأةَ التي سمعَ قصتَها لا كمريضةٍ عندَه، صارتْ وجباتي أكثرَ توازنًا وانتظامًا، وتوقفتُ عن تركِ نفسي أنجرفُ في مجرى الكآبةِ عندما قرأتُ أنَّ الطفلَ يشعرُ بكلِّ ما تشعرُ به أمُّه ويتأثرُ به، لم أرد أن يحزنَ طفلي وهو ما زالَ جنينًا؛ ستفعلُ الحياةُ ذلك فيما بعدُ بصورةٍ أشدَّ كثافة.

شيئًا فشيئًا كانَ وجودُه يتجذَّرُ في يومي أكثر، أصبحَ أوّلَ من أُسلِّمُ عليه فورَ أن أستيقظَ صباحًا، ووجدتُ أخيرًا أحدًا أقولُ له "تُصبح على خير" منذ أن اختفى مُحمَّد، صارَ أكثرَ مَن أُكلِّمُه، كنتُ أُكلِّمُه وأنا آكل، وأنا أقرأ، وأنا أعمل، وأنا أكنسُ البيتَ أو أغسلُ الأطباقَ أو أطبخ. في الشهرِ الرابعِ بدأتُ أقرأ له عندما أخبرتْني طبيبتي أنَّه سيُحسُّ بي وسيسمعُني وسأبني معه جسرَ تواصلٍ متينٍ بهذه الطريقة قبلَ أن يُولد، قرأتُ له القرآنَ والسيرةَ ومقتطفاتٍ من التفاسير وعبقرياتِ العقَّادِ وفصولاً من تاريخِ الخلفاءِ الراشدين وروايةَ صاحبِ الظلِّ الطويلِ والكثيرَ من الشعرِ الأندلسي والحديث، ولولا أنَّ ما كانَ بقيَ من مدةِ الحملِ لم يكن أكثرَ من خمسةِ أشهرٍ لقرأتُ له أكثرَ قبلَ أن أراه.

أشياءُ لا تنسَى بيني وبينَه، عندما كانَ جزءًا مني، جعلتْني امرأةً أخرى؛ أوّلُ ركلةٍ له، أولُ صورةٍ بجهازِ الأشعة التليفزيونية، اللحظةُ التي عرفتُ فيها أنني سأحظى بابنٍ ذكر، واللحظةُ التي نطقتُ فيها اسمَه للمرةِ الأولى في الشهرِ السادسِ من الحمل وأنا أقولُ له: "على اسمِكَ أن يكونَ "حَيَّان"، ففي الوقتِ الذي أشكُّ فيه أنني وأباكَ كنَّا حَيَّيْن وحقيقيَّين يومًا ما ستكونُ صيغةُ المُبالغةِ من "حيّ" هي أكثرُ الأسماءِ جمالاً عليك"، الأحلامُ الكثيرةُ التي كانت بيننا، الجواربُ والقمصانُ التي صنعتُها من أجلِه وأنا أحكي له عن أبيه؛ عن مشيتِه المنتظمة ونظرتِه الآسرةِ وصوتِه الذي تسكنُه العصافير، كيف تعرَّفْنا وكيف تبادلْنا الحبَّ في صمتٍ خائفٍ وتبادلْنا معَه الوجلَ

والرهبةَ لشهورٍ قبلَ أن نعترف، كيف اتخذنا قرارَ الزواجِ ونفذناه خلالَ خمسِ ساعات، كيف كنا نختلف، كيف كان يغضبُ وكيف كنتُ أخافه خوفًا هو اكتمال لذة الحب.

أحكي له كيف كنتُ مع أبيه تلك المرأةَ وكيف كان لي ذلك الرجلَ المحبوبَ والمُهاب، وكيف مع كلّ حشدي لقوتي أمامَ الدنيا لم أكنْ أُحبُّ معه إلا أن أكون على ضعفي كلِّه ليُطمئنَ ضعفي كلَّه، وكيف على ما كانَ فيه من الصلابةِ والقوةِ يسكب ضعفَه عندي دون أن يُنقصَ ذلك شيئًا من نظرتي إليه كرجلٍ قوي. كيف كانت علاقتُنا مُعقَّدة؛ كنتُ المرأةَ التي يُحبُّها ويحنُّ إليها ويغضبَ منها ويقولَ لها: "أريدُ أن أسكنَكِ فلا أخرجَ من هناك إلى الأبد"، ويتأملُها بعينيه اللتين تلتمعُ فيهما روحُه ويقولُ لها: "إنني يا رئيفةُ رجلٌ معجونٌ بالخوف"، ثم يُخيفُها أحيانًا قائلاً: "لم أنسَ ذلك وسأُحاسبُكِ عليه فيما بعد"، وكيف كانَ الرجلَ الذي أصبحَ كلَّ عائلتها وكانت تُريدُ أن يُنشئا معًا قبيلةً ووطنًا؛ أن تُنجبَ منه إنسانيةً بديلةً وأن يؤثِّثا معًا عالمًا جديدًا من بيوتِ الشجرِ والكتبِ الجيدةِ واحتساءِ الشايِ في المساءاتِ السعيدة.

هكذا كانت علاقتي بطفلي منذ أن عرفتُه. وهكذا مرت شهورُ الحملِ في نشاطٍ منه وحرصٍ مني على مراعاتِه في كلِّ ما أفعل، حتى أنني أرجأتُ كتابةَ هذه الحكايةَ كما كنتُ وعدتُ مُحمَّدًا لأنَّ الكتابةَ عن كلِّ تلك الأحداثِ والمآسي كانت لتؤلمَني وأنا أستعيدُ كلَّ تلك الكوارثَ وأتأملُ في

ذاكرتي وجوهَ مَن رحلوا، وكانَ هذا ليُؤثرَ على جنيني ولا شكّ، ولم أكن أُريدُ منه أن يتناولَ فيما يتناولُ من حبلِنا السُّريِّ كلَّ هذا الحزنِ الثقيل، ولم تمنحني أمومتي تلك المساحةَ النفسيّة والضميريّة اللازمة للكتابةِ إلا وهو في الرابعةِ من عمرِه.

***

عندما حددتْ لي طبيبتي موعدَ الولادةِ دخلتُ في فورةِ مشاعرَ مختلفةٍ وكثيفة، كنتُ خائفةً كوني لم أُجرِّب الولادةَ من قبل، ولأني سمعتُ وقرأتُ تجاربَ نساءٍ ولدنَ أطفالهنّ دونَ اللجوءِ إلى التخديرِ فوصفن أهوالاً يصعبُ تخيُّلُها، لكن رغمَ خوفي كنتُ مُتحمِّسةً ومُشتاقة؛ بعدَ أيَّامٍ سأرى وجهَ طفلي الذي ظللتُ أحدثُه طيلةَ هذه الشهور، سأنظرُ إليه وألمسُه وأتأملُ ملامحَه وأرى تعبيراتِ وجهه بينما أتحدثُ إليه، وسيكونُ لي شيءٌ من مُحمَّد الذي تبذلُ أختي هِندة وسعَها لتُقنعني بعدمِ وجودِه خارجَ رأسي، مُحمَّد الذي كنتُ أتمنى في ذلك الوقتِ لو كانَ إلى جانبي، لو أخذني في حِضنِه حتى هدأتْ رجفتي عندما تمَّ تحديدُ موعدِ الولادة، لو صحِبني عندما خرجتُ من شقَّتي في ذلك الصباحِ لألدَ طفلَنا.

قبل ميعاد الولادة بيوم أُودعت ليلى عسكراني إحدى غرفات المصح العقلي بالعباسية، كان هذا صادمًا لي وللميس وميسون، كنا نعرف أن عقلها يزن بلدًا، لكنها كانت قد حزرت قبل أسابيع أن عمتها ستُقدم على التخلص منها كشريكةٍ في شقة العباسية، ولحدِّ الآن لم نعرف ولا عرفت

ليلى كيف أقنعت عمتها المسؤولين عن المشفى بأنها مختلةٌ عقليًا وخطرٌ تواجدها بالخارج!

عندما وصلتُ إلى المشفى وحدي مع حقيبةٍ فيها ما يلزمُني ويلزمُ الصغيرَ كان داخلي يرتعش؛ لم أكن أعرفُ إذا كنا أنا وهو سنخرجُ من هنا معًا عائشين بعد ساعاتٍ أم لا، ولم أكن أعرفُ ما سأُعانيه في الداخل، جئتُ بآلامٍ شديدةٍ وانقباضاتٍ في رحمي لكنَّ طبيبتي أخبرتْني أنَّ أمامي ساعاتٍ سيتطورُ فيها هذا الألم حتى لا يكونَ بين الطلقةِ والأخرى دقيقة، وحتى لا أستطيعَ أن أقفَ على قدميّ.

كانت طبيبتي مُتفهِّمةً وبشوشة، سيدةً مرت بتجربةِ الولادةِ ثلاث مراتٍ فهي تعرفُ ما تعنيه جيِّدًا وتحترمُ خياراتي، خياراتي التي كانَ منها ألا تلجأ إلى فتحِ بطني إلا إذا وُجدَ خطرٌ على حياةِ الطفل أو حياتي، وألا يُبعدوه عني عند ولادتِه إلى غرفةٍ أخرى لأنني لا أحبُّ أن يخرجَ من بطني ليقضيَ لحظاتِه الأولى في العالمِ بعيدًا عني.

كانَ عليَّ أن أنتظرَ لخمسِ ساعاتٍ قبلَ أن أدخلَ غرفةَ الولادة، خمس ساعاتٍ تصاعدت فيها شدةُ الألمِ حتى ظننتُ أنني سأُخرجُ روحي معَ هذا الطفل، كانَ ألمًا رهيبًا غيَّب إدراكي لما حولي معظمَ الوقتِ وإن لم يغبْ وعيي، شعرتُ في كلِّ طلقةٍ بأنني أتكسَّرُ في لمحِ البصرِ مثلَ لوحِ زجاجٍ يتحوَّلُ بضربةٍ واحدةٍ إلى آلافِ الشظايا، وبأنَّ الكونَ يضيقُ عليَّ

ويستمرُّ في الضيقِ والتقلُّصِ حتى يضغطَني من الخارجِ بينما يضغطُني الطفل من الداخلِ ليشقَّ طريقَه إلى الحياة.

***

عندما دخلتُ غرفةَ الولادةِ ورأيتُ السريرَ المخصصَ لها رفضتُ رفضًا عنيدًا أن أستلقيَ عليه، رأيتُ فيه مهانةً لم يكن بوسعي أن أحتملَها، لم أُردْ أن أستلقيَ على ظهري ويربطوا رجليَّ كأنني بهيمةٌ يُخشى أن ترفسَ ولدَها وهي تلدُه، وكأنَّه ليس مُهمًّا أن أرى طفلي الذي ظلَّ لأشهرٍ في داخلي وهو يخرجُ مني. أردتُ أن أكونَ واعيةً لكلِّ تفاصيلِ الولادةِ مهما كلَّف ذلك، حتى أنني أردتُ أن أراه بينما يكونُ نصفُه فقط قد صارَ خارجي والنصف الآخرُ لم يخرجْ بعد، أردتُ أن يُتاحَ لي عندما يحينُ الوقتُ أن أُحسَّ ذلك الإحساسَ وأنا أرى طفلي بينما ما يزالُ جزءٌ مني لم ينفصلْ تمامًا، أن أنحنيَ إلى أمامٍ وأرفعَ ذلك الغطاءَ من ناحيتي وأراه وأنا أشعرُ به جزءًا من جسمي بعد، كانت تلك اللحظةُ القصيرةُ فارقةً ومن أشدِّ لحظاتِ الولادةِ إلهامًا بالنسبةِ لي؛ كثَّفتْ شعوري بأنَّه فعلاً جزءٌ مني حتى بعدَ أن انفصلنا هذا الانفصالَ المؤلمَ لي وله. ولم أُردْ كذلك أن يكونَ عُريي في تلك اللحظاتِ مُتاحًا أمامَ مَن لا يلزمُني ولا يلزمُ طفلي أن يحدثَ أمامَهم ذلك، أن أكونَ مكشوفةً بهذا الشكلِ السيِّء بينما المُمرضاتُ يرحنَ ويجئنَ في الغرفةِ بمنتهى العاديةِ كأنَّ عريي حدثٌ طبيعيٌّ أو أقلّ، ويتعلَّلن إذا ما وجدن تحرُّجًا بأنَّهنّ "مثلُ أخواتِكِ وهذا شُغلنا ولا داعي للخجل"، وكأنَّه كانَ عليَّ

أن أُعلِّقَ حيائي على مشجبٍ خارجَ تلك الغرفةِ وآخذه عندما تنتهي الولادة.

"إذا كانَ لا بدَّ من لحظةِ عُريٍ كتلك فلتكنْ أمامَ امرأةٍ واحدة لا نصفِ دزينةِ نساء!"

قلتُ لهنّ صريحةً وحاسمة فضحكنَ ضحكةً مشوبةً بانزعاج، وانحزتُ ساعتَها لطريقةِ نسوةِ القريةِ التي جئتُ منها في ولادةِ أطفالِهنّ؛ تجلسُ الواحدةُ منهنّ على سريرِها نصفَ جلسةٍ وتُغطّي نفسَها بملاءةٍ تدخلُ تحتَها الطبيبةُ أو القابلةُ برأسِها وتخرجُ بالطفل، فلا تنكشفُ المرأةُ دونَ داعٍ ولا يُنتهكُ الحياءُ تحت ذريعةِ قدسية اللحظةِ وعدمِ انتباهِ المرأةِ ولا مَن حولَها ساعتَها لذلك الخجلِ وتلك التفاصيل.

عندما كان الألمُ يكادُ يُفقدُني صوابي كان يترددُ في أذنيَّ صوتُ جدتي وهي تقولُ لابنةِ عمي حين كانت تصرخ أثناء ولادةِ طفلتِها الأولى: "تجلَّدي يا بنت؛ الدابةُ تعرفُ كيف تلدُ ابنَها وكيف تحميه من ألمِها أن يضُرَّه"، فكان ذلك يجدِّدُ قوتي ويمنحُني مزيدًا من القدرةِ على الاحتمال، إذ أتذكرُ أنني لا أُعاني ألمًا عاديًّا في عمليَّةٍ جراحيَّةٍ كاستئصال الزائدة الدوديَّة أو كالذي كنتُ أعانيه عندما ينكسرُ ذراعي ويردُّ الطبيبُ عظامي إلى مكانِها قبلَ أن يضعَ الجبيرة، وإنما أُعاني ألمًا سينتجُ عنه بعدَ لحظاتٍ خروجُ روحٍ جديدةٍ إلى الحياة، إنسانٌ جديدٌ سيرى نورَ اللهِ في الدنيا بسببِ هذا الألم، وهذا الإنسانُ هو ابني.

عندما سمعتُ صرختَه الأولى أحسستُ بأنني امتلكتُ العالم، وحينما وضعتْه الطبيبةُ عاريًا بدمِه على صدري وضممتُه وشممتُ رائحتَه وهمستُ اسمَه وأنا أذرفُ دموعَ الفرحِ أدركتُ أنني أكبرُ من تلك المرأةِ التي كنتُ أرى نفسي عليها؛ أنني أُم، وعندما ألقمتُه ثديي ليرضعَ للمرةِ الأولى قلتُ لنفسي: "الأمومةُ شيءٌ كهذا إذن؛ أن أكونَ كلَّ العالمِ لطفلٍ صغير".

***

(17)

ألم أقلْ إنَّ حياتي تغيَّرتْ بولادةِ طفلي؟ لم يكن التعبيرُ دقيقًا؛ والأدقُّ أنني أنا التي تغيَّرت، أصبحتُ أكثرَ احتمالاً وأشدَّ قوةً في مواجهةِ النكباتِ والمصائب، أما الحياةُ فلم تتوقف يومًا عن أن تكونَ قاسيةً ومخيفة.

كثرتْ حوادثُ الانتحارِ في ذلك الزمن إلى حدٍّ غيرِ معقولٍ ومخيف، كلَّ يومٍ كان هناك من ينتحر؛ قفزًا في النيل أو من فوقِ برج، ازدرادًا لحبوبٍ مُنومةٍ أو حبوب حفظ القمح، جذًّا لشريانٍ أو شنقًا في سقف غرفة، طرقٌ كثيرة ومنتحرون أكثر، كنا نتمرَّغُ في عواقبِ تثمين الهشاشةِ النفسية، ندفعُ ثمن الأدبياتِ التي جعلت من الإصابة بالمرضِ النفسي مدعاةً للمفاخرة كدليلٍ على أنَّ المُصابَ به إنسانٌ رقيقُ العاطفةِ حيُّ الشعور، تلك الأدبيات التي أضعفتِ المُصابَ وأوهمتِ المُعافى، فأنتجَت لدى الشبابِ بالذات استسلامًا لأي كآبةٍ مُلمَّةٍ إثرَ أي مصيبة، وصارَ الأسهلَ من الاحتمالِ والصبرِ إنهاء الحياة.

***

عندما كانَ عمرُ حيَّانَ أربعين يومًا زرتُ ليلى عسكراني في المصح العقلي، وهناك بكيت حينما أخبرتني بشعورها أنها ستبقى في هذا المشفى المرعب حتى تموت، لكنني ابتسمت عندما رأيت رجلاً اسمه حسن يعمل طبيبًا نفسيًّا في القسم الخاص بالرجال يحاول التقرب منها. وعندما كانَ عمرُه خمسةَ أشهرٍ تزوجت لميس فاتح من الرجل الذي لا تحبه.

كانَ عمرُه ثلاثةَ عشر شهرًا عندما سمعْنا صوتَ كاميليا يزن في الهاتف بعدَ اختفاءٍ طالَ عامًا أو أكثر، وكانَ عمرُه عامين إلا شهرًا عندما اختفتْ مرةً أخرى مع أخبارِ قصفِ المنطقةِ التي كانت تعمل فيها.

لم يبقَ إذن سواي أنا وميسون، أنا في الشقةِ التي أستأجرُها من صاحبتِها في وسطِ البلدِ وهي في الغرفةِ المنعزلةِ في شقةِ العباسيةِ والتي آلتْ إلى أقاربِ ليلى واستمروا في تأجيرِها للطالباتِ مع رفعِ الأجرة، كنا مُتقاربتَين في ذلك الوقتِ كما لم نكن من قبل، وجدتْ فيَّ الصديقةَ المُتفهِّمةَ التي لا تُهوِّنُ أسبابَ كآبتها وإن كانت تدعوها للخروجِ منها، ووجدتُ فيها الصديقةَ الوفيَّةَ التي أثقُ أنَّها على استعدادٍ لسماعي في أيِّ وقتٍ –مهما بدتْ لي مخاوفي غيرَ معقولةٍ– دونَ أن تُسفِّهَ مني أو تنظرَ إليَّ نظرةَ المجتمعِ إلى مريضٍ نفسي، على عكسِ ليلى التي كانت نظراتُها المُرتابةُ لي وأسئلتَها المحمومةَ عندما كنتُ أقيمُ معها عما إذا كنتُ أتناولُ أدويتي بانتظامٍ تمنعُني من أن أبوحَ لها بشيءٍ أو أطلبَ دعمَها أو حتى أعولَ على عاطفتِها الصادقةِ نحوي.

كنا دائمًا على تواصل، تتابعُ معي حيَّانَ وهو يكبر؛ يقفُ وحدَه، يقولُ "ماما" للمرةِ الأولى، يخطو أولى خطواتِه، يُظهرُ أوَّلَ سِنٍّ، وأُحاولُ في مرحٍ جادٍّ أن أُرقِّقَ قلبَها لمُعاوية؛ الرجلِ الذي ظلَّ يُحبُّها طوالَ تلك السنواتِ مثلَ صوفيٍّ مُخلصٍ دونَ أن تدفعَه محاولاتُها المتكررةُ للموتِ لأن يُقلعَ عنها، وكانت تلمعُ عيناها عندما أُحدثُها عنه وتقولُ لي: "لا فائدةَ له فيَّ،

عليه أن يجدَ لنفسِه امرأةً سليمة"، فكنتُ أقولُ لها إنَّه لا يُريدُ امرأةً سليمةً بل يُريدُها هي، ولكن دونَ جدوى.

منذ ذلك العام، 121، بدأتْ زياراتُ هيئة الرقابة، يُداهم الرقباء الشقةَ يفتشون أوراقي ويقلبون مكتبي رأسًا على عقب، يأخذون منه ما يحلو لهم وينصرفون، ويعودون بعدَ بضعةِ أشهرٍ ليُكرروا نفسَ القصةِ دونَ ملل، كلُّ مرةٍ تُشبهُ التي قبلَها إلا مرةً واحدةً كان فيها بعضُ الاختلافِ من أجلِ كسرِ رتابةِ التكرار ومُخالفةِ التوقع..

"عمَّ تبحثون عندي؟"

"عندما نجدُه سنُخبرُك"

"يعني أنكم لا تعرفون ما تبحثون عنه"

" سنفتش بيتَكِ في أيِّ وقتٍ ونستجوبُكِ عندما نرى ذلك لازمًا"

"إذا كانَ على أحدِنا أن يستجوبَ الآخرَ فإنه أنا، وأنتم مَن ينبغي أن يُسأل: أين زوجي مُحمَّد فريد إسلام؟ رجلٌ بطولِ البابِ ومُدرِّسٌ جامعيٌّ وكاتب، كيف يختفي فجأةً دونَ أن يتركَ خلفَه أثرًا أو يظهرَ طرفُ خيطٍ يؤدي إليه طوالَ ثلاث سنوات؟"

"هل سنراقبُ كلَّ مواطنٍ لنعرفَ أين ذهب ولماذا وكيف؟"

أخذوني يومَها إلى مقرِّ هيئة الرقابة، وقضيت هناك ليلةً من أفظعِ ليالي حياتي قررتُ بعدَها أن ليس عليَّ أن أتركَ ابني بعدَ الآن لأيِّ سببٍ كان، وأنَّ محمَّدًا إذا لم يكن عندهم فليس يُجدي أن أستمرَّ في سؤالِهم عنه.

هكذا كانت تسيرُ حياتي، ولم يكن يُصبِّرُني عليها سوى قوةِ الأمومةِ التي تجعلُني مسؤولةً عن طفلٍ غضٍّ وتسلبُني رفاهيةَ الانهيار والتعب، لم يكن أمامي سوى أن أقضيَ أيامي معه، أحميه من شكوكي في نفسي وفيه، من شعوري بعدمِ الجدارةِ أحيانًا، ومن خالتِه التي لا أستطيعُ توقُّعَ الكيفيةِ التي قد تؤذيه بها.

***

في يوليو 123 بدا لي فجأةً أنَّ ميسون تتغيرُ من حسنٍ إلى أحسن، تُصبح أشدَّ إقبالاً على الحياةِ ويضحى مزاجُها أكثرَ إشراقا، زارتْني فجأةً في عصرِ يومِ جمعةٍ دون ترتيبٍ ولا ميعاد، أعطتني بمزاجٍ سعيدٍ آلة الكلارينيت خاصتَها واسطوانةً عليها مقطوعتُها الوحيدة "طلوع الروح" كهديتين للذكرى، كانت في عجلةٍ من أمرِها ولم تقلْ شيئًا إلا أنَّ حياتَها على وشكِ أن تتغير تمامًا، وأنها ستسعدُ أخيرًا وستتخلص من كلِّ الآلامِ التي عانتها، وأنني سأعرفُ التفاصيلَ فيما بعد لأنها لا تمتلكُ الوقتَ الكافي.

تركتْني مغمورةً في سعادةٍ لا حدودَ لها، من أحلى ما قد يحصلُ للإنسانِ أن يرى واحدًا من أحبِّ أصدقائه يسعدُ أخيرًا بعد كثيرٍ من العناءِ والكآبةِ والرغبةِ في الموت. قمتُ احتفالاً بتلك المناسبةِ بإعدادِ كعكةِ الليمون التي يُحبُّها حيان، كانَ يومًا جميلاً ويستحق الاحتفال. اخترقتْني الرائحةُ الساخنة لكعكةِ الليمون فزادتْني نشوةً وسرورا، قطعتُها وأخذتُ الطبقَ إلى الصالةِ حيث ناديتُ حيَّانَ الذي أتى ركضًا ما إن داعبتِ الرائحةُ

أنفَه، وهناك حكيتُ له قصةَ القردِ الشقي الذي وقعَ في شرِّ أعمالِه بينما كنا نأكلُ الكعكةَ ونضحك.

***

جالسةً على تلك الأريكةِ بعدَ العشاءِ وحيَّانُ نائمٌ على رجليَّ لم أجدْ شيئًا أفعلُه سوى البحثِ عن أيِّ شيءٍ للفرجة، تناولت جهاز التحكم بكسلٍ وفتحتُ التلفازَ ورحتُ أتنقلُ بين القنوات؛ قنواتِ طبخ، قنواتِ مسلسلات، قنواتِ أفلام، قنواتِ أخبار.. حتى استوقفتْني قناةٌ إخباريةٌ تنقلُ جلبةً من مكانٍ بدا لي مألوفًا منذ النظرةِ الأولى، عندما تمعَّنتُ أكثرَ وجدتُه هو؛ الشارعَ الذي تقعُ فيه شقةُ العباسية..

عندما علمتُ في صغري أنَّ الحقائبَ تُصنَعُ من جلودِ الحيوانات، وأنَّ الحقيبةَ التي تُعجبُني لخالتي نجلاء، الجارةِ الأقربِ لبيتِ عمي وأقرب نساءِ القريةِ إليَّ في طفولتي على الإطلاق، من المؤكدِ أنَّها كلَّفتْ عنزةً بريئةً كرشيدة (عنزتي الصغيرةَ التي كنتُ أُحبُّها؛ البيضاءَ بحمرةٍ كحنَّاءِ العروسِ على غرتِها البهيةِ) حياتَها، بدأتُ مشروعي الأولَ في عمرِ السابعة؛ مشروعَ إنتاجِ حقائبِ اليدِ النسائيةِ من الأكياسِ البلاستيكيَّةِ المُلوَّنة. أخبرتْني خالتي نجلاء أنَّ صنعَ حقيبةٍ من الأكياسِ البلاستيكيَّةِ وجعلَ امرأةٍ تحملُها وتتركُ حقيبتَها الجلديةَ لن يُعيدَ العنزةَ التي صُنعتْ منها، لقد تحوَّلتِ العنزةُ إلى حقيبةٍ وانتهى الأمر، لكنني عكفتُ على العملِ لأسبوعين مُتصلين لم يقطعه فيهما إلا استدعاءاتُ زوجةِ عمي العصبية، دأبتُ على دقِّ الأكياسِ –

وأحيانًا أصابعي- على الحجارةِ وصنع حقائب يد، لم أكن أسعى لإعادةِ عنزةٍ ما إلى الحياة، وكنتُ أكبرَ من أن أظنَّ أنَّ حقيبةً جلديةً قد تقفُ وتتشكلُ من جديدٍ وتعودَ إلى سيرتِها الأولى والأحلى: عنزة، كنتُ على الرغمِ من ذلك أستميتُ في معركتي الأولى وإن لم أكن أعي يومَها ما تعنيه المعركة؛ كنتُ أدافعُ عن عنزتي التي أُحبُّها وعن العنزاتِ اللاتي يُحبُّهنَّ أشخاصٌ آخرون ضدَّ أن تصيرَ إحداهنّ حقيبةً يومًا ما.

خلالَ أسبوعين صنعتُ الكثيرَ من الحقائب؛ ما يزيدُ على الستين، ثم بدأتُ مُحاولاتِ بيعِها. كانت مُحاولتي الأولى مع خالتي نجلاء، أخذتْ مني الحقيبةَ بالانبهارِ اللازمِ لإرضاء طفلةٍ تنتظرُ الثناءَ وأعطتني جنيهًا كاملا، فرحتُ بدهشتِها، لكنني أُصبتُ بخيبةِ أملٍ عندما رأيتُها في صباحِ اليومِ التالي تحملُ حقيبتَها الجلدية، تلك التي كانت يومًا ما عنزة!

لم أيأس، ولم يخلُ الأمرُ من محاولاتٍ طريفة، كاستماتتي في إقناعِ الخالةِ ماجدة، جارتِنا المُطلقةِ ذاتِ العينين الخضراوين، أنَّ حقائبي أفضلُ وأجملُ من الحقيبةِ البنيةِ التي تمتلكُها، وأنَّ عليها أن تُجرِّبَ استبدال واحدةٍ منها بحقيبتِها الباهتةَ والكئيبةَ لترى كيف ستُثني صديقاتُها على ذوقِها الرائع، وأنَّ من الجميلِ أن نحملَ حقيبةً سعيدةً من بلاستيك الأكياس؛ لم نقتلْ من أجلِها عنزةً ولم نُضحِّ ببقرة. الخالةُ ماجدةُ على وجهِ الخصوصِ هي التي رفعتْ نجمي في القرية، ولكن كطفلةٍ تُعاني خللاً في عقلِها ومُصابةٍ بالعتَه!

لا أعرفُ بالضبطِ متى اكتشفتُ أنَّ محاولاتي اليدويةَ لم تكن مُجديةً بما يكفي لإنقاذِ عنزة، وعلى امتدادِ حياتي المليئةِ بالقلقِ والأسئلةِ فشلتْ محاولاتٌ كنتُ أظنُّها أعقلَ وأجدى، مثلَ محاولةِ إقناعِ ميسون أبو سعدة أنَّ في الحياةِ ما يستحقُّ عيشَه رغمَ المعاناة والأسى، لأكتشف فيما بعدُ أنَّ تلك المحاولاتِ كانت كحقائبِ البلاستيك التي صنعتُها في طفولتي؛ لا تتمتعُ بالمتانةِ الكافيةِ للدفاعِ عن فكرةٍ أو حملِ قضيةٍ أو الاحتفاظِ بصديقة، لذلك عندما رأيتُ جثةَ ميسون مُمددةً على إسفلتِ الشارعِ لا يظهرُ منها تحتَ أوراقِ الجرائدِ إلا كفُّ يدِها اليمنى بأسورتِها التي أعرفُها وصوتٌ رجوليٌّ مرتبكٌ يقولُ في خلفيةِ مشهدٍ مزدحمٍ بالناسِ وبصوتِ عربتي الإسعافِ والشرطة: "امرأةٌ تناهزُ الرابعةَ والثلاثين من العمرِ تنتحرُ قفزًا من شرفةِ منزلٍ بالطابقِ الثاني عشر" أحسستُ بالخديعةِ التي مارستْها عليَّ ميسون باصطناعِ السعادةِ لكي تتمكنَ من إتمامِ موتِها دونَ تدخلِ أحدٍ هذه المرة، غضبتُ وشابتْ حزني وصدمتي نقمةٌ لا حدودَ لها، ولم أستطع أمامَ ذلك الخبرِ إلا أن أُصوِّبَ الطبقَ الخزفيَّ الذي كانت تستقرُّ فيه آخرُ قطعةٍ من كعكةِ الاحتفالِ إلى شاشةِ التلفازِ وأنا أصبُّ لعناتي الغاضبة على ميسون وعلى حياتِها وعلى سعادتِها الكاذبةِ وحزنِها العتيق معًا.

***

ليلتَها رأيتُ العالمَ كرةً تتدحرجُ بسرعةٍ نحوَ الجرف، لكنني كنتُ قد قررتُ حالاً التوقُّفَ عن محاولاتي الساذجة لإنقاذِ الجمال، الرحمة، الحياة، الحب، علاوةً على أنَّ العالمَ لم يبدُ لي -لكي أُحاولَ إنقاذَه- قيِّمًا ومُهمًّا مثلَ عنزة.

الفصل الثالث

"وبما أنها تعيش تحت الأرض وفـــي الأعماق فمن النادر أن تـراها"

الجلسة الأولى

السبت 27 نوفمبر 140 ع.ج

انتظرتْ ما يقربُ من ساعتين في غرفة الاستقبال حتى حان دورُها، وكانت مُستغربةً أن تنتظر كلَّ هذا الوقت في عيادة طبيب نفسيّ!

"لن أتساءل "هل كثرَ المرضى النفسيون إلى هذا الحدِّ؟" لأنهم كثرٌ بالفعلِ ومنذ زمن، لكنني سأتساءل: "هل ارتفعت نسبةُ الذين يملكون ثمن تذكرة طبيب نفسي إلى هذا الحد؟"!

قالت لنفسها قبل أن تدخل غرفة الكشف أخيرًا.

رحبَ بها الطبيب الجالس خلف المكتب، رجلٌ يبدو في منتصف الخمسينات تقريبًا، يضع نظاراتٍ طبيةً ويتكلم بسرعةٍ لا تتناسب والفكرة المتوقعة عن الطب النفسي.

"كيف بإمكاني أن أُساعدَك سيدتي؟"

"في الواقع لا أعرف."

قالت بنبرةٍ ثابتة ثم سكتت وراحت تتأمل تفاصيل الغرفة بفضول واهتمام كمن لا توجد في حياته أي مشكلةٍ على الإطلاق، وأثار استغرابه إلى حدٍّ ما أنها لا تبدو له كمَن يُعاني إلى حدِّ أن يُقرر الذهاب إلى طبيب نفسي، ففي العادة لا يُقدم الناس على مثل هذه الزيارة إلا بعد كثير من المعاناة الحقيقية التي اشتدت عليهم فوق حدود قدراتِهم على التحمل،

فكر في أنها قد تكون ممن يُعانون أوهام المرض النفسي، أو ممن يُغريهم أن يقولوا لمَن حولَهم إنهم يُعانون خللاً سيكولوجيًّا ويجدون في ذلك لذةً غير مفهومة وامتيازًا عن الآخرين وكأن المرض والمعاناة شيئان نبيلان في ذاتهما إلى حدِّ التمسح فيهما، ولكن عند النظر إلى هذه السيدة، والتي قد تكون في أواخر الثلاثينات، لا يعتقد أنها من ذلك النوع الذي يُغريه أن يزعم في نفسه خللاً سيكولوجيًا، فهي إلى جانب نبرتها وأسلوبها الواثقين تمتلك نظراتٍ حادةً ومُعتدةً يصعب أن تكونَ لتلك الفئة من الناس التي تستجلب التميز بادعاء عدم السواء وبزعم المعاناة.

"معذرةً يا سيدتي؛ ما مشكلتك؟"

"ليست عندي مشكلة. أبدًا"

قالت بعد أن التفتت وسددت نظرتَها إليه، ضغطت على الحروف فوقع تحت ثقل الإحساس بأنه ارتكب غلطًا لم يكن عليه ارتكابه وإن لم يكن يعرف حقيقةً ما هو!

"حسنًا. إذا لم تكن عندك مشكلة فلماذا أنتِ هنا؟"

"لأن أختي هي من اضطرني إلى هذا"

"هل أجبرتكِ على الذهاب إلى طبيب نفسي؟ لماذا فعلت برأيك؟"

"ليس بوسع أحدٍ أن يُجبرني على شيء"

قالت بنفس النبرة الضاغطة والهادئة، فأحس من جديدٍ أنه غلط غلطًا آخر..

"مَدام.."

"آنسة لو سمحت"

"آسف.."

نظر في ورقة ملاحظات أمامه وأكمل..

"آنسة هِندة.. هل يمكنني أن أعرف ما الذي تنتظرينه مني بالضبط؟ أو بأسلوب آخر: ما غرضك من وراء هذه الزيارة؟"

"أختي ليست سوية"

قالت ثم سكتت كأن هذا كل شيء، أومأ برأسِه يستحثها على التوضيح أكثر..

"إنها تعتقد بوجود أشخاص غير موجودين في الحقيقة، تختلقُهم في خيالها ثم تؤمن إيمانًا قاطعًا أنهم حقيقيون وتتوهم أحداثًا حصلت بينها وبينهم وتخلطها بالواقع. هذا يحدث منذ كانت طفلة لكنني كنت أعتقد ساعتها أنها مجرد خيالات طفولية عادية ولا خوف منها، لكنه استمر معها وتطور تطورًا خطيرًا. والآن بتُّ أخشى أنها قد تؤذي نفسها أو قد تُصاب بالجنون عندما لا تستجيب لها الشخصيات التي اختلقتها في خيالها ثم صدقت وجودها!

منذ خمسة عشر عامًا وأنا أُقيم في قبو بيتها مثل إنسانٍ غير مرغوبٍ فيه، لكن هذا لم يُشعرني بأي غضاضةٍ طالما فيه راحتها وهدوء بالها، لكن تخيل أنها هددتني بالقتل منذ ثلاثة أيام؟ كانت مخيفة وفي كلامها ونظرتها قوة لم تكن فيها من قبل، مما جعلني أخاف من أن تؤذي نفسها"

"تقصدين من أن تؤذيكِ.."

"إذا أذتني ستؤذي نفسها بالتبعية، إن أختي رئيفة لا تستطيع العيش بدوني بأي حالٍ من الأحوال، يمكنك أن تكون من هذا على يقين، إنها من دوني لا شيء على الإطلاق، قد جاوزت الثامنة والأربعين من العمر وتبدو لكلِّ مَن يراها أقوى امرأةٍ عرفوها وتمكنت من تجاوز العديد من المصائب دون أن تفقد نفسها، لكن كلتينا تعرف أنها ليست سوى تلك الطفلة الصغيرة والمُنكمشة على نفسها التي تستمدُّ الحماية من أختها الكبرى لكي تستطيع مواجهة العالم"

"لحظة! تقولين إنها جاوزت الثامنة والأربعين، أي أنكِ أكبرُ من هذا العمر بما أنكِ أختُها الكبرى؟!"

"ماذا يعني ذلك؟"

قالت بنبرةٍ جامدة فأدرك أنه أخطأ للمرة الثالثة!

"معذرةً، ولكن لا يصدق الناظر إطلاقًا أنكِ جاوزتِ الأربعين!"

"هذا جيد، عليهم ألا يُصدقوا"

"حسنًا. لكن إذا كانت أختك هي صاحبة المشكلة فإنه يتعين عليها أن توجد هنا بدلا منك"

"هي لا تعترف أن عندها مشكلة، لا تقتنع أن الأشخاص الذين تختلقُهم في رأسها غير موجودين في الحقيقة، فعلى أي أساسٍ ستزور طبيبًا نفسيًّا وهي لا ترى أنها مريضة؟"

"هل بإمكانك أن تذكري وقائع بعينها يا سيدتي؟"

"أظنُّ أن عليَّ أن أحكي كل شيء منذ البداية، وهذا قد لا ينتهي في جلسة واحدة"

"لا بأس. تفضلي؛ إنني أسمعك. معذرةً، قبل أن تبدئي: هل تُمانعين في التسجيل لأتمكن من مراجعة الأعراض بدقة والرجوع إليها من أجل صحة التشخيص؟"

نظرت إليه متفحصةً كأنها تزن الأمر، ثم قالت أخيرًا بصوت ثابت:

"لا. لا أُمانع"

"حسنًا. ثقي أن أيَّ شيءٍ مما تقولين لن يخرج من هذا الباب. تفضلي"

"أنا وأختي رئيفة تربَّينا في بيت عمنا بعد وفاة والدَينا في حادث سير، كانت حينها في الخامسة. لم يكن أحدٌ في ذلك البيت يُحبُّنا أو يرغب في وجودنا، ولولا حرصه على عدم فقد الوصاية على الإرث لرمانا عمي في الشارع فور نفض تراب أبينا من يديه. عشنا في ذلك البيت كخادمتين؛ نلبس ما يفيضُ عن حاجة أبناء عمي وما يتذمرون منه، ونأكل في المطبخ ما يتبقى بعد أن تُرفع المائدة. نُعنَّفُ باستمرارٍ على أتفه الأسباب، وهذا التعنيف قد يشمل الإيذاء الجسدي؛ رئيفة مثلا ما زالت تحمل أعلى فخذها الأيمن ندبة تركتْها عليها زوجةُ عمي بملعقةٍ ساخنةٍ كعقابٍ على عدم كنسها البيت. كانت الحياةُ في ذلك البيت جحيمًا حقيقيًا، كلُّ يومٍ

هو احتمالٌ قائمٌ لألم جسديٍّ ليس على طفلةٍ أن تُعانيه مهما بلغ حجم أخطائها، ما بالك ونحن أصلاً لم نرتكب خطأً سوى أننا كنا يتيمتين!

كانت طفولتُنا صعبة، لكنني كنتُ أكثرَ احتمالاً وصلابةً من رئيفة، وأعتقد أنني استمددتُ تلك القوة من رغبتي في حماية أختي والتخفيف عنها ومواساتها وتسليتها. كنا نحلمُ معًا عندما نأوي إلى الفراش ببيت يخصُّنا وحدَنا، فساتين كثيرة ملونة، أطعمةٍ لا تنفدُ مما لذ وطاب، هل تعرف إلى أيِّ حدٍّ هو مُحزنٌ أن تستلقي طفلةٌ على فراشِها مساءً وتتمنى تفاحةً خضراء أو فخذ دجاجةٍ كاملٍ لم يؤكل منه؟ كانت رئيفة تلك الطفلة التي ظلت تتمنى أشياء تبلغ هذا الحدَّ من البساطةِ في بيتٍ هو واحدٌ من أغنى بيوتِ البلدة.

كنتُ أُسليها بالحكايات، حكايات خيالية بالطبع عن غابةٍ سحرية أو أميرة جميلة تنصاعُ الحيواناتُ لرغباتها، وكانت تستهويها تلك الحكايات وتُسعدُها إلى أبعد حد، وكنت أفرحُ بسعادتها وأرضى عن نفسي، لكنني لم أكن أعرف أنها ستحاول اختلاق قصصٍ وأشخاصٍ بالمثل. في البدء كانت (مُوشكا)؛ أول شخصية خيالية ضبطتُها وهي تُكلِّمها عندما كانت في السابعة، نهيتُها أكثر من مرة عن التحدث إلى (موشكا) تلك لأنها غير موجودة لكنها لم تكن تستجيب، وحين ضغطتُّ عليها طالبةً منها أن تُعرفني عليها اعترفتْ لي أنها اخترعت (موشكا) مثل أبطال الحكايات التي كنت أقصُّها عليها قبل النوم. لكن بعد أشهر ظهرت شخصية أخرى، كان

ذلك في أعقاب حريقٌ شبَّ في غرفةٍ تُستخدم للأغراض القديمة في بيت عمي، كانت رئيفة هي من تسبب في ذلك الحريق إذ تسللت إلى تلك الغرفة مع مصباحٍ زيتيٍّ ليلاً بعد أن نام الجميع، ويبدو أن المصباح وقع منها دون أن تنتبه فشبَّ ذلك الحريق ونفر الجميع من فُرُشهم ولم يتذكرها أحد، لكنها خرجت من تلك النار صحيحة لم يمسسها أذى، وذلك ما أثار دهشة الجميع ساعتها.

بعد ذلك الحادث بدأت تتحدث همسًا إلى شخصية تُسميها (الفتى المدعو زاي)، وسمعتُها مرةً تشكرُه على إنقاذِها من الحريق، طعنني ذلك في قلبي؛ كنتُ أنا مَن أنقذها. في تلك الليلة عندما نفر الجميع إلى خارج الدار ونفرتُ معهم لاحظتُ غيابها وتوجستُ أنها قد تكون عالقةً بالداخل، خاطرتُ بحياتي ودخلت، بحثتُ عنها في كلِّ أرجاء البيت حتى وجدتُها في تلك الحجرة، كانت واقفة في وسط الغرفة والنار في كل مكانٍ حولها، ومن شدة الفزع كانت ساكنة تمامًا بحدقتين متسعتين وبنطالٍ مُبلل، لم يكن أمامي إلا أن أقتحم النار وأخرجها من هناك، ولتجنب غضب عمي وزوجته قدتُها حتى خرجت وحدها واختبأتُ في زاوية من الفناء، عندما سألتها الجاراتُ بعد تلك الحادثة كيف خرجت من النار كانت تبتسم وتسكت فتُخيفُهن بذلك، وكان ذلك في صالحي لأن عمي وزوجته لو عرفا بما فعلتُ لكانت العواقب وخيمة، لكنني إذ كنتُ أعرفُ أنها تعتقد أن من

أنقذها ليس أنا وإنما ذلك الفتى المدعو زاي الذي لا وجود له في رأسها كنتُ أُصاب بغيظٍ شديد وتملؤني الغيرة!"

"كنتِ تُحبين أن تعرف لكِ ذلك الفضل عليها إذن!"

"أليس ذلك من حقي بعد أن جازفت بنفسي في سبيل روحها؟"

"يمكن موافقتُك على هذا، لكن لا أعرف إذا كان مجرد شعور صامت بالغيظ أم تطور إلى سلوك انتقامي؟"

"هل تظنُّ أنني حقودة إلى حدٍّ أن أنتقم من أختي الصغيرة التي طالما كنت على أتم الاستعداد للتضحية بروحي من أجلها؟"

"اعذريني، لم أتعمد مضايقتك أو الإساءة إليك"

"أعترف بأنني كنتُ مُضطرةً أحيانًا إلى رؤيتها تُعاني بسببي دون أن أُحرك ساكنا من أجلها، ولكن كان هذا من أجل أن أظل معها"

"هل يُمكنك أن توضحي أكثر؟"

"عندما كنا نتهامس في فراشنا ليلاً كان يحدث أن تفاجئنا زوجة عمي، حينها كنت أتظاهر بالنوم حتى لا تنتبه إليّ، فكانت تعتقد أن رئيفة تُكلمُ نفسها ولذلك كانت دائمًا ما تُعنفُها وتنعتها بالمجنونة، وهو ما سمعه أبناؤها فتعمدوا بدورهم أن ينادوها بـ "رئيفة المجنونة" بين أقرانهم من الأطفال"

"هذا مُحزنٌ جدًّا لتتعرض له طفلةٌ صغيرة!"

"صحيح، لكنني كنت مُضطرة؛ كانت زوجة عمي تبغضُها أشدَّ البغض لأنها كانت صورةً حيةً من أمها التي ماتت، أمها التي أخذت الرجل الذي رغبت فيه تلك المرأة لنفسها، لذلك، ولما كانت مُجبرةً أمام إلحاح زوجها

على إبقاء ابنة ألدِّ أعدائها في بيتها، كانت لا تتوانى عن إيذائها مُستحضرةً أمها فيها، ودائما ما حرصت على سلبِها أي شيء من الممكن أن يخفف عنها ويُسليها عن الوضع الذي كانت تعيشه".

"تقصدين أنها لو عرفت أنك تساعدين أختك وتجعلين معاناتها أقلَّ وطأةً لفصلتك عنها إمعانًا في إيذائها وتجريدها من أي وسائل دفاع أمام ذلك البؤس!!"

"رغم أني لم أكن أعرف كيف يُمكن لها أن تفصلني عنها؛ فأنا سأظلُّ موجودةً طالما رئيفة موجودة، لكنني رغمًا عني كنت أخاف، وانسحب هذا الخوف نفسه على طول حياتي، وهذا هو الشيء الوحيد الذي جَبُنت فيه، وكم وددتُ لو وقفتُ أمام جميع الناس قائلةً إنني أختُها وأنني مستعدةٌ لفعل أي شيء من أجلها، لكنني لم أكن يومًا لائقةً بها، وما كانت أختٌ مثلي لتُشرفَ أختًا مثلها، فأنا جاهلة، فوضوية، عدائية، وشريرة في كثير من الأحيان وإن يكن هذا الشرُّ غيرَ معمود إليه إلا عند رؤيتها في خطرٍ ما.

الخلاصة يا أيها السيد أنَّني على الدوام أجدني مسؤولةً عن حماية أختي من نفسها، وعن حمايتها من نفسي على حدٍّ سواء؛ من ألا تكون لها أختٌ تُحبُّها مثلي، ومَن أن يُعرفَ أن لها أختًا مثلي".

الجلسة الثانية

السبت 4 ديسمبر 140 ع.ج

شغله أمر تلك السيدة وأختها طوال الأسبوع الماضي، وعندما أخبرته موظفة الاستقبال بوجود السيدة هِندة فكر في أن عليه في هذه الجلسة وطوال الجلسات التي من الممكن أن تليَها أن يكون المتحكم في كلِّ شيء؛ مواعيد الزيارات، من أين يبدأ الكلام وعند أي نقطةٍ يتوقف، ويجب أن يحملها على الإجابة عن جميع أسئلته، إجاباتٍ واضحةٍ دون أن ترى فيها أيَّ تعدٍّ أو أن تُحوجَه إلى الاعتذار عن سؤال ألقاه. لا يُمكنُه، على الرغم من حضورها الطاغي وشخصيتها المثيرة للاهتمام، أن يسمح لها أن تكون مُديرة الجلسة، أن تأتي وألا تأتي متى شاءت، أن تبدأ السرد من النقطةِ التي تحلو لها، وأن تتوقف عندما يبدو لها أن تتوقف تاركةً إياه تحت وطأة الفضول حتى موعد الزيارة التالية الذي لا تأتي فيه.

فكَّر في أن يجعل الممرضة تُحدد لها موعدًا في يومٍ آخر وتصرفها بحجةِ أنه ليس متفرغًا وأنها أتت دون موعدٍ مُخلفةً الموعدَ الذي كان من المفترض أن تأتي فيه قبل ثلاثة أيام، لكنه خشيَ أن تنصرف ولا تعود مرة أخرى، كما أنه –حتى إذا عادت– لا يستطيع أن ينتظر ثلاثة أيامٍ أخرى أو أكثر ليسمع منها.

***

طلب من الممرضة أن تُدخلها وانشغل برسم تعبير جديٍّ وصارم على وجهه وهو يضبط الأوراق على مكتبه.

جلست دون أن تنطق بكلمة. هذا ليس جيدًا؛ من المُفترض أن تعتذر، لا يُمكنُها أن تجعله يبدأ هو بسؤالها عن سبب عدم مجيئها يوم الثلاثاء الماضي كما كان مُقررًا. صبرَ حتى بدا له أنها لن تبدأ بالكلام أبدًا ما لم يفعل.

"أتمنى يا سيدة هِندة أن تكوني أكثر التزامًا بالمواعيد، وأن تُراعي عدم إمكانية أن تكون مقابلتي مُتاحةً في أي وقت!"

أحس بالندم فور نطقه هذه الكلمات، لكن كانت الجملة الأخيرة قد خرجت ولا يُمكن إعادتُها أو محوها.

"أنا أتيتُ عندما أُتيح لي. لعلك تذكر أنني قلتُ في المرة السابقة أن أختي تحتجزُني في القبو، وهي إلى ذلك تراقب كل تحركاتي وتُحاصرني بالأسئلة حول أبسط تصرف آتيه، لذلك ليس من السهل أن أخرج متى ما حلا لي الخروج، وإنما أنتظر الفرصة المناسبة على الدوام"

"غريب أن تكوني الأخت الكبرى وأن تُعاملي بهذه الطريقة كطفلٍ صغيرٍ ومتمردٍ رغمَ ذلك"

"نعم غريب، خاصةً أن رئيفة لم تكن كذلك من قبل، كانت تهابُني بل وحتى تخاف مني أحيانًا!"

"وما الذي غيَّرها إلى هذا الحد؟"

"ذلك الرجل الذي في رأسها"

"أي رجل؟"

"هذه حكايةٌ طويلة!

"إنني أسمعك"

قال وهو يُشغِّلُ برنامج التسجيل. لماذا يشعرُ أن كلَّ غضبِه منها وإحساسه باستخفافها به يتبخر فجأة؟ وأنه لا يستطيعُ أن يُنفذَ ما اتفق عليه مع نفسه من أجل أن يكون المتحكم في مسار الجلسة؟ لماذا يترك لها عجلة القيادة هذه المرة أيضًا رغم كل قراراته بألا يفعل؟

"عندما تركت أختي رئيفة البلدة من أجل الدراسة في القاهرة وجدها عمي وزوجته فرصةً للتخلص منها خاصةً وأن أحدًا منهما لن يتكلف شيئًا في سبيل ذلك. كانت في الحادية والعشرين من العمر تقريبًا، متأخرةً ثلاث سنوات عن السن الذي يُلتحق فيه بالجامعة عادةً، وناضجةً بما يكفي لتتخذ قرارًا بترك حياتها القديمة خلفها والبدء بحياة جديدة، وكنتُ جزءًا من تلك الحياةِ القديمة، وأمام إصرارها على ترك كل شيء وراءها، حتى أنا، لم أستطع أن أُرافقها، لم ترضَ بذلك رغم كلِّ توسلاتي وتذكيري إياها كم تحبني وكم أحبها وأود التضحية بحياتي من أجلها إذا لزم الأمر. سافرت وحدها ولا أقول إنني عشتُ أسوأ وأصعب ستِّ سنواتٍ في حياتي بدونها، بل لم أكن موجودةً فعلا، هل تُدرك معنى أن تفقد فجأة وجودك في هذه الحياة؟ لم أكن حية".

"تقصدين لم تكوني تشعرين بأنك حية؟"

"لم أكن حية ولا موجودة، تخلت عني تمامًا، قتلتني في نفسها وذهبت دون أن تلتفت"

"لماذا فعلت برأيك؟"

"كانت تقول إنها تريد أن تبدأ حياة جديدة وأن وجودي معها سيعوق ذلك وسيذكرها دائمًا بما تركت خلفها"

"وأنتِ قبلتِ بذلك؟"

"في البدء فقط، لكن بعد أسابيع ندمت على ذلك الخنوع المخجل وعلى تخليَّ عنها فبدأت بالبحث بعد ست سنواتٍ تقريبًا، وبعد حوالي سنة من البحث عنها، تمكنتُ من الوصول إليها. تفاجأت بعودتي، حتى أنه يُمكنني أن أؤكد أنها لم تسعد برؤيتي مجددًا، لكنني كنت أشعر أنها ليست على ما يرام، لذلك لم ألقِ بالاً لعدم حفاوتها بي. مكتبة سُر مَن قرأ

ينبغي لي ألا أجحد الميزات، هذه أختي رئيفة؛ تربية يدي وأختي الصغرى، لا تستطيع أن تخفي عني شيئًا أبدًا، وقد يبدو هذا غريبًا بالنسبة لك كونها هي التي أصرت على عدم ذهابي معها وتخلت عني، لكنها عندما رأتني من جديد لم تستطع إلا أن تحكي لي عنه، ربما لأنها تعرفُ أنني سأعرف سواءً أخبرتني أو لا، هه، نعرفُ بعضَنا إلى أبعد مما يتخيل أي إنسان يا دكتور".

"إذن حكت لكِ عنه دون أن تسأليها.."

"وفي الليلة الأولى لعودتي أيضًا"

قالت بزهو واعتداد.

"ماذا حكت؟"

"كلَّ شيء اختلقته عنه في رأسها، مَن هو وكيف هو، كيف قابلته، كيف وقعتْ في حبه، كيف اعترف لها بحبِّه بعد سنتين من لقائهما، كيف عرض عليها الزواج، كيف قبلت، متى تزوجا، كيف عاشت معه سعيدين في بيته. كلَّ شيء"

"وكان ذلك كله في خيالها فقط؟"

"بالضبط. في خيالها فقط"

"كيف استطعتِ التأكد من ذلك؟ لماذا لا يكون هذا الرجل حقيقيًّا بالفعل؟"

"لأنه لم يكن موجودًا عندما عدت إليها. سأُخبرُك أنني أحببتُ رجلاً ما وقبلتُ الزواج منه وعشتُ معه أسابيع في بيته قبل أقلِّ من شهرٍ من الآن، واسألني "أين هذا الرجل؟" فأقول لك إنه اختفى فجأة وأنني أبحث عنه وأنتظر عودته، صدِّق ذلك. ثم اضبطني وأنا أكتب رسائل إليه دون أن أتلقى أي ردٍّ على ما أكتب وسأؤكد لك أنه ليس هنا الآن ولكنه حقيقيٌّ وموجود في مكانٍ ما وسيعود، وصدِّقني أيضًا. ثم اطلب مني أيَّ دليلٍ ماديٍّ على وجود ذلك الرجل الذي أزعم لكَ أنني تزوجته فلا أستطيعُ حتى أن أُريكَ وثيقة ذلك الزواج المزعوم، واستمرّ في تصديقي!"

"إلى أيِّ حدٍّ تعتقد أختُكِ أن ذلك الرجلَ حقيقيّ؟"

"إلى حدٍّ أن تُنجبَ منه طفلاً وتُسمِّيَه حيَّان!"

"غير معقول!"

"المشكلة في هذه الخيالات التي تأكل رأسها أنها لا تتوقف عند حد، تتكاثر إلى مواقف يومية وقراراتٍ على أساسٍ رخوٍ من وجود هؤلاء الأشخاص"

"هل ما زالت تعتقد بوجودهما إلى الآن؟"

"نعم. أحيانًا ينتابها شكٌّ ولكنه ما يلبث أن ينمحي من تلقاء نفسه. طوال اثنين وعشرين عامًا دأبت على أن تُقصيني عنها وأن تستأثر دوني بأسرارها لأنني لا أُصدقها، ولو أنني جاريتُها في خيالاتِها ما استمرت في معاملتي هذه المعاملة".

"وعلى العكس تمامًا كنتِ تواجهينها بكون ذلك الرجل وذلك الطفل غير حقيقيين، ألم تتعبي من ذلك؟"

"تعبت بالطبع، اثنان وعشرون عامًا هو وقتٌ طويلٌ جدًّا لئلا يتعب المرؤ من معاكسة تيارٍ جارف، لكن كان يقويني دائمًا أملٌ في أن تعود إلى رشدها"

"وكان ذلك يحدثُ أحيانا؛ عندما تشكُّ في وجود الشخصيتين حقيقةً"

"لكنها لا تلبثُ أن تعودَ إلى الإيمان بهما أقوى من ذي قبل، ومع ذلك ما أبقاني إلى جوارِها هو الأمل في أن تتخلص يومًا ما من هذه الأوهام بشكل نهائي"

"ذلك الابن المزعوم.. كيف تتعامل معه؟ هل تكتب إليه مثلا أم تُكلمه؟ هل كبُر بمرور السنين أم أنه ما زال في مخيلتها طفلاً صغيرًا؟ هل

تتطور تلك الخيالات بمرور الأيام أم ظلت دائمًا عند النقطة التي بدأت منها؟"

"بل تتطور تطورًا عجيبا؛ فحيَّانُ هذا يبلغ من العمر الآن واحدًا وعشرين عامًا، له غرفةٌ في الطابق الأعلى من البيت، خزانةُ تلك الغرفة ملأى بملابس رجالية، على مكتبه دائمًا أوراق وأقلام وكتب، وثمة على الدوام ما يُمكنُ أن يُقال عنه:

(حيَّانُ اشترى من أجلي إصيصًا فيه زهرة نرجس بالأمس)

(أعدَّ حيَّانُ اليوم معكرونةً باللحم المفروم، ما ألذها!)

(قام ابني حيَّانُ بتصميم برنامج جديدٍ يُمكن للمُصابين بالعمى والصمم والبكم من التعبير عما يريدونه)

(ما أشدَّ ما يُشبه هذا الولدُ أباه؛ مشيتَه وصوتَه وهدوءه وطريقته في سوق الأدلة على صحة رأيه!)

وكثيرٌ من هذا إلى حدٍّ لا يُطاق، ومنه كلَّ يومٍ حتى أنها لم تعد تخشاني عليه كالسابق، صارت تتكلم عنه أمامي بكلِّ زهوٍ وأريحية عندما تنزل إليَّ في القبو"

"عجيبٌ بالفعل!"

"ومخيفٌ جدًّا"

"كلميني أكثر عن ذلك القبو"

"في الجلسةِ القادمة. أنا مُضطرةٌ للانصراف الآن، لن يكون من الجيد أن تعرف رئيفة بهذه الزيارات. إلى اللقاء"

"متى ستأتين؟"

"عندما أتمكن من ذلك"

وكان يودُّ بشدةٍ أن تتمكنَ في أقرب وقتٍ ممكن.

***

الجلسة الثالثة

السبت 18 ديسمبر 140 ع.ج

يجدُ نفسَه كلما مرَّ الوقتُ يتعلقُ بها أكثر، هو الرجلُ الذي كان يظنُّ أنه لن يستطيعَ أن يقع في الحبِّ بعد موتِ زوجته شابةً قبل عشرين عامًا، وأنه سيكون مدى حياتِه أكثرَ وفاءً لها واهبًا حياتَه لابنتِه من أن يميل قلبُه إلى امرأةٍ أخرى، يضبط نفسه الآن بصعوبة أمام هذه المرأة الفريدة، هذه المرأة التي لا يعرف عنها إلا ما يتعلق من جهتها بأختها التي لا تزال تُعذبُها منذ اثنين وعشرين عامًا، وعلى الرغم من ذلك لم تكفّ يومًا عن الشعور بالمسؤولية تجاهها. لا يمكن.. لا يمكن أن يقع في حب امرأة أخرى بهذه السهولة، وأن يتعلق بها بعد زيارتين فقط، ربما يستطيع التهدئة من روعه عزو هذا الشعور إلى مجرد الفضول تجاه حالة مثيرة لا أكثر.

كان ينتظرها على جمرٍ ساخنٍ عندما أخبرتْه الموظفةُ بوصولها، فأسرع عن كرسيه ووقف بالباب يدعوها للدخول. لأول مرةً ترى منه موظفتُه كلَّ هذا الاهتمام الملهوف بمريضٍ عنده.

"ألاحظ أنك لا تأتين إلا في أيام السبت، مع أنَّ العيادة تستقبل المرضى في أيام الثلاثاء أيضًا.."

"لستُ مريضة!"

قالت بصوتٍ جامد، خالٍ من الانفعال ولكنه أشعرُه كم أخطأ في اختيار كلماته.

"أنا آسف، لم أقصد ذلك صدقيني، أنتِ هنا من أجلِ السيدة رئيفة. وأنا لا أعتبرُك من المرضى بأي حالٍ من الأحوال.."

"لا بأس. تنشغل رئيفة عادةً في أيام السبت بمُحاضراتٍ في الأدب الروسي تُلقيها في جامعة القاهرة، لذلك لا آتي إلا في أيام السبت"

"هل السيدة رئيفة أستاذة جامعية؟"

"لم تكن كذلك بالضبط، لكن تم انتدابها منذ سنتين تقريبا لتدريس الأدب الروسي في الجامعة، لأختي رئيفة مكانة كبيرة في الوسط الأدبي والثقافي منذ أن كانت في الثلاثينات من عمرها، لقد عرفت كيف تُثبتُ نفسها كأديبة ومُترجمة جديرة إلى جانب شهرتها بما تكتب من روايات الفانتازيا"

"أظنُّ أن ذلك يناسبها بحسب ما سمعتُ منكِ عنها، ذلك الخيال الذي يُمكِّنُها من اختلاق أشخاص خياليين والعيش معهم وتأليف تفاصيل يومية عنهم على امتداد سنوات طويلة لا بدَّ أنه وضعها في صدارة روائيِّي العصر!"

"هي لا تحتفي من ذلك كله إلا بروايةً واحدة، وهي روايةٌ حقيقيةٌ في مُعظمِها بالمناسبة ولم يتم نشرها"

"غريب! ما سبب ذلك برأيك؟"

"سبب عدم نشرها الرواية التي تحتفي بها؟"

"لا، سبب عدم احتفائها إلا برواية لم تنشرها"

"آه، تقول أنهاكتبت تلك الرواية عملا بنصيحة محمد، زوجها الخيالي، أما بقية رواياتها فلم تكتبها إلا للاعتياش"

"هل سيضايقك أن أقول إن السيدة رئيفة غريبة ومثيرة للتعجب؟"

"على الإطلاق، أعرف أن لي أختًا لا يمكنُ فهمها أو توقعُها أبدا"

"آملُ أن أموركِ معها تسير على ما يرام"

"لا بأس بها. أين توقفنا في المرة السابقة؟"

"عند القبو"

قال وهو يُشغلُ برنامج التسجيل.

"حسنًا. بعد أن وجدتُها بحوالي شهرين تقريبًا أمكن لها، بالاستعانة بمدخراتها من شغل الترجمة ووظائف أخرى، أن تنتقل من الشقة التي كانت تسكنها وتستأجر شقة أخرى في وسط البلد، كانت تلك الشقة أول مكان تتخذه رئيفة لنفسها وتستقل فيه بحياتها بعيدًا عن أي أحد مسؤول عنها، منذ ذلك الوقت أصبحت المسؤولة عن نفسها"

"تتحدثين عن ذلك كأنك لم تكوني موجودة!"

"كنت معها، ولكنها لم تكن تعتبرني مسؤولة عنها، كانت تخافني نعم، لكنها كانت إلى حد ما قد تحررت من سلطتي عليها"

"وماذا حصل بعد ذلك؟"

"أقمنا فيها قرابة عشر سنوات سكنت خلالها القبو، حتى تم بناء البيت الذي نسكنه الآن؛ بيت أحلامها"

"البيت الذي تشغلين فيه القبو الآن أيضًا.."

"اممممم.. هو كذلك. منذ الخطوة الأولى لنا داخل تلك الشقة قالت لي أختي:

(من الآن فصاعدًا ستعيشين في هذه الغرفة ولن تخرجي منها ما لم أسمح لك).

وهو عينُ ما قالتْه أيضًا عندما انتقلْنا إلى البيت، وقد كان كما قالت"

"كيف يمكن أن يكون هناك قبو في شقة؟"

"في كل مكان دائمًا يكون هناك القبو"

استغربها وبدت له فجأة غامضة ولا يمكن فك رموزها.

"الحاصل أنك رضختِ لها ولزمتِ القبو دائمًا"

"يمكنك القول إنني جاريتُها"

"باستثناء زياراتك لي.. أقصد للعيادة"

"وبعض الاستثناءات الأخرى الصغيرة أيضًا"

"صفي لي القبوين"

"كانا نفس الشيء بذات المواصفات، واسعٌ جدًّا، جيد الإضاءة والتهوية، فيه ما يكفي للعيش ولكن ليس للحياة كشخص ذي كرامة"

"مؤسف!"

"بعد ثلاثة أسابيع من انتقالنا إلى شقةِ وسطِ البلد أمكن لي أن أرى أختي تخرج في نحو السابعة صباحًا من يوم خميس، وعند العصرِ عادت

مهدودةَ القوى وهي تزعم أنها مرت بتجربة حياتها الأهم والأكثر ألمًا والأجمل على الإطلاق: ولدت ابنَها"

"هذا مثير!"

قال وقد ارتسم على وجهه تعبير دَهِش وراح يدون شيئًا على ورق أمامه..

"هل أمكن لكِ أن ترَي في جسدِها أيَّ أثرٍ لجرح؟"

"ولادةً طبيعية، ولدت ابنها ولادةً طبيعية"

"بالطبع! لم يكن يُمكنُ لها إلا هذا"

"في ذلك الوقت أدركتُ لماذا حددت إقامتي في القبو وحظرت عليَّ أن أخرج منه دون أن تسمح لي؛ لقد كانت تُخفي عني حملها المزعوم وتحرص ألا أعرف شيئًا عنه، أفلحت في الإخفاء -كما تظن- لبعض الوقت ثم فضحتها حركاتها بعد أسابيع، فكانت تخاف مني وتترجاني أحيانًا وتصدر منها تجاهي تصرفات عدائية أحيانًا أخرى تحاول بها حماية ابنها الخيالي مني، وظلت حتى قبل أربعة أشهر من الآن تخاف عليه مني وتعتقد أنني قد أؤذيه"

"ثم؟"

"ثم زال هذا الخوف، وصلت بها الجراءة إلى حدٍّ أن تكلمني عنه عندما تنزل إليَّ في القبو، كانت تتكلم عنه طويلاً طويلاً وهي تنظرُ في عينيَّ كأنها تتحداني!"

"هل هناك سبب لذلك التغير المفاجئ؟"

"نعم. هناك نقطةٌ فارقة لم يعد بعدها أيُّ شيءٍ كما كان من قبل"

"ما هي؟"

سكتت طويلاً حتى ظنَّ أنها لن تتكلم.

"ما زلتُ أذكر ذلك اليوم جيدًا. كان الوقت عصرًا والمطر توقف لتوه عن الهطول، نزلت إليَّ مع مزيدٍ من الأغطية وحساءٍ ساخن، وضعت كل شيء من يدها وجلست أمامي صامتة. كانت ساهمةً وحزينة، وكنتُ ممتلئةً عن آخري غيظًا منها؛ من هذا الإقصاء المهين، من تحديد إقامتي في قبو، ومن جهلي بحياتها إلا ما ترميه لي حسبَ مزاجِها ورغبتِها من فتات الأخبار أو ما أتمكنُ من معرفته بالتسلل مثل لص من القبو في الأوقات التي لا تكون منتبهة لي فيها، كنتُ أسأل نفسي: ما الذنب الذي ارتكبته في حقها ليكون من نصيبي أن تعاملني هذه المعاملة؟ أن تحبسني هنا مثل جروٍ صغيرٍ لا تريدُ منه أن يُوسِّخ البيت؟

ظللنا صامتتين وقتًا طويلاً، كنتُ أحدقُ فيها مُحاولة استعادة أختي رئيفة التي حميتُها عندما كانت طفلة؛ مُحاولةً إيجاد أختي التي أعرفُها في تلك المرأة التي لا أعرفها. وكانت شاردةً في عالمٍ آخر ولا تنظر إليّ. بقينا على هذه الحال حتى نطقت أخيرًا دون أن يبدو عليها أنها توجهُ لي الكلام..

(لقد سمعَني حيَّان وأنا أُكلِّمُك..

مَن حيَّان؟

لا تتغابَي.

لا أتغابى. أسألكِ حقًّا: مَن حيَّان؟

حسنًا؛ أنتِ ترينَ أنَّ مُحمَّدًا لم يكن حقيقيًّا في يوم من الأيام، وأنَّ حيَّانَ أيضًا لم يكن، لكن بالرغم مما تُصرين عليه وما لا تريدين أن تعترفي بغيره فإن هذه هي الحقيقة؛ أنا أمُّ ذلك الفتى وهو ابني.

الحديث عن الأوهام من جديد.

ليست أوهامًا. وكُفِّي عن محاولة زعزعتي من وقتٍ لآخر، توقفي عن بثِّ سمومك!

لن أكفَّ عن مواجهتك بالحقائق حتى آخر لحظة؛ ليس هناك حيَّان، وليس هناك مُحمَّد، كلُّ هؤلاء مجرد خيالات نبتت في رأسك وسقيتِها حتى تحولت إلى شجرة تلتفُّ عليكِ وتُوشكُ أن تسحقك، انظري.. لا يوجد إلا أنتِ، وليس معكِ الآن ولم يكن معكِ يومًا ما إلا أنا؛ أختكِ هِندة التي..)

وهنا انفجرتْ كأنني كنتُ أضغطُ على فوهةِ بركانٍ دون أن أدري، في البدء كسرت كوبًا زجاجيًّا كان بالقربِ لتجذب انتباهي وتُسكتَني، ثم راحت تهدرُ بانفعالٍ محمومٍ وغضبٍ جارف:

(أفيقي وانظري أنتِ حولك! ليس معي غيرك؟ وزوجي وابني ليسا حقيقيين؟ أين أنتِ الآن؟ تكلمي.. أين أنتِ؟ في القبو، أنتِ تُقيمين هنا منذ سنواتٍ مثل غرضٍ قديم لم يعد له لزومٌ فوُضعَ في القبو؛ حيث توضعُ الأغراض القديمة التي، بواعزٍ من العاطفة والعاطفةِ وحدَها، لا نستطيعُ أن

نتخلصَ منها بشكلٍ نهائي. أنتِ مجردُ غرضٍ قديمٍ في القبو، وذلك حيَّان، ابني، فتًى في الحاديةِ والعشرين من عمره يعيشُ حياةً حقيقيةً الآن بالأعلى ولا يعرفُ بوجودك، لم يكن يدري عن امرأةٍ اسمُها هِندة، والآن تجرؤين على القول إنه ليس حقيقيًا وأنه لا يوجدُ هنا، في هذه الرقعة من سطحِ العالمِ التي نتنفسُ فيها الحياةَ، إلا أنا وأنتِ؟ ما زلتِ منذ سنين تُقاتلين مُستميتةً لنفي وجودِ أي أحدٍ يُحبُّني غيرك، ليس حرصًا عليَّ كما تزعمين، بل حسدًا وغيرة؛ يُثير جنونك أن يكون أحدٌ أقربَ إليَّ منك، أن يتسبب أحدٌ في تخفيفِ تأثيرك عليّ، لا تريدين لأي شخصٍ أن يشاركَكِ في رئيفة التي ترين لنفسِك فيها الحقَّ المطلق لأنكِ حميتِها عندما كانت طفلةً ومارستِ تجاهها دورَ الأخت الكبرى.

أفيقي يا هِندة واعرفي أين أنت. واعلمي أنه إذا كان لا بدَّ أن يكون شخصٌ ما في حياتي غيرَ حقيقيٍّ فإنني لن أفكر وأنا أحاول معرفةَ هذا الشخص إلا فيكِ).

صعقتني تلك الكلمة. يا للهول! إنها وصلت إلى حدِّ إمكانية التفكير في كوني غير حقيقية! لم يكن الوضعُ يومًا أخطر مما كان عليه في تلك اللحظة!

بصراخِها ذاك وكلماتِها الرهيبة نقلت إليَّ عدوى الانفعال، فاقتربت منها حتى لم يعد بين وجهي ووجهها إلا مسافةٌ يمرُّ فيها النَّفَسُ مُختنقًا وضئيلاً..

(متى بدأت كل هذه الخيالات يا رئيفة؟ هل تعرفين متى بدأت؟ أنا لا أعرف. عندما عُدتُ إليكِ بعد ستِّ سنواتٍ في تلك الشقة اللعينة زعمتِ لي أنكِ تزوجتِ رجلاً اسمُه مُحمَّد قبل شهرين، وأنكِ لا تعرفين مكانه في ذلك الوقت لأنه اختفى ذات يومٍ فجأة، لكنه سيعود يومًا ما بالتأكيد. واليوم مرت اثنتان وعشرون سنة؛ هل عاد ذلك الرجل يا رئيفة؟ هل ظهر؟ لا، هل تعرفين لماذا؟ لأنه لم يكن موجودًا إلا في رأسك، في رأسك فقط وليس في أي مكانٍ آخر).

كانت تبكي مع كلِّ كلمةٍ أقولُها وتأمرني بالسكوت، لكنني لم أستمع لها، كنتُ قد سكتُّ طوال عشرين عامًا ولم أتكلم صراحةً في ذلك الموضوع إلا بكل ما أقدر على حشده في نبرتي وعينيَّ ولمستي من رفق ومحبة، وفي المرات التي لم أكن أصرح فيها بالنهي عن تلك الخيالات كنت أرسل لها رسائل صامتة، كانت نظرتي فقط عندما تُخطئ بذكر اسمه أمامي كفيلةً بأن تُدخلَها في نوبة شكٍّ حقيقية، وكنت أكتفي بتلك الانتصارات الصغيرة التي تحصلُ من وقتٍ لآخر، لكن في ذلك اليوم فقدتُ إيماني بجدوى الاكتفاء بتحقيق انتصارات صغيرة لعينة لا تلبثُ رئيفة بعدها أن تعود أسوأ مما كانت.

منحتني فرصةً عظيمة عندما فتحت ذلك الموضوع، وفي حين كانت تُمسكُ رأسَها بيديها وتبكي وتطلبُ مني التوقف كنت أزدادُ قوةً وإصرارًا على الضغط حتى النهاية. إذا كان لا بد لكي تُشفى من جرحٍ ما أن يضغط

أحدٌ عليه بأقصى ما يستطيع فإن أكبر معروفٍ يُسديه إليك شخصٌ يعنيه أمرك هو أن يضغط لك عليه بأقصى ما يستطيع.

(لم يظهر، طوال عشرين عامًا، لم يعد كما ظللتِ تعتقدين وتُصبرين نفسك، وكان يجدر بكِ عندئذٍ أن تستيقظي من أوهامك، لكنكِ بدلاً من ذلك اخترعتِ أوهامًا جديدة وحبستِ نفسكِ فيها..)

قلت بغضب هادر دون توقف، عندها أسرعت بالخروج مثل أرنبٍ مذعور وأغلقت باب القبو من الخارج، ليس مهمًّا، أنا أعرف أنها ستعود.

وبالفعل عادت في تلك الليلة، بعد حوالي تسع ساعات، فتحت الباب ونزلتْ إليَّ، وبدون أن تنطق كلمةً واحدةً شرعت في ضربي!

ضربتني ضربًا مُبرحًا كمَن يضربُ ليُفرِّغَ طاقةَ غضبٍ وحنقٍ مكتومين لسنين طويلة، كان وقع الصدمةِ شديدًا عليَّ، ليس فقط لأنها لأول مرةٍ في حياتنا جرؤت، ليس على رفع صوتِها عليَّ، بل على ضربي، ولكن لأنَّ كلينا ساعتَها اكتشفنا أنني لم أعد بنفس القوة التي كانت تهابُها هي، حتى أنني لم أفعلْ شيئًا أمام ضرباتِها سوى أن أحاول اتقاءها بذراعيَّ ورجليَّ مثل طفل بائس!

كان بوسعي أن أرى نشوة الانتصار في عينيها، كلتانا كانت تعرف أنها عندما رفعت يدها لتضربني فعلت ذلك وهي تتوقعُ أن يُسفر هذا عن كارثة وأن تخرج منه برضوضٍ وآلام قد لا تُشفى قبل شهرين، لكنها حين تفاجأت مثلي أنني لا أستطيع الدفاعَ عن نفسي حولتها فرحة الانتصار التي

لم تكن لتراودها في أشدِّ أحلامها جموحًا إلى ثورٍ هائج، واستمرت تضربني طوال ربع ساعةٍ تقريبًا حتى كلَّت، فتوقفت والتقطتْ أنفاسَها وقالت لي بتحدٍّ:

(لم تعودي كما السابق، ولم أعد أخشاكِ، وإذا كنتِ قد سيطرتِ عليَّ سابقًا فإنني أنا الآن مَن تُسيطر عليك. لذلك احرصي على ألا تفعلي ما يُغضبُني أو يحزنُني، وإلا فإن رد فعلي لن يُعجبَ أيًّا منا).

وخرجت، وفي تلك المرة لم تغلق باب القبو من الخارج ولم تضعْ قفلاً، وقد زاد ذلك من شعوري بالهوان؛ لقد صرتُ منذ تلك الليلة أهون من أن تخافَ مني وأن تتصرف بناءً على هذا الخوفِ فتضعَ قفلاً على بابي!

الجلسة الرابعة

السبت 1 يناير 141 ع.ج

إنها تتسللُ على أطرافِ أصابعِها بخفَّةٍ نحو قلبِه دونَ أن ينتبه.

هذه المرأة التي لا تُشبه أيَّ امرأةٍ قابلها في حياته، توشكُ أن تدفعَه إلى أن يعترف لها بحبِّه مثل طفلٍ صغير خائف ارتكب غلطةً وعليه أن يعترف بها ويطلبَ حضنًا كبيرًا وربتةً على الظهر. هو، الطفل البالغ من العمر ستة وخمسين عامًا، يريدُ أن يعترف لامرأةٍ لم يمر على لقائه الأول بها سوى شهر واحد أنه يحبُّها ويريدُ أن يراها كلَّ ساعة، كلَّ دقيقة، بل كلَّ ثانية!

متى انزلقت رجلُكَ في هذا الجنون الذي لا يناسبُ عمرَكَ يا حزين؟ وما الذي أحببتَه فيها على وجه الدقة وأنت لا تعرفُ عنها إلا ما يُمكنُ لطبيبٍ أن يعرفه عن امرأة تقص عليه قصة حالةٍ وتطلبُ منه تشخيصَها؟

ربما جذبَه فيها شخصيتُها الثابتة والقوية، حضورُها الطاغي، لا مُبالاتها العنيدة أمام هيبة الطبيب النفسي التي تُربكُ زائريه في العادة، صوتُها الرخيم ونبرتُها الهادئة والمُنتظمة. أو ربما شدَّه حبُّها لأختِها وإصرارُها على البقاء بجانبها كأختٍ كبرى رغم سوء معاملة أختِها إلى حدِّ أن تحبسَها في قبو.

لا يعرفُ ماذا أخذَه فيها على وجه الدقة، لكنه يعرف أنَّه مأخوذ.

ورغم ذلك كان يشعر بوجل غير مفهوم منها ومن تلك القصة برمتها، تلك القصة التي تحكيها بأكثر مما يمكن لامرأة عادية من الثبات وهي تحكي عن صعوبات تعيشها تبلغ هذا الحد من الفظاعة. امرأتان كبيرتان تعيشان وحدهما في بيت خاص، إحداهما تسجن الأخرى في قبو وتعذبها، امرأتان لم تتزوج أيٌّ منهما يومًا ما، وليس في حياة إحداهما سوى الأخرى، ورغم ذلك تعذب صغراهما الكبرى وتحبسها، وتلك الكبرى بدل أن تسعى للهروب عندما يعن لها ذلك تجيء إليه من وقت لآخر لتطلب منه المساعدة لأختها التي لا تريد زيارة طبيب نفسي ليعالجها من أوهام رأسها الخَرِب!

جاءتْه في ذلك اليوم مستنفرةً مثل غزالةٍ مذعورة، ولأول مرةٍ منذ عرفها يراها منفعلةً إلى هذا الحد، كانت لغةُ جسدها تقولُ إنها جاءت من مكانٍ حدثت فيه كارثة، وأمام حركة يديها المرتبكة وصوتِ أنفاسِها السريعة الذي يسمعُه بوضوحٍ وجدَ نفسه عاجزًا عن أيِّ رد فعلٍ رغم كونه طبيبًا نفسيًا يقصدُه المرضى ليُساعدَهم على تخطي حالاتٍ من هذا القبيل!

"لقد قامت القيامة عند أختي رئيفة!"

قالت وهي تُحاول استجماع أنفاسها المتقطعة.

"اهدئي من فضلك، ثم احكي لي ما حدث بالضبط!"

قال وهو يمد لها كأسًا فيه ماء، شربت وازدردت ريقها بصعوبة، سمع صوت أنفاسها اللاهثة وهي تحاول تهدئتها..

"فُتح موضوع ميسون أبو سعدة من جديد، وكأنَّ ما نحن فيه من مشاكل لا يكفي!"

"مَن هي ميسون أبو سعدة؟"

"صديقةٌ قديمةٌ لرئيفة، تلك حكايةٌ طويلة وتجلب الاكتئاب، كنا تخطيناها بصعوبة منذ تسعة عشر عامًا، وها هي تُفتحُ الآن فجأةً وبطريقةٍ أكثر ضراوةً مما في المرة الأولى. ما أفظع هذا!"

"إنني لا أفهم شيئًا، هلا أفهمتِني من فضلك؟"

"كانت ميسون إحدى ساكنات شقة العباسية؛ الشقة التي أقامت فيها أختي أثناء دراستها. هي فتاةٌ سيئة الحظ بليت بأب متسلط وإخوة ظالمين، درست الطب مع صديقتها ليلى وصاحبة الشقة التي شاركتها إياها حتى موتها، وعلى الرغم من بعدها عن أبيها وإخوانها بحجة الدراسة لم تكن تخلص من أذاهم أبدًا، دائمًا كانت تُعد لها مصيبة، ودائما كانت فاقدة القدرة على احتمال تلك النوعية من الحياة؛ حيث تكون كامرأةٍ أداةً –بحسب وصفها– يستخدمها ذكور العائلة لإثبات سطوتهم والمباهاة بكونهم رجالا وقدرتهم على إمضاء الرأي.

في العام 111 حاولت الانتحار بقطع شريانٍ في يدها، لكنَّ صديقتها ليلى أدركتها قبل أن تغادرها الروح. ثم كررتْ المحاولة في أبريل 115 بالقفز من شرفة حجرتها التي تقع في الطابق الثاني عشر، ولحظها السيئ علقت في منشر غسيلٍ غريب في الطابق العاشر وخرجت من هذه

المحاولة بكسر في الذراع الأيمن ورضوض لم تستغرق أكثر من شهرين لتُشفى. تخيل حجم الحنق الذي لا بد أنه أصاب إنسانةً بائسة كلما حاولت الانتحار تدخّل أحدٌ ما!

عندما تعرفت عليها رئيفة، بعد محاولتها الانتحار في **115** بالقفز من شرفة غرفتها، تقاربتا جدًّا في وقت قصير، وكان ذلك مخالفًا لتوقعات الجميع، إذ كنَّ يرين ميسون شخصًا مُستعصيًا على تكوين الصداقات، وكُن يستغربن أن تكون بينها وبين ليلى علاقة تصفُها ليلى بالصداقة الهادئة.

الحاصل أنهما صارتا صديقتين مُقربتين حتى بعد أن تركت رئيفة شقة الطالبات، ظلتا على تواصل طوال الوقت رغم ما كان يعتري ميسون من حالات نفسية شديدة الكآبة وميول انتحارية لم تكن تخفيها عن رئيفة، ولأنها تعرف أنها لن تستجيب لنصحها في هذا الموضوع، ولخشيتها من أن تُنهي الصداقة التي بينهما كما فعلت مع ليلى التي سطحت علاقتها بها فاقتصرت على علاقة المُستأجرة بصاحبة البيت بعد أن وبختها على إسراعها مثل طفلٍ صغيرٍ نَزِقٍ إلى إنهاء حياتِها كلما داهمتْها الكآبة، لم تكن رئيفة تضغط على جروحِها أو تقلل من معاناتها، كانت تكتفي بأن تحبَّها وتطلب منها الدعم طوال الوقت وبأن تكلمَها عن أفكارها الانتحارية التي راودتها في الماضي وكيف تغلبت عليها، مُعتقدةً أنها قد تتردد إذا حاولتْ مرةً أخرى عندما تذكرُ أنَّ لها صديقة لا تستطيع مواجهة الحياة بدونها.

وفي عام 118 حاولت الانتحار للمرة الثالثة بابتلاع شريط دواء مُسكن، لكن الأمور لم تجرِ كما خططت لها في تلك المرة أيضًا؛ إذ كان خطيبها يحاول الوصول إليها ولا يستطيع، فدفعه القلق إلى طرق باب الشقة في الواحدة بعد منتصف الليل، وأمام دهشة ليلى لم ينتظر جوابًا لسؤاله عن ميسون واتجه إلى غرفتها وكسر الباب، وكان ما يخشاه؛ وجدها ممددة على سريرها وعلى المنضدة إلى جانبها علبة دواء فارغة، ابتعلت كل ما كان فيها من الحبوب المُنومة.

وأُنقذتْ في تلك المرة أيضًا كما في المرتين قبلها. وبعد خروجها من المشفى كانت رئيفة تجلس إلى جوار سريرها في البيت هلوعةً وحزينة، لكن ميسون كانت، على غير الطبيعي في مثل هذه الحال، منطلقة الأسارير ميالةً إلى الضحك والإضحاك. قالت لها:

"هذه المرة أنا التي أخطأت، على الإنسان أن يكون صريحًا، أنا لم أجد إلا اليوم الذي كان مُقرَّرًا أن أذهب إلى معاوية وأمه فيه للاحتفال بمشروع حماتي الجديد، طبعًا الرجل توقَّع ما قد يكون حدث عندما لم أذهب! في منتهى الذكاء أنا؛ أليس كذلك؟

قالت وضحكت ضحكةً عذبة، ضحكةَ إنسانٍ لا يحملُ همًّا في قلبه.

"كلما تأخر هذا الأمر يصير أصعب.."

قالت بنفس النبرة المنطلقة والضحوكة.

"الآن أجدُ عجزًا في طرق الانتحار، لا أعرف كيف سأتخلص من حياتي بعد الآن وبعد الطرق التي استنفذتُها. هل عندك طريقة جديدة للموت ولا تستغرق وقتا طويلاً حتى تطلع الروح؟"

لم تُجبْها واكتفت بتصويب نظرة دامعة وعاتبة.

"بعد كلِّ محاولة غير مكتملة أفقد فرصةً للخلاص، إذ أنني على عكس ما قد تتخيلين جبانةٌ جدًّا؛ لا يغُرَّنَّكِ أنني أُقدمُ على التخلصِ من حياتي بهذه السهولة، أنا جبانةٌ إلى درجة أنني لا يُمكنُني أن أكرر طريقةً استخدمتُها من قبل. عندما حاولتُ للمرة الأولى بقطع شريان يدي عانيتُ ألمًا فظيعًا ولا نهائيًّا، ما زلتُ أعاني منه حتى الآن، كنتُ أشعرُ بدمي يُوجعُني، لن تفهمي ماذا يعني ذلك لكنه كان فظيعًا، قطعتُ شريانًا واحدًا فقط لكن جسمي كله استحال إلى شريانٍ كبيرٍ سمعتُ صوتَه وهو يُصفِّي دمه، وظلَّ المعدنُ يحزُّني طوال تلك الدقائق التي كنتُ واعيةً فيها، كان يذبحُني، أنا ذلك الشريان الهائل، مُصدرًا في أثناء احتكاكه بدمي صوتًا لم يخرج من أذني طوال ذلك الوقت، صوت "طلوع الروح"، هذه المقطوعة ألفتُها بعد تلك المحاولة الفاشلة للموت، لم أفعل أكثر من ترجمة الصوت الذي سمعتُه وأنا أُصفِّي دمي إلى موسيقى.

في المرة الثانية حاولتُ فعل ذلك بالقفز من الشرفة. لا تستطيعين أن تتخيلي فظاعة ما شعرتُ به وأنا أسقطُ حتى علقتُ في حبال الخالة سعاد التي في الطابق الثامن، كان إحساسًا مُريعًا بالبرد وعدم القدرة على التنفس.

في هذه المرة كنت أظنُّ الأمرَ سيكونُ أقل إيلاما، وقد خاب ظني. ربما كنتم ترونني غائبة عن الوعي، لكنني كنت أشعر وأعاني في العالم الذي أنا فيه، تقلص شديد في بطني وعضلاتي كأنَّ آلة عملاقةً تعصرني وتسحقني.

ما أسهل الموت عندما يأتي وحده، وما أصعبَه عندما تُحاولينه".

***

وفي يومٍ من أيام يوليو عام 123، أي منذ حوالي ثمانية عشر عامًا، زارت ميسون ليلى في بيتها، كانت سعيدة كما لم ترها من قبل وكانت على عجلةٍ شديدةٍ من أمرها، أهدتْها آلة الكلارينيت خاصتها وأسطوانة عليها مقطوعتها الوحيدة "طلوع الروح" وقالت إنها سوف تسافر وتبدأ حياة جديدة، لم تسألها إلى أين ولا كيف، ولا ميسون كانت تمتلك متسعًا من الوقت لتُخبرها بالتفاصيل، كانت سعيدةً وكانت رئيفة سعيدةً لسعادتها، واتفقتا أن تظلا على اتصال.

كان ذلك عصرًا، وفي تلك الليلة وبينما كانت رئيفة تُفتش في قنوات التلفاز عن شيء تُسلي وقتَها به وقع نظرُها على مشهد زحامٍ وقلقٍ في مكانٍ بدا لها أنها تعرفه، توقفت عن التقليب لترى ما الأمر. كان المكان أمام شقة العباسية، على الأرض ثمةَ جسمٌ مُغطًّى بورق جرائد وصوت المذيع يقول إن امرأة في حوالي الرابعة والثلاثين من العمر وتُقيمُ في شقةٍ في الطابق الثاني عشر من هذه البناية انتحرت قفزًا من الشرفة، وهناك شاهد عيان على الشاشة يظهر في بيجامة بيتية مُخططة وشعر لم يُزاوله البلل، كان ذلك عمّ أمين جارهم الذي يسكن في الشقة المُقابلة، قال إنها ليست أول محاولة انتحارٍ لها، وأنه بنفسه شهد محاولةً سابقة بنفس الطريقة، القفز من الشرفة، قبل ثمان سنوات.

في ذلك الوقت كادت رئيفة تُصاب بالجنون، كيف تنتحر فجأة بعد أن كانت معها في أسعد حالاتها النفسية وتقول إنها سوف تبدأ حياة جديدة؟ كيف تنتحر بعد أقل من ست ساعاتٍ على لقائهما؟ وامتلأت غيظًا منها وحنقًا على نجاحها في أن تخدعها.

دخلت في دوامة من التفكير مُحاولةً تفسير هذا الأمر، قد تكون حالتها النفسية انقلبت انقلابًا سريعًا ودخلت في اكتئاب حاد بعد أن تركتها، وقد تكون زارتها وتظاهرت بالبهجة والانطلاق حتى تستطيع أن تخدعها وتمنع احتمال أن يُقاطع أحدٌ محاولتها هذه المرة كما حدث مرارًا من قبل، ثم إن سعادتها وحالتها النفسية المبتهجة ليست مؤشرًا على شيء؛ أليست هي التي كانت تضحك وتُضحك من حولها على سرير المشفى بعد محاولة انتحار فاشلة؟

وبعد أيام من الحادثة عرفت من خطيبها أنهما كانا قد اتفقا على الزواج والسفر رغمًا عن أهلها في تلك الليلة نفسها، كان مُشوشًا وحزينًا ويلوم نفسه، لم يكن عليه أن يتركها وحدها بعد موافقتها المُفاجئة على الزواج، كان عليه أن يشك؛ طوال حوالي عشر سنين وهو يُحاولُ أن يقنعها بالزواج منه والذهاب أينما تحب بعيدًا عما تطاله يد أهلها ورغمًا عنهم، وطوال عشر سنين وهي تقول له: "لن أُفيدك"، ما الذي تغير فجأةً حتى تقول له بعد أن انقطع أمله منها: "هل ما زلت تريد أن أكون زوجتك؟"

آه يا ميسون! كيف استطعتِ أن تُنيِّمينا جميعًا لتستطيعي أن تموتي كما لطالما أردتِ بشدة!

شعرت رئيفة بالغضب منها وحقدت عليها، كانت في أشد استيائها لأنها خدعتها، لعنتها مرارًا وأقسمت قسمًا مُغلَّظًا أنها لن تنطق اسمها مرة أخرى، ومنذ أقسمت ذلك القسم صارت ترى ميسون في كل ركن في الشقة وفي كل جنب من البيت بعد انتقالها إليه، كانت تراها تجلس على تلك الأريكة أو تستند بمرفقها إلى ذلك الجدار، طوال سنين رأتها ولكن لم تقل شيئًا قط، فقط كانت تنظر إليها نظرات ثابتة لا تستطيع رئيفة تفسيرها رغم محاولاتها، كثيرًا ما صرخت في ذلك الطيف، كثيرًا ما طلبت من شبحها أن يتركها وشأنها، حتى أنها ترجتها غاضبةً أن تنشغل عنها بالمصير الذي اختارته لنفسها، ولم يكن الطيف الذي كانت تراه يبدي أي رد فعل، ولم يكن يتوقف عن الظهور كل يوم.

لقد كانت أيامًا عصيبة، لشهورٍ بعد موتها حبست رئيفة نفسها في البيت لا ترى أحدًا ولا تدع أحدًا يراها، حتى كانت أحيانًا ما تتهربُ من مقابلةِ لميس، وكنتُ أظنُّ أنها لن تستطيع أن تتجاوز تلك المحنة، لكنها فعلت، أو أن هذا ما بدا لي.

***

كان كلُّ شيءٍ مستقرًا إلى حد كبير، وكانت معاناة رئيفة من ذلك الموضوع لا تجاوز الظهور الصامت لميسون منذ ذلك الوقت حتى منتصف ديسمبر الماضي، وقتها بدأت تراودها الكوابيس عن ميسون بلا انقطاع، أكثرها تكرارًا كابوس تراها فيه واقفةً بباب غرفتها في شقة العباسية

وهي ملفوفةٌ بورقِ الجرائد ورأسُها مُهشم يتقاطرُ منه الدم وتقول لها تلك الكلمة التي قالتها عندما كانت إلى جانبها إثر تناولها علبة الدواء من أجل الانتحار:

"أنا جبانةٌ إلى درجة أنني لا يُمكنُني أن أُكررَ طريقةً استخدمتُها من قبل"

وكمريض استردَّ ذاكرته فجأة كانت رئيفة تروح وتجيء في البيت بحركة متوترة وتصرخ من وقتٍ لآخر: "لا يُمكن أن تكون قد قفزت من الشرفة بنفسها، لا يُمكنها فعل ذلك!"

ومنذ يومين زارتنا امرأةٌ سمراء في منتصف الأربعينات تقريبًا، قالت إنها بنتُ العمِّ أمين الذي يسكن الشقة المُقابلة لشقة العباسية، وأنها بحثت كثيرًا عن أي واحدة ممن كنَّ يسكُنَّ تلك الشقة لتتخلص عندها من ذلك الثقل الذي يجثم على صدرها منذ عشرين عامًا..

قالت لرئيفة:

(في تلك الليلة انقطعت المياه بينما كان أبي يستحم، فناداني لأناوله أيَّ زجاجة ماء ليزيلَ الصابون عن نفسه، ولما كنتُ قد نسيتُ أن أملأ الخزان فقد هرعت بقارورةٍ كبيرةٍ إلى الشقة المُقابلة، الشقة التي كنتِ تسكنينها وكانت تسكنها السيدة ميسون رحمها الله، طرقتُ ففتحت لي بابتسامةٍ واسعةٍ على وجهها، استسمحتُها أن أملأ القارورة من عندها إذا كان في خزانها ماء، فوافقت بحفاوة وأرشدتني إلى المطبخ، وكان

باستطاعتي وأنا أدخلُ أن أرى حقيبة سفرٍ خضراء في الصالة فخمنتُ أنها تستعدُّ لمغادرة الشقة وأن عليَّ الإسراع كي لا أُعطلَها. وعندما وصل الماءُ إلى الجزء الأعلى من القارورة وكفَّ عن أن يُصدر صوتًا سمعتُ جلبةً في الخارج وصوتَي رجلين، وسمعتُها تتكلم معهما بانفعال..

"أنتِ أمينة؟"

"أيّ أمينة؟ ماذا تُريدون؟"

"ألم نقل لكِ أنكِ إذا لم تتوقفي عن النبش في قضية وفاء شتا ستكون العواقب وخيمة؟"

عرفت فورًا أنهم يقصدون أمينة محفوظ، صحافية تقيم في الشقة التي تعلو شقتكم مباشرة، في الطابق الثالث عشر..

"مَن وفاء شتا؟ مَن أنتم؟"

صرخت فيهم.

"مَن يُوجد في الشقة غيرك؟"

"لا أحد"

"هذا أفضل"

واستطعت بعد ذلك أن أفهم أنها اشتبكت معهم وكانت تحاول التخلص منهم، لم يدم ذلك أكثر من عشر ثوانٍ لم تكن كافيةً لأستطيع التفكير في تصرف مناسب، تخيلي أنني كنت أعرف أنهم لا يقصدونها هي، كنت أعرف من يريدون بالضبط، لكنني خفت أن أصدر صوتًا، لقد

حماني من الموت يومها أن مياه الصنبور كانت قد وصلت إلى أعلى القارورة فكفت عن إحداث صوت، وحمتني السيدة ميسون عندما سألوها إذا ما كان يوجد في الشقة أحد غيرها فقالت: لا. بعد ثوانٍ سمعتُ صرخةً شقت قلبي، تبعها صوتُ ارتطام رهيب.

سمعت خطوات الرجلين، أو ربما كانوا أكثر إذ لم أسمع غير صوتين مختلفين دون أن أمتلك الجرأة على أن أطل برأسي لأرى، سمعتُ خطواتهما يخرجان من الشقة، وعندها هرعتُ إلى شقتنا بقارورة الماء التي ناولتها لأبي وأنا ذاهلة، سألني بعصبية:

"أين كنتِ طوال هذا الوقت؟ ما هذا الصوت الذي دوّى الآن؟"

ولم أُجب. غسل أبي نفسه من الصابون وأطل من الشرفة ليرى ما الأمر، وفور أن أرى احتشاد الناس بالأسفل هبط مسرعًا، ولم يصعد إلى الشقة إلا بعد منتصف الليل. وفي اليوم التالي شاهدتُه على التلفاز وهو يقول بأنه شاهدٌ على محاولة انتحار سابقة لها قبل ثمانِ سنين، بكيت لثلاثة أيام وأردت أن أخبره، ترددتُ كثيرا، وحين أخبرتُه بما أعرف كان مذهولاً وحزينًا، لكنه أمرني ألا أحكي ذلك لأي إنسانٍ مهما حدث، لأن الذين قتلوا تلك السيدة بهذه الطريقة وخرجوا من البناية بينما الدنيا ما زالت صحوًا لن يُعييهم أن يفعلوا نفس الشيء بعائلتنا كلها.

سكتُّ، ولكنني ظللتُ أحمل ذلك السر مثل جمرةٍ في صدري، وطوال تلك السنوات لم تُفارقني صورة السيدة عندما فتحت لي الباب

تلك الليلة وهي تبتسم. كانت جميلة ساعتها أكثر من أي وقتٍ مضى، ولم أكن لأتخيل وهي تبتسمُ في وجهي وتقول لي "على الرحب" أنَّها ستكون بعد خمس دقائق فقط جثةً مُكومةً في الشارع وقد غطاها الناس بالجرائد. هذه الدنيا غريبة!).

لماذا عادت إلى ذاكرةِ رئيفة تلك التفاصيل ساعتَها فجأة؟ ذاكرةُ الإنسان عجيبةٌ يا دكتور! لقد كانت تعرف ما قالته ميسون لها من قبل؛ إنها أجبن من أن تنتحر بطريقة جربتها من قبل، لكن لماذا لم يخطر لها قط قبل الوقت الذي أوشكت فيه أن تعرف الحقيقة؟! ثمة دائمًا ما هو عجيب في أقدار الله!

أتكون هذه هي الميتة التي حظيت بها ميسون أخيرًا بعد كل تلك المُحاولات الدائبة للموت؟ هكذا ببساطة؛ بدلاً من شخصٍ آخر؟!

حقًّا ما أسهل الموتَ عندما يأتي وحدَه، وما أصعبَه عندما نُحاوله!

الجلسة الخامسة

السبت 22 يناير 141 ع.ج

كيف يقع الإنسان في الحب؟

عندما ذهبت إلى عيادتِه في تلك المرة كانت تحمل معها رزمة أوراقٍ قديمة في ملف جلديٍّ أصفر، كانت مُنطفئةً وخائفة، قالت إنها لا تشعرُ أنها بخير، ولا أنها سوف تكونُ بخيرٍ بعد الآن. حاول أن يُخفف عنها لكن الحزن الذي كان يعتصرُها كان أقوى من أن يتمَّ تخفيفُه. طلبت منه ألا يحاول مواساتها كأنها طفلةٌ صغيرة جرحت ركبتها وهي تلعب، كل ما تريدُه منه أن يستمع إليها فقط.. دون شفقة، ودون أن يكونَ طبيبًا نفسيًّا مُضطرًّا لإصدارِ حكمٍ على حالة.

كانت أقصرَ الجلساتِ الخمس، تكلَّمتْ فيها بدونِ توقُّفٍ وبدونِ تفكيرٍ فيما ينبغي وما لا ينبغي أن يُقال، لم تكن تردُّ على أسئلتِه ولا تعليقاتِه التي كان يُلقيها بينَ الحينِ والآخر، كأنَّها لم تكن تسمعُه. ظلَّت، بصوتٍ مكدودٍ وملامحَ مهدودة، تهدرُ الكلامَ مثلَ صنبورٍ تعطَّلَ مفتاحُه، فبلَّلتْه وتقاطرَ ذلك البللُ من عينيه بعدَ أن تركتْه.

***

"ماذا أجرمتُ في حقِّ أختي حتى لا تُحبَّني كما أستحقُّ أن أُحَب؟ لم أفعل سوى أنني خفتُ دائمًا عليها، نعم كنتُ قاسيةً أحيانا، كنتُ فظةً

أحيانًا ومُخيفة، لكن أحيانًا لا يكونُ بوسعِكَ أن تعرفَ ما عليكَ فعلُه لتحميَ شخصًا مريضًا بالوهمِ من نفسِه، لتمنعَه من إيذاءِ نفسِه بالأشخاصِ الذين يخترعُهم في خيالِه. عندما كانت في الخامسةِ اخترعتْ شخصيتي مُوشكا والفتى المدعو زاي، وعندما كانت في التاسعةِ اخترعت شخصيةَ أمِّ جمعان التي تُعاقبُ النساءَ الشريراتِ اللواتي يُعذِّبن الأطفال، وقالت إنَّ أمَّ جمعان تلك هي التي قطفتْ ثديَ زوجةِ عمِّنا عقابًا لها على إحراقِها بالملعقة، وعندما كانت في الأوَّلِ الإعداديِّ كانت تُتوِّهُها الجغرافيا وتجدُ صعوبةً في تذكُّرِ أسماءِ البلادِ على الخرائط، فكانت تؤلِّفُ الإجاباتِ وتخترعُ بلادًا جديدةً ولكي تُقنعَ نفسَها بصحةِ إجاباتِها كانت تتخيلُ المُعلِّمَ أمامَ السبورةِ يُسألُ عن اسمِ هذا البلدِ فيقولُ (زرقة) ويُسألُ عن اسمِ ذلك الوادي فيُجيبُ بأنَّه (وادي المصاعيق)، وعندما كانت في الثانية عشرةَ وواتَتْها أوَّلُ حيضةٍ وعرفتْ معنى الحيضِ أخذتْ تُسمِّي كلَّ بيضةٍ فاسدةٍ وتُحصي الأطفالَ الذين فقدتْهم طفلاً بعدَ طفلٍ وتقولُ كلَّ شهرٍ إنَّ جسمَها يُقيمُ حدادًا ويُشيِّعُ جنازةَ الطفلِ الرابع، الطفلِ العاشر، الطفلِ الحادي والثلاثين، وكلَّما وجدتْ دمًا قالتْ: "كيسُ العَيِّلِ يبكي". في الثالثةَ عشرةَ تحرَّشَ بها أمينُ المكتبةِ عندما سرقتْ –للمرةِ الوحيدةِ في حياتِها– كتابًا وخبَّأتْه في قميصِها فاخترعتْ لكي تستطيعَ تجاوزَ الأمرِ شخصيةَ الشيخِ حكيم الذي يُقيمُ في أسقفِ المكتباتِ ويمنعُ الأساتذةَ من التحرشِ بالبناتِ اللواتي يُحببنَ الكتب. وهكذا على مدارِ عمرِها كانت كلما عانتْ صدمةً ما

اخترعتْ شخصيةً خياليةً لتخرجَ منها، ولا أدري ما الصدمةُ التي عاشتْها بعدَ أن تركتْني وجاءتْ إلى المدينةِ وحدَها حتى اخترعتْ شخصيةَ ذلك الرجلِ وأنجبتْ منه ولدًا، لكن كانَ عليَّ أن أتصدى لذلك بأقصى ما أملكُ من قوة!

ما الذي حصلتُ عليه مُقابلَ محبتي لها وخوفي عليها؟ الحبسَ والإهانةَ وهدرَ الكرامةِ والجحود. لقد قلتُ لها: "يا رئيفة، يا أختي التي أُحبُّها أكثرَ من عينيَّ وأكثرَ من حياتي، لماذا لا تفكرين فيَّ؟ ماذا سيحصلُ لي أنا إذا جرى لكِ شيء؟ أنتِ تعرفين أنني سأموتُ إذا مِتِّ أنتِ، إنني لا وجودَ لي إذا لم تكوني موجودة، فلماذا لا تقلقين بشأني ولو ربعَ ما ظللتُ أقلقُ بشأنِكِ طوالَ حياتِنا؟ واظبتِ على تستيفِ أوهامِكِ واحدًا فوقَ الآخرِ حتى وَرِمَ دماغُك، والآن بعدَ أن لم تُجدِ الكيمياءُ ولا الإشعاعُ سيحتجزونَكِ في المشفى، ماذا سأفعلُ أنا إذا ذهبتِ؟ لماذا لا تحسبين حسابي؟"، فقالت لي: "لا تقلقي؛ سأتخلصُ منكِ قبلَ أن أذهبَ إلى أيِّ مكان، في الأساسِ كانَ يجبُ أن أفعلَ هذا منذ سنين طويلة، لم يكن ينبغي أن يمرَّ كلُّ هذا الوقتِ وأنتِ موجودة"!

تصور أنَّها تريدُ التخلصَ مني! بعدَ كلِّ هذا تريدُ التخلصَ مني. لكنني عذرتُها، قلتُ يأخذُ العلاجُ رأسها ويُفقدُها الصبرَ وعليَّ أن أحتملَها، وعندما خرجتُ إليها من القبوِ أمس لأواسيَ آهاتِها وأكونَ إلى جانبِها صفعتْني بظهرِ يدِها وطردتني، تخيل!

غدًا ستذهبُ إلى المشفى ولا أعرفُ متى ستعود، وبدلاً من أن تميلَ عليَّ كما تميلُ أختٌ على أختِها وخلاصةِ روحِها وتطلبَ مساعدتي ما زالتْ تنادي حيَّانَ ليُسندَها إلى الحمَّامِ وتهمسُ باسمِ مُحمَّدٍ عندما تكونُ بين النومِ واليقظة، حتى وهي تذوي وتذوبُ ما زالتْ تدفعُني بعيدًا عنها. تخيل!

عندما أدركتُ أنني لا أعنيها وأنها لم تعُد تأبه بي قلتُ لنفسي: "لأكفَّ عن القلقِ بشأنِها إذن ولأقلقْ بشأني أنا"، قلتُ لها: "لم يعد يعنيني ما قد تفعلين في نفسِك، عيشي حياتَكِ أو احرقي دماغَكِ أو اذهبي إلى الجحيم، لكن أنا لا أريدُ أن تنتهي حياتي بسببِ غبائكِ ورأسِك المريض، لذلك ليس بإمكانِك أن تتخذي أيَّ قرارٍ وحدَك"، فابتسمتْ ابتسامةً واهنةً وساقتْني قسرًا إلى القبوِ وأغلقتْ عليّ.

برغمِ خيبتي فيها غيرَ أنَّ حزني عليها أكبر، وخوفي على نفسي أعظمُ منهما".

***

مكتبة
t.me/soramnqraa

"تفضل يا دكتور"

قالت وهي تناوله الملف الذي كان معها.

"هذه هي روايتها التي لم تنشرها، أخبرتك عنها من قبل، كل أحداثها حقيقية ما عدا ما يتعلق بمحمد وابنها الخيالي، أريد منك أن تقرأها وترى بنفسك كيف يمكن لإنسانٍ أن يتخيل ويتخيل حتى يشنقه خياله".

سألها أسئلة كثيرة لم يبد له أنها سمعتها، كان يشعر أنها لا تسمعه ولا تراه، خوَّفه ذلك كثيرًا، شيءٌ ما في اختلافها هذه المرة عن كل مرةٍ يُنذر

بكارثة توشك أن تحل، أراد أن يفعل شيئًا، أن يفعل من أجلها شيئًا، لكن لم يكن يعرف ما الذي في إمكانه أن يفعله.

***

"بالإذنِ يا دكتور. لا، لا تحاولْ أن تقولَ شيئًا، ليحصلْ ما سيحصل، وعليَّ أن أواجهَ مصيري بشجاعة".

قالت وأسرعت بالخروج من عنده دون أن تنتظر رده.

الأحد 20 مارس 141 ع.ج

تركَ له تأخرُها عليه وقتًا فضفاضًا حاولَ أن يحبكَه على جثةِ صبرِه النافق، كان قد بدأ منذ أيام قراءة الأوراق التي تركتها له، تحملُ اسم (ملهاة الحمام والتأريخ وطلوع الروح)، الرواية الوحيدة التي تحتفي بها رئيفة علاء الدين دون أن تنشرها، فتحَها مدفوعًا بفضولِه، يريدُ أن يرى عن قربٍ ما حكتْه له.

عندما فتحها هذه المرة لم يغلقها إلا في الصفحة الأخيرة، وبعدَ أن أنهاها أيقنَ أنّه أمامَ مريضةٍ حقيقيّةٍ تمتلكُ قدرةً مخيفةً على اختراعِ الشخصياتِ الوهميةِ ونسجِ الأحداثِ حولَها حتى لتبدو حقيقيةً تمامًا، قالتْ له هِندة إن معظمَ ما في الروايةِ حقيقي وأنّها بمثابةِ تأريخٍ للأحداثِ التي عاصرتْها خصوصا عَشريَّة (التمرد الخبيث) التي تمتد من عام 112 ع.ج حتى 122 ع.ج، لكن الباقي من الكلّ بعدَ هذا المعظمِ، الرجلَ المدعوّ مُحمّدًا والطفل، يبدوان في حديثِها عنهما حقيقيَّين إلى حدٍّ جارح، ولولا أنَّ هِندةَ أخبرتْه بحقائقِ الأمورِ وبمرضِ أختِها ما صدَّقَ أنَّ هاتين الشخصيتين هما مجرَّدُ طيفين من وحيِ خيالِها!

"نحن هنا لسنا أمامَ مُخيِّلة روائيّةٍ قديرة؛ لا، إنها تقولُ في المقدمةِ إنَّ جميعَ الأحداثِ حقيقيّة، يعني أنّها تُقدِّمُ هذا الرجلَ وهذا الطفلَ كإنسانين

حقيقيَّين أيضًا مثل بقيةِ شخوصِ هذه المذكّرات؛ إنَّها مريضةٌ فعلا وأكثرُ مما تصورتُ من كلامِ أختِها!"

قالَ لنفسِه وهو يجمع الأوراق في الملف ويضعُه جانبًا. حديثُها عن أختِها بتلك اللهجةِ العدائيّة، تمسُّكُها بوهمَيها الخطيرين، وكلَّ ما مرت به، أخافَه كثيرًا على هِندة خاصةً عندما ذكرَ آخرَ جلسةٍ وكيف كانت حالُها فيها، وخوفَها من أختِها وكلامَها عن المصيرِ الذي لا بدَّ أن تُواجهَه بشجاعة. كم سبتًا مرَّ ولم تعد؟ ثمانية، لماذا صبرَ كلَّ هذا الوقتِ بينما يُمكنُ أن تكونَ حياتُها في خطر؟ لماذا لم يتخذ أيَّ إجراءٍ وقائيٍّ من أجلِ امرأةٍ تعيشُ مع مريضةٍ نفسيَّةٍ تخشى منها على حياتِها؟ أيُّ غفلةٍ هذه التي وقعَ فيها؟!

أسرعَ إلى عيادتِه التي لم تكن مفتوحةً لاستقبالِ المرضى في ذلك اليوم، وهناك فتحَ دولابَ ملفاتِ الحالاتِ وبحثَ عن ملفِّ هندة، توصلت يده المرتبكةُ إليه وبحثَ في معلوماتِ الاتصالِ فوجدَ عنوانًا فقط. دوَّن العنوان وخرجَ من عيادتِه على عجلةٍ كأنَّه يُسابقُ الموتَ إليها!

بعدَ خمسين دقيقة كانَ أمامَ البيت؛ بيت من طابقين بحديقةٍ صغيرةٍ يُسوِّرُها سورٌ من الحديدِ تتوسطُه بوابةٌ مفتوحة، دخلَ بعدَ تردُّدٍ قصيرٍ ووقفَ أمامَ البابِ الداخليّ العريض، ضغطَ الجرس، مرة.. اثنتين، فتحَ له شابٌّ طويلٌ بلحيةٍ خفيفة وحاجبين كثيفين..

"أهلاً بحضرتِك. مَن تُريد؟"

"أُريدُ السيدة هِندة علاء الدين"

قالَ بعدَ أن أمسكَ التفكيرُ لسانَه لبعضِ الوقتِ وتساءلَ: مَن يكونُ هذا الشاب؟! هل تراه أخطأ العنوان؟ ولكنه متأكد أنه هو!

"عفوًا؟ مَن تُريد؟ أعتقدُ أنَّك أخطأتَ العنوان"

"لا لم أخطأ، أنا واثقٌ من أنني في المكانِ الصحيح، كان هذا العنوان مُسجَّلاً في ملفِّ السيدة عندي"

"هل يُمكنُني أن أعرفَ مَن تكونُ حضرتُك؟"

"أنا طارق حرز الله، الطبيب النفسيّ الذي كانت تتردد إليه السـ.."

"آه نعم، سمعت عنك، تفضل يا دكتور، تفضل.."

دخلَ إلى حيث كانَ يُشيرُ مُضيفُه وجلسَ على أريكةٍ تتوسطُ الصالة، كانَ يتلفتُ حولَه كمن يبحثُ عن إجاباتٍ لكلِّ الأسئلةِ التي جاءت به في مكانٍ لم يبدُ له مريحًا.

"والآن أين السيدة هِندة؟"

"عفوًا يا دكتور، لا أعرفُ عمَّن تتحدثُ بالضبط!"

"أتحدثُ عن السيدة هِندة علاء الدين، هل يُمكنُك أن تُخبرَ السيدة رئيفة أنَّ شخصًا ما يُريدُ أن يتحدثُ إليها؟"

"لا يُمكنُني"

"أيُمكنُني أن أعرفَ السبب؟"

قالَ بتحفزٍ وقد مالت نبرتُه إلى العدائية..

"لأنَّها ماتت قبلَ أكثرِ من شهر"

جمَّده الردُّ لوهلةٍ لم يعرف فيها ماذا عليه أن يقول..

"البقاء لله، عظم اللهُ أجرك"

"ونعم بالله"

"معذرةً، هل يُمكنني أن أعرفَ مَن تكون حضرتُك؟"

"أنا حيَّان، حيَّان مُحمَّد فريد، ابن السيدة رئيفة"

صعقه هذا الجواب، لا يُمكن؛ لا يُمكن أن يكون هذا الشاب يقول الحقيقة. ما الذي يجري هنا؟ كيف يُعقل؟ هذا الشخصُ لم يكن حقيقيًّا في يومٍ من الأيام، لم يكن له وجودٌ ولا للرجلِ الذي يزعمُ أنَّه يحملُ اسمه، لقد حكتْ له كيف انبثقتْ هاتان الشخصيتان من وهمِ أختِها وحاصرتْ بهما نفسها، وهو يُصدّقُها، مَن هذا الشابُّ الآن إذن؟

"أنتَ تكذب"

قال بهجوم واضح وقد استنفر كل حواسِّه.

"عفوًا؟"

"ليس هناك أحدٌ بهذا الاسم. مَن أنت؟ ولماذا تنتحلُ هذه الشخصية؟"

"إنني لا أفهمُكَ يا سيد!"

"أتُراكَ واحدًا من قُرَّاءِ رئيفة علاء الدين؟ هل قرأتْ تلك المُذكراتِ وتقومُ الآن بمزحة؟ هل أعجبَكَ أن تُجرِّبَ تقمُّصَ شخصيةِ ذلك الطفل؟"

"أيَّ طفلٍ تقصد؟"

"أين السيدة هِندة؟ إذا كنتَ قرأتَ تلك المُذكِّراتِ وتقمصُ تلك الشخصية فأنتَ بالضرورةِ تعرفُ السيدة هِندة، أين هي؟ لا بدَّ أنها لا تزالُ في القبو، أين هذا القبو؟"

قالَ وبدأ يتحرَّكُ وهو يتلفتُ حولَه فأمسكَه الشابُ ليمنعَه..

"مكانَكَ أيُّها السيد، هلا احترمتَ حرمة البيت على الأقل! ماذا تظنُّ نفسَكَ فاعلاً وعمَّ ستبحث؟!"

"عن السيدة هِندة، أين تخفونَها؟! لا تقلْ لي ثانيةً إنكَ لا تعرفُها!"

"أنتَ على الأغلبِ تقصدُ هِندة التي في تلك الرواية.."

"بالضبط، أين هي؟"

"هي مكانَها؛ في الرواية!"

"هل تسخرُ مني؟"

"بل أنتَ الذي تسخرُ بالفعل، ماذا يعني أن تأتي إلى هذا البيتِ وتسألَني عن شخصيةٍ في رواية؟"

"تلك الرواية حقيقيّة"

"معظمُها حقيقيٌّ نعم، لكن ليس كلُّ مَن فيها أشخاصًا حقيقيِّين!"

"وهي أيضًا قالت هذا.."

"مَن هي؟"

"السيدة هِندة"

"ما زلتَ تقولُ هِندة! تلك المرأة غيرُ موجودة، كانت مُجرَّدَ شخصيةٍ في رواية، امرأةً من خيالِ أمي"

"إنك تكذب، الواقعُ أنَّ الشخصيةَ التي تنتحلُها أنتَ هي الخياليّة، لماذا تفعلُ ذلك؟ ما غرضُكَ من ورائه؟ متى ستُنهي هذه اللعبة؟"

"اللهم ألهِمنا الصبر! ماذا تُريدُ يا أيُّها السيد؟ هل جئتَ إلى هنا لتمزح؟!"

"ما أُريدُه واضح، أين السيدة هِندة؟"

"ما تُريدُه مُستحيلٌ لأنَّه لم تُوجد يومًا امرأةٌ اسمُها هِندة، كانت مُجرَّدَ شخصيةٍ اخترعتْها أمي لتؤديَ دورًا في روايةٍ وانتهى الأمر!"

"ها أنتَ تكذبُ من جديدٍ وأنا على يقينٍ أنَّ مَن في هذا البيتِ يخفون السيدة قسرًا ويُعذِّبونها، لسوف أفضحُكم!"

قالَ وهو يتلفتُ حولَه ليعثرَ على طريقٍ إلى ذلك القبو، حاولَ الشابُّ منعَه، وبينما يتدافعان توقَّفَ فجأةً كمَن وجدَ كنزَه المفقودَ وصاح:

"هذه هي، كيف تجرؤ أن تزعمَ لي أنَّها ليست حقيقيّة؟"

نظرَ الشابُّ إلى حيث يُشيرُ الرجل، وعلى منضدةٍ في أحدِ الأركانِ كانت تقفُ في صورةٍ بإطارٍ فضيّ، كلُّ شيءٍ فيها حيٌّ أكثرَ مما تحتملُه صورةٌ فوتوغرافيّة، عيناها الواسعتان، ابتسامتُها الصغيرة الساخرة والأليمة، عودُها النحيلُ تحتَ شالٍ فضفاضٍ من الصوفِ الأزرق، والرباطُ الضاغطُ على كفِّ يدِها اليسرى. كلُّ شيءٍ فيها كانَ حيًّا وناطقًا حتى ليصعبُ أن يتخيلَ المرء أنَّ صاحبةَ هذه الصورةِ تحتَ الترابِ الآن!

"هـذه هـي، الـسيدة هِنـدة عـلاء الـدين التـي كانـت تتـردَّدُ علـيَّ فـي عيادتي.."

"هذه أمي؛ رئيفة علاء الدين"

"أنتَ إمَّا كذَّابٌ أو هاوي تمثيل!"

"اسمع يا أيُّها السيد، هـذا البيتُ فيـه حالةُ حُزنٍ ولا يـصحُّ مـا تفعلُـه الآن، اخرج من هنا الآن لو سمحت"

قـال بـصوتٍ عـالٍ وغـضبٍ محمـومٍ بعـد أن فقـدَ صـبره، فظهـرتْ فـي الصالةِ سيدةٌ في الخمسين من العمرِ أقلقها الصوت.

"ماذا يحدث يا بني؟ مَن هذا؟"

"أنتِ، أيتُها المرأة، أين تحتجزون السيدة هِندة؟"

"لقد تماديتَ وجاوزتَ حدَّك، إذا لم تخرج من بيتي حالاً سأطلبُ لكَ الشرطة!"

"بل أنا من سيعودُ إليكَ مع الشرطة!".

***

تقرير نيابة قسم النزهة
في القضية رقم 9725 لسنة 141

إنه في يوم الأحد 20 مارس 141 ع.ج، تلقتْ نيابة قسم النزهة بلاغًا من السيد المدعو طارق حرز الله، الذي يعملُ طبيبًا نفسيًّا، باختفاء إحدى مريضاته التي تُدعى هِندة علاء الدين، 53 عامًا، والتي ترددتْ على عيادتِه الكائنة في شارع محمد كامل حسين بالنزهة في الفترة ما بين 27 نوفمبر 140 حتى 22 يناير 141، وعندما طالَ غيابُها ولم تحضرِ الجلساتِ المقررة لمدة 59 يومًا بدأ البحثَ عنها وتوصَّل إلى عنوانِ أختِها التي قالت له إنَّها تُقيمُ معها؛ السيدة رئيفة علاء الدين، 48 عامًا، كاتبة ومُترجِمة.

وعندما ذهبَ إلى العنوانِ الذي عثرَ عليه ليسأل عن السيدة هِندة قابلَه حيَّان مُحمَّد فريد، 22 عامًا، مُهندس ومُبرمج، وأنكرَ معرفتَه بامرأةٍ تُدعى هِندة، وقالَ إنَّ المرأةَ التي تعرَّفَ إليها السيد طارق حرز الله في صورةٍ فوتوغرافيّة في البيتِ هي أمُّه السيدة رئيفة علاء الدين والتي ماتت في الثالث من فبراير الماضي. ما دفعَ الطبيبَ الذي لم يُصدِّق شيئًا مما قيل له، والذي قال إنَّ السيدة هِندة كانت قد حكت له عن معاملةِ أختِها السيئة وعن حبسِها إياها في قبوٍ ببيتِها وعن تخوفِها من أنَّها قد تُقدمُ على

إيذائها، إلى التقدمِ ببلاغٍ من أجلِ العثورِ على السيدة التي يخشى أن مكروهًا قد وقع لها.

وانتقلت قوةٌ من النيابة إلى العنوان المذكور في ساعتِه وتاريخِه، وبتفتيش البيت لم يتمّ العثور على أيِّ قبو، وبسؤالِ السيِّد حيَّان مُحمَّد فريد -بعد التأكُّدِ من هويتِه- نفى معرفتَه بخالةٍ له تُدعى هِندة علاء الدين وأشارَ إلى أنَّ ذلك الاسم هو لشخصية خياليةٍ في روايةٍ كتبتْها السيدة رئيفة قبل أكثر من خمسة عشر عامًا، وقال إنَّ أمَّه لم يكن لها أختٌ في يومٍ من الأيام، وأنَّه لاحظَ عليها في الشهورِ الأخيرةِ من حياتِها بعضَ الاضطرابِ وسمعَها أكثرَ من مرةٍ تُكلِّمُ نفسَها فرجاها أن تستشيرَ طبيبًا نفسيًّا وألحَّ عليها من أجلِ ذلك خوفًا عليها، وأنَّها استجابت له. كما أكَّدتِ السيدة حُسنى متولي يكن، التي كانت مُساعدةَ أمِّه في شؤون البيت والمُقيمةُ معها لأكثرَ من خمسةَ عشرَ عامًا، أنَّها لم ترَ لسيدتِها يومًا ما أختًا، وأنَّها عرفتْها سيدةً وحيدةً ليس معها سوى ابنها المذكور ولم تتحدث يومًا عن أختٍ أو تذكرْ أمامَها اسمَ "هِندة".

هذا وقد تم تشكيلِ لجنةٍ من الأطباء النفسيين الآتي ذكرُهم:

- د. محمود عبد الملك القاضي/ أستاذ ورئيس قسم الأمراض النفسية والعصبية بجامعة القاهرة
- د. رأفت عيد مندور/ أستاذ ورئيس قسم الأمراض النفسية والعصبية بطب عين شمس

- د. سحر حمد الله شُكر/ أستاذ الأمراض النفسية والعصبية بطب طنطا

وبمُطابقةِ رأيهم العلميّ الذي أجمعوا عليه مع ما توصلتْ إليه تحرياتُ النيابةِ يُمكنُ تلخيص القضية في النقاطِ الآتية:

1- لا وجه لإقامةِ الدعوى الجنائية لعدم وجود جريمة، وبفحصِ أجهزةِ السجلّ المدنيّ لم يُعثر على قيدٍ لمواطنةٍ تُدعى هِندة علاء الدين.

2- لا وجود للقبوِ الذي أشارَ إليه السيد الدكتور طارق حرز الله، ولا صحةَ لما حكتْه له السيدة التي تعرَّفَ إلى صورتِها من أنَّه لا وجودَ لشابٍ اسمُه حيَّان مُحمَّد فريد إسلام، وبالتالي لا وجهَ لإقامةِ دعوى الانتحال.

3- السيدة التي كانت تتردَّدُ على عيادتِه، وبمُطابقةِ وقائعِ الشهورِ الأخيرةِ والتي حكاها السيِّد حيَّان مع تفسيراتِ لجنة الطب النفسيّ وتعرُّفِ السيد طارق حرز الله نفسِه عليها في أكثرِ من صورةٍ تم عرضُها عليه، وبعد سماع التسجيلاتِ التي سجَّلها لها في عيادتِه والتي أكَّدَ السيد حيَّان محمد فريد أنَّ الصوتَ الذي فيها صوتُ أُمِّه، هي نفسُها السيدة رئيفة علاء الدين.

وأنَّ المرحومةَ كانت تُعاني من اضطراب الهوية التفارقي، وهو اضطرابٌ نفسيٌّ يتوهَّمُ فيه المريض وجودَ أشخاصٍ لا وجودَ لهم في الواقعِ وحدوثَ أشياء متعلِّقة بالشخصيات الموهومة لم تحدث في الحقيقة، يصل به الأمر إلى تقمصِ تلك الشخصيات والعيش بشخصيتين مختلفتين.

الفصل الرابع

"أكثر الطرق فاعليةً لقتل السوسِ
العنيد هي البرودة"

الموت.. كانَ أمنيةً بعيدةَ المنال، أملاً خائبًا في ذلك المكانِ الواقعِ خارجَ العالم، خارجَ الحياة، خارجَ الزمان والمكان. هناك، حيث لم يكن يرى إلا العتمةَ ولم يكن يسمعُ إلا صرخاتِ الرجالِ تحتَ التعذيب، تعلَّم قيمةَ كلِّ فعلٍ بشريٍّ كان يبدو له من قبلُ تافهًا إلى حدِّ ألا ينتبه له. اشتاقَ لأن يصحوَ من النومِ وحدَه؛ دونَ أن يركلَه حارسُ الزنزانةِ بجزمتِه الضخمةِ في أيِّ مكانٍ من جسمِه تطالُه قدمُه الشريفة. اشتاق لأن يقضيَ حاجتَه في حمَّامٍ نظيف، لأن يُهذِّبَ ذقنَه، لأن يفرشَ أسنانَه، لأن يُسرِّحَ شعرَه بمشط، لأن يشربَ جرعةَ ماءٍ نظيفة، لأن يُنظِّفَ أنفَه بمنديلٍ ورقي، لأن ينظرَ في ساعةِ يد، اشتاقَ لأن يُنادى باسمِه، وهو الذي ظلَّ طوالَ اثنين وعشرين عامًا يُنادى بالرقم 23. تعالَ يا ثلاثة وعشرون، ادخل يا ثلاثة وعشرون، تقمَّص كلبًا يا ثلاثة وعشرون، العن أمَّك يا ثلاثة وعشرون، قبِّلْ جزمةَ سيدك ياثلاثة وعشرون..

***

كيف تسرَّب إلى حياتِه اليانعةِ كلُّ هذا الهول الأسود؟ وكيف انتقلَ فجأةً من فردوسِه الأرضيِّ إلى هذا الجحيم؟ أوقفوه في المطارِ بعدَ فحصِ أوراقِه وقالوا له: "إجراءات احترازيّة"، ومن يومِها وعلى امتدادِ اثنين وعشرين عامًا ظلّوا يحترزون منه، تعفَّنَ في زنزانةٍ تحتَ الأرضِ دونَ أن يعرفَ جرمَه ولا ما رابَ البلدَ منه، كلُّ الذي كان يعرفُه أنَّه يريدُ أن يعودَ إلى بيتِه، أن يُديرَ المفتاحَ في الباب، وأن يجدَها خلفَه، وأنَّ احتمالَ حدوثِ ذلك كانَ يقلُّ سنةً بعدَ سنةٍ حتى انتهى تمامًا.

أولَ ما اختطفوه أخذوه إلى فرع هيئة مراقبة التأقلم، دخلَ عليه رقيبٌ كريهُ الصوتِ في غرفةٍ يدخلُها النَّفَسُ من كوةٍ في السقفِ واستجوبه..

"لماذا كنتَ ذاهبًا إلى لندن؟"

"للحصول على شهادة الدكتوراة"

"تريدُ أن تكون دكتورًا إذن، يؤلمُني رأسي منذ أمس، ماذا عليَّ أن أفعل؟"

"لستُ طبيبًا"

"فيمَ كنتَ ستأخذ الدكتوراة؟"

"في العلوم السياسية"

"مالكَ بهما يا ابن الـ...؟ لماذا تتدخل فيما لا يعنيك؟ ما الذي كنت تخطط له؟ هل كنت من الذين خططوا للتمرد؟ تريدون أن تضيعوا البلد وتعودوا بها إلى الوراء يا أولاد الحرام؟!"

"أنا مُدرسُ علوم سياسية بجامعة القاهرة، عيَّنتني الحكومة في هذه الوظيفة، أدرسُ وأُدرِّسُ الأنظمة السياسية كما يُدرِّسُ مدرسُ التاريخِ التاريخَ ومدرس الحسابِ الحساب، ولا دخل لي باقتصاد البلد ولا سياسته على الإطلاق".

"تقول ذلك؟"

سأله الرقيب متصنعًا نبرة المتشكك الذي على وشك أن يقتنع بكلام مُحدثه.

"إي والله!"

قال بثبات.

بما أنك مدرس سياسة فلابد أنك تعرف كيف تعمل أدمغة هؤلاء الملاعين، أولئك المتمردين أقصد"

"ليس بالضرورة، قد أعرف لماذا يتمرد البعض، لكن ليس بوسعي كمدرس سياسة أن أقول لماذا يتمرد هؤلاء الناس بالذات على النظام"

"وماذا عن رأيك كمواطن؟"

"أرى أنهم حفنة مخدوعين ملاعين، أغوتهم أكذوبة التاريخ القديم الزاهر بالتمرد وإعلان العصيان"

"من خدعهم برأيك؟"

"لا أدري ربما جهة خارجية لها مصلحة في انقسام البلاد، وربما حتى من مصلحتها عودة البلد إلى العصور المظلمة قبل العهد الجديد"

"امممم"

همهم الرقيب مفكرًا وهو يقرع الأرضية بخطوات حذائه ذهابًا وإيابًا بينما يقلب بعض الأوراق في يده.

"علمنا أنك كتبت أطروحةً جامعية سياسية؟"

"أنا كمدرس سياسة عليّ دائمًا كتابة مثل هذه الأطروحات، أُعنى بدراسة الأنظمة السياسية المختلفة في كل بلاد العالم كأمثلةٍ نستخدمها

للتدريس، هذه الأطروحة مثلا كانت بعد دراسة النظام السياسي في كولومبيا"

"ولكن ليس مكتوبًا هنا أنها عن كولومبيا"

"نعم، هذا إجراء نفعله تجنبًا للمساءلة الدولية التي تعرفها، قد تحاكمنا دولة أخرى بتهمة التشويه إذا كان في مناهجنا الدراسية أي إساءة لها"

"امممم، قد تُحاكمكم"

همهم الرقيب مرة أخرى ثم جلس على الكرسي المقابل له.

"ما رأيك في أسلوب إدارة البلاد؟"

"ليس لي رأي، توقفتُ منذ أربعِ سنواتٍ عن أن يكون لي رأي"

"لماذا؟"

"لأنَّه لا يُطعمُ خبزًا ولا يقي بردًا وليس شُغلي أن يكونَ لي رأيٌّ في شيءٍ لا دخلَ لي فيه، رأيتُ من الأجدى أن ألتفتَ إلى مستقبلي وأن أترك التفكير في السياسة وفي الأحداث الجارية، ولولا أنني أعتاش من تدريسها لهجرتها تمامًا وكليًّا"

"ومستقبل البلد؟ ألا يشغلك؟"

"مستقبل البلد في أيدٍ أمينة"

"كم مرةً تغسلُ أسنانك في اليوم؟"

"ثلاث مرات"

"لماذا هذا التبذير يا ابن الـ...؟"

"كم مرةً تُريدُني الحكومةُ أن أغسلَ أسناني؟"

تلقى لكمةً على صدغِه الأيمن صدَّعته.

"لماذا يُطلَب من الحكومة كل شيء؟ ماذا تريدُ من الحكومة يا و..؟"

"أريدُ لها الستر والعافية"

"ماذا أكلتَ يومَ الأحد الماضي على الغداء؟"

"لا أذكر"

"هذه ليست إجابةً يا ابن الـ..."

ولا يعرفُ من أين أتته ضربةٌ على رأسِه طيرتْ نافوخَه!

"دجاجًا ومعكرونة"

"مَن أعدَّهما؟"

"زوجتي"

"ما اسم زوجتك؟"

"رئيفة"

"ما الاسم الذي تُحبُّ أن تدللُها به؟"

"لا أحبُّ أن أغير اسمَها"

"لا أسألُك عما تحب يا كلب، أسألُك عما تحبه هي"

"لا تُحبُّ أن أغيرَ اسمها"

"كيف تنام معها؟"

"اسأل أمك"

ولا يذكرُ بعدَها إلا أنه صحا في صباحِ اليوم التالي شاعرًا بأنَّ العالمَ يترجرجُ مثلَ سائلٍ لزجٍ في رأسِه.

ظلَّ هناك أسبوعين ساموه خلالَهما سوءَ العذابِ من أجلِ أن يعترف.

"بماذا أعترف؟"، سألهم.

"بكلِّ ما فعلتَه وما تنوي فعلَه وما لا تفكر أن تفعلَه يا ابنَ الـ..."، أجابوه.

رفضَ الكلامَ في الأول، علقوه من رجليه وعندما فكُّوه بعدَ ستِّ ساعاتٍ أعطوه عشرَ ورقاتٍ وقلمًا وقالوا له: املأها بذنوبِك يا ابنَ الـ...، إياكَ أن تُخفيَ شيئًا، نحن نعرفُ كلَّ شيءٍ يا كلب يا ابن الـ..."

وكانَ عليه، في تلك الزنزانة التي تُطبقُ على نفَسِ المرءِ فلا يستطيعُ التنفسَ إلا بمشقة، أن يملأ الورقاتِ قبلَ أن يعودوا إليه في صباحِ اليومِ التالي، ليس من الاعترافِ بُدٌّ إذن. الاعتراف بماذا؟ لا يهم، المهم أن يعترف. واعترف.

"أُقرُّ أنا محمد فريد إسلام الذي لعَّبَ الفئرانَ في "عِبِّ" الوطنِ على حدِّ تعبيرِ أمه بالآتي:

أنني ما إن بلغتُ الخامسةَ كنتُ أقطعُ طرقَ النملِ وأصطادُ الدبابير، وأنني كنتُ أهربُ من المدرسةِ بعدَ الحصةِ الرابعة وفي حصصِ التاريخِ والرسم، وأنني أحببتُ جارتَنا مُنية في الخامسةَ عشرة وكتبتُ لها الكثير من الرسائل التي ضبطَ والدي واحدةً منها، وأنني...

وأنني لا أعرفُ لماذا أنا هنا".

***

بعدَ أسبوعين عصبوا عينيه وكوَّموه في عربةِ ترحيلاتٍ مع آخرين، سارتْ بهم العربةُ ستَّ ساعاتٍ حتى توقفتْ في مكانٍ أشدَّ حرارةً من المكانِ الذي جاءوا منه، وعندما نزلوا قيل لهم: "أنتم خلعتم أسماءكم ورميتموها خارجَ هذا المكان، ومن الآن فصاعدًا كلُّ واحدٍ فيكم رقم، على كلِّ منكم أن يحفظَ رقمه إذا أرادَ ألا يفقدَ حياتَه، لأنَّه إذا نوديَ برقمِه ولم يُجب ستصبحُ امرأتُه أرملةً ويضحى عيالُه يتامى. لا مرحبًا بكم في مقر علاج غير المتأقلمين يا أولاد الـ...، هنا جحيمُكم الأبدي حيث ستكفرون الذنوب التي ارتكبتموها والتي لم ترتكبوها، تنتظركم أيامٌ أسودُ من القطران يا ...".

أعطوه الرقم 23، خلعوه عليه كما يتفضلُ مُحسنٌ على فقير، كان آخرَ من نودي اسمُه، بدأ العدُّ من الرقم 12 واستمر حتى 23، أرادَ أن يسألهم عن معنى تلك الأرقام، أرادَ أن يعرفَ معنًى لاسمِه الجديد الذي سيحملُه منذ الآن لمدةٍ لا يعلمُها، رقم 23 في ماذا؟ ما الترتيب الذي أقعُ الثالثَ والعشرين فيه؟ لكنَّه لم يسأل.

اثنان وعشرون عامًا من محاولاتِ العبورِ فوق الآلامِ ومن العيشِ في العتمة، اثنان وعشرون عامًا علَّمتْه أن يعيشَ كحيوانٍ أو أقل، أن يحيا بأقلِّ من الحدِّ الأدنى من النظافة، من الطعام، ومن الأملِ في الخلاص، حتى

قالوا له في يوم: "ابسط يا ابنَ الـ...، لقد تم العفو عنك!" "على اللهِ أن تكونَ عدلتَ حالك وعرفتَ أنَّ الحكومةَ حقّ، وإلا فهذا المكانُ ينتظرُكَ في أيِّ وقت!".

***

هل ما زال هو نفس الشخص؟ لقد تحول إلى شبحٍ حزين، جثةٍ تمشي على قدمين، شيخٍ بانحناءةٍ مؤلمةٍ في العمرِ ولا عصا يتوكأُ عليها. قطعوا طريقَ عمرِه عند الثالثةِ والثلاثين، سلبوه اثنين وعشرين عامًا دفعةً واحدة، ثم قالوا له وهم يربتون على خدِّه: "عُد إلى بيتِك ولا تخرجْ منه بعدَ العشاء حتى لا يأكلَك البعبع يا بابا"!

"والاثنان وعشرون عامًا؟"

"أكلها الذئب"

" ما هذه الخمسة وخمسون المخيفة التي تفغرُ لي فمَها مثلَ قعرِ جهنم؟"

"هذه ما تفضلنا وتركناه لك"

"ماذا سأفعلُ الآن؟"

"أيَّ شيءٍ غيرَ الذي كنتَ تفعلُه من قبل"

" كيف سأُكملُ حياتي بهذا الجسدِ المعطوبِ وهذه الذاكرة التي لا تنام؟"

"مع السلامة، كن ولدًا مُطيعًا وامشِ جنبَ الحائطِ ونم باكرًا وتبول قبلَ أن تنامَ حتى لا تفعلَها على روحك كالعادة".

ما أحقرَ شأنَ الإنسانِ إذ يُؤخذُ إلى سجنٍ كإجراءٍ احترازيٍّ ويمكثُ هناك اثنين وعشرين عامًا ثمَّ يخرجُ كعطيَّةِ عيدٍ من شخصٍ لم يتكلف حتى أن يقرأ اسمَه في كشفِ العفو.

***

عندما خرجَ في صبيحةِ آخرِ يومٍ من أيامِ رمضان كانت الشوارعُ التي لم يرَها منذ اثنتين وعشرين سنة غريبةً عليه، لم يجدِ الشوارعَ التي تركَها، وأحسَّ نفسَه ضائعًا في السوقَ ليلةَ العيد. كادَ يبكي، لكنَّه أمسكَ نفسَه حتى لا يرى الناسُ شيخًا كبيرًا يبكي في الشارعِ مثلَ طفل.

ماذا سيفعلُ الآن؟ ألم تكن تلك أمنيتَه؛ أن يخرجَ من جحيم مصحة التأقلم ويرى ضوءَ الشمسِ في الشوارعِ ويتأملَ خُطى الناسِ في الأسواقِ ووجوهَ الرجالِ على المقاهي؟ ألم يتمنَّ أن يأخذَ في صدرِه نفَسًا كبيرًا من هواءِ الطرقاتِ وأن يرى السياراتِ مرةً أخرى فقط؟ فلماذا يجدُ نفسَه تائهًا لا يعرفُ ماذا يفعلُ بهذه الحرية؟

ربما لأنَّه نالَها بعدَ أن لم يعد يعرفُ كيف يمشي فاردًا جذعَه، كيف يُلقي تحيةَ الصباحِ أو المساء، كيف ينظرُ إلى وجوهِ الناسِ دونَ أن يشعرَ أنَّ أحدًا منهم يشعرُ بالريبةِ نحوَه، وهو الذي صارَ يخافُ أكثرَ ما يخافُ أن يُرتاب منه. المؤكدُ أنه أصبحَ حُرًّا بعدَ أن نسيَ كيف يستطيعُ العيش.

إلى أين يذهب؟ ومَن كانَ له سوى رئيفة وخالتِه ليسألَ نفسَه هذا السؤال!

أين تُراها اليوم؟ هل صارتْ زوجةَ رجلٍ آخرَ وملأتْ له بيتَه أطفالا؟ هل أضحت اليومَ امرأةً عجوزًا ضعيفةَ الجسمِ وقد ملأتِ التجاعيدُ الوجهَ المليحَ الذي كانَ مولعًا بتأمُّله؟ كيف عساه يصلُ إليها؟ لقد باعَ البيتَ في تلك الأيامِ وحولَ ثمنَه إلى حسابِه في لندن. ربما عليه أن يبدأ من تلك النقطة؛ أن يتواصلَ مع البنكِ ليسحبَ المالَ ويُدبِّرَ أمرَ ما بقيَ من أيامِه وهو يبحثُ عنها. لم يجدْ مشقةً في ذلك، صحيحٌ أنَّ قيمةَ المبلغِ الذي أودعَه ساعتَها قد خُسفَ بها لكن لا بأس.

***

قرر أن يبدأ رحلةَ البحثِ من عندِ خالتِه، ذهبَ إلى بيتِها الذي ظلَّ يترددُ عليه طوالَ طفولتِه ومراهقتِه وشبابِه، صعدَ إلى الطابقِ الثالثِ وطرقَ الباب، فتحَ له رجلٌ أربعينيٌّ في قميصٍ بيتيٍّ مترهل، سألَه عن السيدة مليكة الحقّ، قالَ إنه لا يعرفُ امرأةً بهذا الاسم، وأنَّه اشترى هذه الشقةَ من رجلٍ يُدعى منصور منذ عشر سنين.

عندما هبطَ بالخيبةِ التي في قلبِه أوقفَه البوابُ الشاب، لم يكن جالسًا في هذا المكانِ حينما مرَّ به قبل قليل، سأله عن خالتِه؛ السيدة مليكة الحق زوجة المرحوم سميح الجارحي، كانت تسكنُ الشقة رقم 8 في الطابق الثالث منذ اثنين وعشرين عامًا، قال البوَّابُ إنَّه لا يذكرُ هذا الاسم، وحين رأى خيبة الأملِ التي ارتسمت على وجهِه طلبَ منه أن ينتظرَه دقيقة، دخلَ من بابٍ واطئٍ في بيتِ الدَّرجِ ثم ظهرَ بعدَ قليلٍ مع امرأةٍ عجوزٍ

يُسندُها، قالَ له: هذه أمي؛ لم تنتقل من هنا منذ أكثرَ من أربعين سنة، اسألها عمن تُريد، ذاكرتُها حديد!

تذكَّرها، إنها السيدة أم عثمان؛ زوجة عمّ حسنين البوَّاب القديم!

سألها: هل تذكرين السيدة مليكة يا أمي؟ زوجة المرحوم سميح الجارحي..

"آه آه آه!"

ردَّت بنبرةٍ ممطوطةٍ تُوشكُ أن تكونَ نواحا..

"تذكرينها إذن! أين هي؟"

"عندَ اللهَ"

مكتبة
t.me/soramnqraa

"لا تقولي أنَّها..."

ولم يُطاوعُه قلبُه ليلفظَها!

"وجدناها مصعوقةً بالكهرباء في شقتِها، كانَ ذلك في 8 أغسطس 118، رحمةُ اللهِ عليها".

"ألم أقل لكَ إنَّ ذاكرتَها حديد؟" قال له البواب.

"لكن لا تقلق، دُفنتْ في نفسِ اليوم، لم تفسدْ جثتُها في الشقةِ حبيبتي، كانت قد طلبت مني قبلَها بيومٍ أن أصعدَ إليها في الصباحِ لأساعدَها في تنظيفِ الشقة، وحينما صعدتُ وطرقتُ البابَ لم تفتحْ لي، قلقتُ وناديتُ أبا عثمان –رحمَه الله– فكسرَ الباب، ووجدناها على أرضيةِ المطبخِ وتحتَها ماء، كانت كالنائمة حبيبتي، وعندما أخذناها إلى المشفى

قالوا إنَّها ميتة وأنَّ الكهرباء أمسكتْها، رحمَها اللهُ ماتت وحيدة؛ لا زوجَ ولا عيِّل!

كم كانَ يلزمُه من البكاءِ ليغسلَ حسرتَه على نفسِه وعلى الذين أحبَّهم وحُرمَ منهم كلَّ هذه السنين؟ ليُشفى من حزنِه المزمنِ على موتِها بعدَ اختفائه بأيام، بأيام فقط، دونَ أن يعرفَ ودونَ أن يُمكنَ له المشيُ في جنازتِها؟

***

من بيتِ خالتِه، أو من البيتِ الذي كانت تسكنُه يومًا ما خالتُه، ذهبَ إلى شقةِ العباسية؛ لربما يحصلُ على طرفِ خيطٍ من هناك، لكنَّ محاولتَه لم تُفد شيئًا غيرَ القلقِ وزيادةِ ما في قلبِه من الحزن والكآبة. قال له أحدُ سكَّانِ العمارةِ إنَّ الشقةَ مهجورةٌ الآن منذ تلك الأيام؛ منذ أن رمتِ امرأةٌ نفسَها من إحدى شرفاتِها قبل ثمانية عشر عامًا، ومن ساعتِها ساءت سمعةُ الشقةِ ولم يُقدم أحدٌ على شرائها أو السكن فيها، إذ يُقالُ أنَّها مسكونةٌ بشبحِ تلك المرأة. وأنَّه لا يعرفُ شيئًا عن النساء الأخرياتِ اللواتي كُنَّ يسكُنَّ معها، انفرطَ العقدُ وتشتتَ الشمل.

عاد إلى الغرفةِ التي استأجرَها في أحدِ أسطحِ بيوتِ السيدةِ زينب كاسفَ البالِ حزينا؛ كيف يُمكنُه أن يعثرَ على امرأةٍ لم يرَها منذ اثنين وعشرين عامًا في هذا البلدِ الواسعِ الذي لم يعد يستطيعُ التعرُّفَ إليه؟

بعدَ أيامٍ من التفكيرِ والضياعِ اشترى لنفسِه حاسوبًا محمولا، قرر أن يُحاولَ التواصلَ معَ معارفه القدامى؛ لا بدَّ أن رئيفةَ قد تواصلت مع كثيرٍ

منهم عندما اختفى فجأة. ماذا كانَ عنوانُ بريدِه الإليكترونيّ؟ عصرَ ذاكرتَه المكدودةَ لثلاثِ ساعاتٍ جرَّبَ فيها أسماء كثيرة حتى توصل إلى الاسمِ الصحيح. كاد يقفزُ فرحًا عندما تحرَّك أمامه شريطُ التحميل، لكنَّ مفاصلَه صارتْ أوهنَ من أن يستطيعَ القفز.

اللعنة! إنه يطلبُ كلمةَ مرور!

لم يعد يذكرُ كيف كانت تُفعل الأشياء؛ أنَّ لكلِّ بريدٍ إليكترونيٍّ كلمةَ مرورٍ على سبيلِ المثال. لكنَّ لم يتعب كثيرًا هذه المرة؛ ومضتْ في رأسِه دفعةً واحدة؛ اسمَ رئيفة بالانجليزية بين رقمي واحدٍ وأربعة، السنةِ التي رآها فيها لأولِ مرة.

كانَ بريدُه مزدحمًا برسائل ذاتِ تواريخَ مختلفة، رسائلَ من مجلاتٍ عالمية، من دورِ نشر، من حسابِه البنكيّ، ومن رئيفة!

وصلَ بالمؤشرِ إلى أولِ رسالةٍ منها، فتحَها، كانت مذعورةً من اختفائه المفاجئ، ومن بعدِها توالتِ الرسائلُ على مدارِ أكثرِ من شهرين، تكتبُ آخرَ كلَّ رسالةٍ تاريخَها والعنوانَ والساعة، عرفَ أنَّها غيرتْ مسكنَها بعدَ حوالي ثلاثة أشهر من اختفائه، تركت له صورَ بيتِها الجديد وعنوانَ الشقةِ التي استأجرتْها في وسطِ البلد، انتفضَ من مكانِه كالملدوغِ بعدَ أن دوَّن العنوان، ولم تُمهلْه اللهفةُ حتى يُطفئ الحاسوب. بعدَ ساعةٍ كانَ في العنوانِ المحدد، صعدَ طابقًا وضغطَ زرَّ الجرس ففتحت له امرأةٌ في نحوِ السبعين من العمر. ضيقتْ عينيها لتتعرَّفَه وسألتْه مَن يكون، سألها عن امرأةٍ تسكنُ

عندها واسمُها رئيفة علاء الدين، تنهدتْ تنهيدةً طويلةً وقالتْ إنها تركتِ الشقةَ منذ اثني عشر عامًا، وأنها لا تعرفُ أين هي ولا ما فعلتْ بها الدنيا.

عاد خائبَ الرجاءِ إلى غرفتِه الحزينة، فتحَ الرسائلَ مرةً أخرى، كانت تعتبُ عليه، تستعطفُه، تسألُه، تُوصيه بنفسِه، تسردُ أشياء كثيرة وتتكلم عن كلِّ شيء، تشتمُه، تقلقُ من أجلِه، وفي آخرِ رسالةٍ كانَ مكتوبًا شيءٌ جمّده في مكانِه، كانت تقولُ له: "أنا حامل"!

هل فهمَ على نحوٍ صحيح؟ هل له الآن ابنٌ منها؛ من رئيفة؟ كيف هو؟ أين هو؟ من المفترضِ أن يكونَ عمرُه الآن واحدًا وعشرين عامًا تقريبًا، أي أنَّ له ابنًا رجلاً كبيرًا! أين هو؟ مَن يُشبهُ أكثر: هو أم رئيفة؟

***

منذ قرأ تلك الرسالةِ أصبح كالمجنون، صار يقضي ليله في التفكيرِ ونهارَه يجوبُ الشوارعَ وينظرُ في وجوهِ الناس، هل كانَ يتوقعُ أن يجدَ وجهها على أحدٍ منهم؟ لم يكن يفهمُ سيرَه في الطرقاتِ على غيرِ هدًى، لكنه لم يكن بحاجةٍ إلى الفهم، كانَ بحاجةٍ إليها. لم يتوصلِ العلماءُ إلى صياغةٍ وافيةٍ لآليةِ عملِ اللهفةِ في الدماغ؛ لأنَّهم لم يسألوه؛ هو الذي ظلَّ اثنين وعشرين عامًا يتلهفُ في سجنِه إلى وجهِها وحِضنِها ويديها، وحين خرجَ قدحتْ كلمتان منها في رسالةٍ إليكترونيّةٍ لهفةً جديدةً فيه فتمددتْ حرائقُ صدرِه حتى احمرَّتْ منها عيناه، "أنا حامل"، ظلت تتردد في رأسه إلى ما لا نهاية.

بعدَ ستةِ أيامٍ قضاها في الدورانِ كالمجنونِ حولَ نفسِه خطرَ له أن يكتبَ اسمَها في مُحرِّك البحث، كيف لم تخطر له تلك الفكرة قبلَ ذلك الوقت؟ لعلها غمامةُ الحزنِ كانت تحجبُ عقلَه. ثانيتان فقط وظهرتْ له أكثرُ من مئتي نتيجة، ضغطَ الرابطَ الأولَ فأدخلَه إلى صفحةٍ على موقع "جودريدز"، كانت صفحةَ كتابٍ لها منشورٍ قبلَ عامين، حطَّتْ عيناه على صورتِها، آه! ما أشدَّ شوقَه لهذا الوجهِ الحبيب! لأولِ مرةٍ يراه منذ اثنين وعشرين عامًا، وجهُ رئيفة، الوجهُ الذي تركَها به، لا بدَّ أنَّ اثنين وعشرين عامًا فعلتْ فعلَها فيه، ليفدِ هذا الوجهَ وصاحبتَه!

ذهبت عينُه بسرعةٍ ملهوفةٍ إلى اسمِ دار النشر، كتب الاسم في محرك البحث فظهرتْ له صفحتُهم، راسلَهم طالبًا عنوان الكاتبة رئيفة علاء الدين من أجلِ مسألةٍ مهمة؛ مسألةِ حياةٍ أو موت، ثم جلسَ ينتظرُ الردَّ على أحرَّ من الجمر. وبعدَ ساعتين ردُّوا عليه، قيلَ له "مَن أنت؟"، استغرب؛ أليس اسمُه ظاهرًا لهم؟ ثم أدركَ أنَّهم ربما يسألونه لهذا السببِ بالذات؛ إنَّ اسمَه ظاهرٌ لهم. قالَ إنَّه مُحمَّد فريد إسلام، زوج السيدة رئيفة علاء الدين، وأنَّه يُريدُ أن يحصلَ على عنوانِها للضرورةِ القصوى. تأخروا ربعَ ساعةٍ ثمَّ جاءه الرد، طلبَ منه مُحدثُه أن يُجريَ معه مكالمةً مرئية، أدركَ أنهم يريدون التأكد قالَ: "لا بأس" وفتحَ الكاميرا، كانَ مُحدِّثُه رجلاً في أوائلِ الأربعينات تقريبا.

"مرحبًا، هل أنتَ السيد مُحمَّد فريد إسلام حقًّا؟"

"نعم، أنا هو، يُمكنُكَ التأكدُ من هذه، هي قديمةٌ منذ اثنين وعشرين سنةً لكن أعتقدُ أنها تؤدي الغرض"

قال وهو يُمسكُ ببطاقةِ إثباتِ الشخصية أمامَ الكاميرا، بدا على مُحدِّثِه الارتباكُ والدهشة، سكتَ هنيهةً قبل أن يُجيبَه..

"كيف أستطيعُ أن أُساعدَ حضرتك؟"

"قرأتُ على موقع جودريدز أنكم نشرتم كتابًا للسيدة رئيفة قبلَ حوالي عامين، لذلك اعتقدتُ أنكم تعرفون أين تُقيم"

"نعرف. هل قرأتم كلّ معلوماتِ الكاتبة على الصفحة؟"

"لا، هل أصبح يُوضعُ من ضمنِها عنوانُ بيت الكاتب؟"

تردد الرجل برهة كأنه يبحث عن شيء يقوله..

"لا بالطبع، سأرسلُ لحضرتِك العنوان في رسالة. عودًا حميدًا أستاذ!"

تعجب؛ من أين يعرفُه هذا الرجل؟

بعد أقلّ من دقيقة وصلتْه رسالةٌ بالعنوان، لم يُصدِّق أنَّه أصبحَ يعرفُ أين تعيشُ رئيفة، زوجتُه وحبيبتُه وكلُّ عائلتِه.

"لا، ليست كلَّها، هناك أيضًا ابنُنا، ابني أنا ورئيفة!"

قالَ لنفسِه وهو يروحُ ويجيءُ فرحًا في الغرفة، أخذ حمَّامًا دافئًا ولأولِ مرةٍ منذ خرجَ من المعتقل نظرَ إلى نفسِه في المرآةِ دونَ أن يُشيحَ بعينيه بسرعة، رضيَ عما تركتْه السنين عليه من التجاعيد والحزن الثقيل، هذَّبَ ذقنَه وسرَّحَ شعرَه كما كانت تُحبُّه، تعطَّر بالعطرِ الذي كانت تُحبُّه، ارتدى

قميصًا أزرق؛ كانت تُغازلُه إذا لبس قميصًا أزرق. صحيحٌ أنَّه تغيَّر، كسروا له سنًّا، تقلَّص لحمُ وجهِه، نحلَ حتى أصبحَ جلدًا على عظم، لكنَّه لا يشكُّ أنَّها ستعرفُه رغمَ كلِّ شيء، إنَّها ستقولُ لابنِهما: "هذا أبوك، مُحمَّد، الرجلُ الذي أحببتُه وكنتُ أسدُّ الثقبَ في قلبِه"!

***

في الثانيةِ عشرة ظهرًا كانَ أمامَ البيت، لا يستطيعُ أن يُسيطرَ على خفقانِ قلبِه الذي يكادُ يتركُ مكانَه، استجمعَ نفسَه وضغطَ زرَّ جهازِ الاستقبالِ بأصابعَ مُرتعشة، أجابَه صوتٌ رجوليٌّ بعدَ ضغطتين..

"سلامٌ عليكم. مَن حضرتُك؟"

"عليكم السلام. أنا.."

واحتبسَ صوتُه فلم يستطعْ التعريفَ عن نفسِه!

"نعم؟ مَن حضرتُك؟"

"هل أستطيعُ أن أُقابلَ السيدة رئيفة؟"

سكتَ الصوتُ لحظةً كأنَّه يفكر ثم عاد يسألُه..

"مَن حضرتُك؟"

"أنا مُحمَّد. مُحمَّد فريد إسلام"

لم يُجبْه الصوت، وبعدَ أقلَّ من عشرِ ثوانٍ انفتحت البوابةُ وأطلَّ منها شابٌ طويلٌ يُشبهُ الرجلَ الذي كانَ عليه في الثانية والعشرين من عمرِه مع فارقِ العينين، كانتا عينَي رئيفة الواسعتين بأهدابِهما الطويلة!

نظرا إلى بعضِهما طويلاً، هذا هو ابنُه إذن! هذا هو ابنُ رئيفة! رأى شفتيه تتقلصان وعينيه تعاتبانه، آلمتْه تلك النظرة، حاولَ أن يزدردَ الغصةَ التي وقفتْ في حلقِه تسدُّ مجرى الكلام، لم يستطع. كانت لحظةُ صمتٍ طويلةٍ قطعَها وهو يدعوه للدخولِ بصوتٍ مُرتعش.

عندما دخلَ وقلَّب نظرَه فيما حولَه قالَ بصوتٍ خافتٍ يختلجُ فيه النفَس: "بيتُ رئيفةَ فعلاً، هذه نسخة مطابقة للأريكة التي كانت في بيتِنا، كانت أريكتها المفضلة".

"هي نفسُها تلك الأريكة"

"هل تعني أنَّها حصلتْ عليها من المالك الجديد لذلك؟"

"أمي لا تترُكُ شيئًا أحبَّته، ولا شخصًا أحبَّته"

عبرتْه سحابةُ دمعٍ حاولَ أن يتغلَّب عليها بتأملِ المكان، وقعت عيناه عليها؛ مؤطَّرةً بإطارٍ فضيّ، ترفعُ على كتفيها شالاً بلونِها المُفضَّل؛ الأزرق، وعلى وجهِها ابتسامةٌ خفيفةٌ ساخرةٌ وأليمة، نفسُ الرباطِ الضاغطِ ذاك يلتفُّ حولَ كفِّ يدِها اليسرى. لم يستطع كبحَها، تدحرجتْ على خدِّه دمعةٌ كبيرة.

"أين هي؟"

"لم تعُد هنا"

"ماذا تعني؟ هل سافرتْ إلى مكانٍ ما؟"

سأله بتوجس.

"نعم، سافرت"

"متى ستعود؟"

"لن تعود. نحن سنذهبُ إليها عندما يحينُ الوقت".

لم يجدْ قدمين ليقفَ عليهما، كأنَّهما اختفتا فجأة. أسندَه ابنُه وساعدَه على الجلوس، ناولَه منديلاً ليتلقى عليه دمعَه الحزين.

"كان ذلك في الثالث من فبراير الماضي، كانت مُحتجزةً في المشفى على إثر عمليةٍ جراحيةٍ لاستئصالِ ورمٍ في المخ".

هل تسخرُ منه الدنيا؟ ما معنى أن يفقدَ الأملَ في الخلاصِ من عذابِه والعودةِ إليها ثم حينما يخرجُ يجد أنها ماتت قبل عشرةِ أشهر فقط؟

تكلمَ ابنُها، ابنُ رئيفةَ وابنُه، كثيرًا ولكن دونَ أن يسمعَه. طلبَ منه أن يأخذَه إلى غرفتِها، وهناك أخذ يشمُّ كلَّ شيءٍ يعرفُ أنَّ يديها قد لمستاه يومًا ما؛ شراشفُ السرير، زجاجاتِ العطر، وملابسَها في الخزانة. رأى الصندوقَ الذي يعرفُه؛ صندوقَها الذي كانت تحتفظُ فيه بأشيائها المهمة. فتحَه، فانهالتْ عليه كلُّ تلك السنين.

وجدَ رسائلَه إليها؛ كم مرةً قالَ لها: "إنني -يا رئيفةُ- رجلٌ معجونٌ بالخوف"؟ لم يكن مُنتبهًا في تلك الأيامِ أنَّه يُكرِّرُها كثيرًا، الآن أدركَ أنَّ المرءَ يستجلبُ على نفسِه ما يُكثرُ الخوفَ منه والنطق به.

وجدَ الهدايا التي أهداها إياها، السلسالَ الفضيَّ الذي يتدلى منه اسمها، خاتمُ زواجِها، خلخالها، جوربًا صوفيًّا صغيرًا لا بدَّ أنَّه دفَّأ قدمي

ابنِهما يومًا ما، صورةً لابنِهما جنينًا بالأشعةِ التليفزيونية، وكثيرًا من تذاكرِ الأطباء؛ طبيبةِ نساءٍ وتوليد، أطباء مخّ وأعصاب، أطباء أورام، وتذاكر طبيبٍ نفسي، كانت تُعاني فوقَ كلِّ ما عانتْه من الاكتئابِ والأرق. على ظهرِ إحدى التذاكرِ لاحظَ كلامًا مكتوبًا بالعربية:

"أنتِ أعقلُ طفلةٍ في السادسةِ والعشرين من عمرِها، وأبدعُ أنثى لا تُدركُ مدى فتنتِها، وأكملُ أُمٍّ لا يجفُّ في لمستِها المطرُ اللازمُ لإنباتِ السكينة. ماذا زرعَ الذي خسركِ ليجنيَ كلَّ ذلك الخرابِ يا رئيفة!"..

لا يعرفُ هل يغضبُ لأنَّ رجلاً غازلَ المرأةَ التي أحبَّها أم يتحسَّرُ على نفسِه وعلى حبيبتِه التي حيلَ بينَه وبينها، لكنَّه بكى، انكمشَ على نفسِه في سريرِها وبكى طويلا، وحين سمعَ طرقَ ابنِه على البابِ لم يرد، وعندما شعرَ به وهو يدخلُ تظاهر بالنومِ مُولّيًا ظهرَه له؛ لا يُريدُ أن يراهُ ولدُه إذ يراه للمرةِ الأولى على هذه الحال، لا يُريدُ أن يخدشَ فكرتَه عن الآباءِ كأوتادٍ عصيَّةٍ على الكسرِ والهزيمة، وهو كانَ في ذلك الوقتِ مهزومًا وكسيرًا، خائبًا أكثرَ بكثيرٍ مما لا ينبغي أن يبدوَ في صورةِ أب.

ظلَّ واقفًا لثوانٍ ثم خرج، فوجدَ بعدَ خروجِه الفرصةَ الكافيةَ للتخلصِ من دموعِه.

خرجَ من حجرتِها بعدَ ساعتين وهو في قمةِ خجلِه، بحثَ عنه فوجدَه جالسًا في الصالة؛ على أريكتِها المُفضلة.

"كنت طوالَ السنين الماضية محتجزا في مصحة علاج غير المتأقلمين مع العهد الجديد، لذلك لم تعرفْني كلَّ هذا الوقت"

يؤلمُه أن يجدَ نفسَه الآن مُضطرًا لتبريرِ غيابه لابنه ليدافع عن نفسه.

"عرفتْ أمي ذلك، وحتى آخرِ عمرِها كانت تبحثُ عنك"

"كنتُ أعرفُ أنَّ خلفي مَن سيبحثُ عني، وهذا مما كان يُعذِّبُني عذابًا فوقَ العذابِ هناك؛ علمي بأنَّها ستُهرقُ عمرَها بينَ الأقسامِ والنياباتِ ولن تجني من ذلك شيئا"

"لم تكن تحسبُها بتلك الطريقة، الشيءُ الوحيدُ الذي أرادت أن تجنيه هو أن تعرفَ مكانَك وتراك"

"وحيل بينها وبينَ ذلك"

"لم تنتهِ القصةُ عندَ هذا الحدّ، مجردُ فاصلٍ صغيرٍ وسنلتقي جميعًا في مكانٍ أفضل إن شاء الله"

يعرفُ الآن أنَّ رئيفةَ ربَّتْ ولدًا قويًا، ولدًا جميلاً لم يكن ليتمنى لنفسِه ابنًا أحسنَ منه.

"تصوَّر أنني حتى الآن لم أعرف اسمَك!"

قال بخزيٍ وهو يشعرُ بغرابةِ كلماته.

"اسمي حيَّان؛ صيغةُ مُبالغةٍ من "حيّ"، قالتْ وهي تُعطيني هذا الاسمَ في شهرِنا السادسِ إنَّه سيكونُ جميلاً عليَّ في حينِ لم تكن مُتأكدةً من كونك حيًّا وحقيقيًّا"

"كيف؟ ما معنى أن تكون غير متأكدة من أنني حقيقي؟"

"هذا الموضوع لم يُعرف عنها إلا بعد موتها، أو على الأقل لم أعرفه أنا؛ لأن صديقتيها كانتا تعرفان إلى حدٍّ ما. بدأ الأمر بعد احتفائك بقرابة أربعين يومًا تقريبًا، حسب ما تقول الخالة ليلى التي كانت تسكن معها أمي في ذلك الوقت فإنها بدأت تكلم امرأةً غير موجودة، ومنذ ذلك الحين بدأت تراودها الشكوك في وجودك، أحيانًا توقن أنك حقيقي وأحيانًا تشك، وفي أحيان أخرى كانت تتخلى عن يقينها طوعًا لأنها يئست، لكنها واظبت دومًا على البحث عنك"

"من المؤكد أنها عاشت سنين صعبة!"

"ولم تُشعرني بشيء من شكها فيك، على الرغم من أن ذلك الشك كان ينبغي أن يطالني أيضًا؛ فإنك إذا لم تكن حقيقيًا فأنا أيضًا لست حقيقيًّا، صحيح أنها كانت تتعامل معي بشيء من الغرابة في بعض الأحيان ولكنني عزوتها دائمًا إلى خوفها عليّ، من الصعب أن تربي امرأةٌ طفلها وحدها. الآن لا أصدق أبدًا مجرد احتمال أن تكون شكت في وجودي يومًا ما أو نظرت إليَّ على أني مجرد شخصيةٍ اخترعها رأسها".

"تقول إنك لم تعرف عن اضطرابها إلا بعد أن ماتت، كيف عرفت؟"

"في شهورها الأخيرة بدأت أسمعها تكلم نفسها، أصررت عليها أن نذهب لطبيب نفسي، في النهاية رضخت لإصراري ولكن لم تقبل بأي حالٍ أن أرافقها، وترددت بالفعل على طبيب نفسي حوالي خمس مرات،

وحتى عندما شغل العلاج الكيميائي والإشعاعي أيام الثلاثاء التي كان من المفترض أن تذهب فيها كانت تذهب في أيام السبت، قلتُ لنفسي إن في هذا دلالةً على أنها أخيرًا ترغب في العلاج، ولكن بعد مرور أكثر من شهر على وفاتها جاء طبيبها هنا، كان يبحث عن امرأة اسمها هِندة علاء الدين ويتهمني وأمي بقتلها!"

"أعرف هذا الاسم، كلمتني عنها في كثير من الرسائل التي تركتها لي على البريد الإليكتروني، لم أستطع كثيرا أن أتخذ موقفا شعوريًّا واضحًا من أختها تلك، ولكن ما الذي دفع طبيبها النفسي لاتهامها بقتل أختها؟ هل قالت له إنها ستفعل"

"نعم قالت، سمعنا ذلك في تسجيلاته لها"

"غير ممكن، ليست رئيفة إنسانة قد تقتل فضلا عن أن تقتل أختها!"

"لم يكن لأمي يومًا ما أخت"

"لم أفهم، ألم تقل إنها أخبرت طبيبها بأنها ستقتل هندة؟"

"هندة هي التي أخبرت الطبيب أن أمي ستحاول التخلص منها"

"كيف؟ لم أعد أفهم شيئا!"

"لا وجود لامرأةٍ تُدعى هِندة إلا في رأس أمي، وعندما ألححت عليها في زيارة طبيب نفسي ذهبت، ولكنها ذهبت كهِندة لا كرئيفة، قالت لجنة الأطباء النفسيين فيما بعد أن السبب الأكثر منطقية لذلك هو أنها كانت ترى أن أختها الموهومة هي المريضة، ولكن عندما قابلت الطبيب على أنها

هِندة لم تستطع التعامل كرئيفة، ولأنها طوال سنوات ومنذ طفولتها رسمت تلك الشخصية بدقة وتعرف أصغر خفايا وردود أفعالها وكل شيء عنها فإن شخصية هندة سيطرت عليها واتخذتها وسيلة للظهور أخيرًا، لكن الشخصيتين كانتا تتصارعان في داخلها وتتهم كل واحدة منهما الأخرى، رغم أن شخصية أختها كانت لها الغلبة في لقاءات الطبيب النفسي، ومن تسجيلاتها معه قال الأطباء إن عقل أمي اخترع هذه الشخصية في طفولتها كآلية حماية نفسية، لذلك عندما غادرت المكان الذي كان يشكل لها خطرًا -بيت عمها- استطاعت التخلص من هذه الشخصية -أو هكذا ظنت- لأنها لم تعد بحاجة إليها، لكن عندما اختفيتَ عادتْ هِندة مرة أخرى؛ من أجل حمايتها كالسابق، ولذلك كانت تُوسوس لها أنك غير حقيقي؛ كانت تلك طريقة عقلها للهروب من الألم الذي سبَّبَه غيابك، لكن قلبَها لم يوافق"

"غير معقول!"

"كان عليك أن ترى الطبيب النفسي وهو يروح ويجيء من ركن لآخر هنا في البيت ويتهمني بالانتحال والتواطؤ مع أمي في قتل أختها، كان واثقًا مما يقول، وكان يبحث كالمجنون عن قبوٍ قالت له هِندة إنها مُحتجزةٌ فيه من قبل أمي، لم يصدق أبدًا أنه لا وجود لقبو في هذا البيت إلا عندما أكدت الشرطة ذلك"

"أخبرتني رئيفة يومًا ما عن ذلك القبو"

"كيف؟!"

"قالت لي إنها ككل إنسان آخر لها قبوٌ في داخلِها ترمي بداخلِه كل الأشياء القديمة التي لا تريدها أن تعقد حياتها، كانت تحتجز أختها الخيالية في ذلك القبو إذًا!"

"إلى الآن لا أعرف لماذا لم تستعن أمي بصديقتيها من أجل أن تتخطى ذلك كله، طيب، إذا استثنينا الخالة ليلى لظروفها الصعبة فماذا عن الخالة لميس؟ كانتا تلتقيان من حين لآخر، لماذا لم تبح لها بهمومها وتسمح لها بأن تساندها؟ لماذا اختارت أن تعيش هذا كله وحدها؟"

"لم تكن وحدها، كنتَ معها، أستطيع أن أؤكد أن وجودك هو ما منحها القدرة على التحمل كل هذا الوقت"

"نعم، ولكنها لم تخبرني بشيء مما تعاني"

"لأن الآباء والأمهات لا يملكون رفاهية طلب الدعم من أبنائهم"

"لو أخبرتني لظلت أمي رغم كل شيء، لم أكن لأراها ضعيفة أو عاجزة!"

"هذا ما تراه أنت وليس ما كانت تراه"

"وهل ترى أنت أيضًا نفس الشيء؟"

"نعم.."

قال بعد برهة تفكير.

"لكن هذا لا يعجبني، لا أظن أن على الأبوين دائما أن يحتفظا بهمومها ثم يفاجئا الأبناء بانهيارهما دفعةً واحدة!"

استطاع أن يُحس الحرمان في انكسارات صوت ابنه، صمت طويلاً ليبحث عن شيء يقوله، شيء يواسيه به أو يطلب به صفحه عنه.

"أعرفُ أنكَ تستغربُني الآن، رجلٌ غريبٌ ظهرَ فجأةً بعدَ كلِّ تلك السنين ويقولُ إنَّه أبوك، لذلك سأتفهمُكَ إذا لم تشعر تجاهي بالقبول"

"ليس مُتاحًا للأبناءِ خيارٌ كهذا؛ القبول أو عدمه. أنتَ أبي، هذه حقيقةٌ لا يُمكنُ لأيِّ شيءٍ أن يُغيِّرَها. هذا شيء. الشيءُ الأهمُّ أنني لا أستغربُك، أنا أعرفُك، هل تستطيعُ أن تتخيَّلَ امرأةً كرئيفة علاء الدين، المرأة التي أحببتَها وتعرفُها جيدا، تتركُ ابنَها لا يعرفُ أباه؟ إنني أعرفُك أكثرَ مما تتصور، أعرفُ ماذا تُحبُّ وماذا تكره، كم ساعةً تنامُ ومن شاعرُكَ المُفضَّل، كم ملعقةً من السكرِ تضعُ في شايِك وكيف تُعبِّرُ ملامحُ وجهِك عن صورةٍ بلاغيةٍ أعجبتك، أعرفُ كيف تعرَّفتَ على أمي، كيف صارحتَها بحبِّك، وكيف تزوجتما، وإلى أيِّ حدٍّ أحببتَها. عرفتُ كلَّ شيءٍ ومنذ رأيتُكَ عرفتُكَ وانتظرتُ أن أُجرِّبَ ما قالتْه أمي"

"ماذا قالت؟"

"قالت لي: "عندما تدخلُ في حِضنِ أبيك ستعرفُ بدقةٍ كم سعةُ الدنيا من الأمانِ والسكينة".

لم يعرف كيف التحما ولا كم ظلا مُتعانقين، لكنَّه كان يبكي ويسمعُ بكاء ابنِه، شعرَ وهو يحضِنُه بنفَسِ رئيفة، بروحِها، بعينيها تُحدِّقان فيه.

"أنا آسف!"

"علامَ؟!"

"على كلِّ شيء، على أنني لم أعرفْ بوجودكَ إلا قبلَ أسبوعين، وأنني لم أحملكَ بينَ ذراعيَّ عندما وُلدت، ولم أُشارك أمَّك في اختيارِ اسمِك، ولم أشهد خطوتَك الأولى، ولم..."

"لم تُذنب في أيٍّ من ذلك لتأسف. إنَّكَ عندي أعظمُ مما تضعُ نفسك.. يا أبي"

"فاتتنا الكثيرُ من اللحظاتِ التي كانَ ينبغي أن يكونَ إلى جوارِك فيها أبوك!"

"كنتَ دائمًا إلى جواري"

"لماذا نظرتَ إليَّ بعتبٍ أولَ ما رأيتَني إذن؟"

"لم يكن عُتبًا عليك، وإنما على الدنيا؛ انتظرتُكَ طويلاً لتعودَ إلى أمِّي في أكثرِ الأوقاتِ التي رغبتْ فيها بشدةٍ أن تعودَ وحاربتْ طويلاً من أجلِ التمسكِ بك، وحينَ عُدتَ كانت هي قد ذهبت!

بالمناسبة؛ لقد تركتْ لكَ هذه الرسالة، كانت آخرَ شيءٍ فعلتْه قبلَ أن تذهب".

قال وهو يُخرجُ من جيبِه رسالة.

عزيزي محمد؛ الرجلُ الوحيدُ الذي أحببتُه وواظبتُ على حبِّه رغمَ أنفي..

لا أستطيعُ أن أُحصيَ عددَ المراتِ التي راودني فيها الشك، قد لا تكون موجودًا بالفعل إلا في دماغي كما تقولُ أختي هندة، لكنني في آخر لحظاتي آمنتُ أنَّك حقيقيٌّ وأنك موجودٌ في مكانٍ ما وأنَّك تعرفُني، ولربما حتى كنتُ محظوظةً إلى حدِّ أنَّك حدَّثتَ أحدًا عني، قلتَ لأحدٍ ما:

"كنتُ أحبُّ امرأةً اسمُها رئيفة، كانت تُعدُّ الشايَ كأنَّها تُصلِّي، وكانت تحلمُ ببيتٍ صغيرٍ في الغابةِ تُطلقُ فيه شعرَها المُموَّجَ للريح، وكانت تُحبُّني وأرادت أن نضعَ رأسَينا مَغزُوَّين بالشيبِ والذكرياتِ على وسادةٍ واحدة".

إنني الآن أضعُ رأسي وحدَه على وسادةٍ صغيرةٍ في هذا المشفى البارد، يُحاصرُني البياضُ ويبعثُ في نفسي إحساسًا حزينًا بالوحدةِ وهزليةِ كلِّ هذا العمر. ليس غريبًا أن أموتَ بورمٍ في دماغي كما استشهدتَ في وصفي يومًا بالتعبيرِ المُدهشِ لذلك الأديبِ الذي لم أعدْ أذكرُه ولعلَّك تفعل، قلتَ لي ونحن نناقشُ قصيدةً لرياض الصالح الحسين في الشرفة: "أنتِ مثل عود الثقابِ الذي يحملُ موتَه في رأسِه".

أعرفُ اليومَ أكثرَ من أيِّ وقتٍ مضى أن كلمتَك تلك كانت أكثرَ من مجردِ وصفٍ سُقتَه على سبيلِ المُشاكسة، حتى لقد كُتبَ لها أن تكونَ شيئًا يُشبهُ النبوءة، وها أنا ذي الآن أُسلِّمُ على الموتِ الذي حملتُه كلَّ تلك السنين في رأسي، يجلسُ أمامي وأجلسُ أمامَه كصديقَين بالمُراسلةِ يتقابلان

للمرةِ الأولى بعدَ عمرٍ طويلٍ من الرسائلِ وجمعِ الحمامِ وشهودِ طلوعِ أرواحٍ كثيرة، وكم كانت رسائلُه نظيفةً وواضحةً دونَ التباسٍ وذاتَ نمطٍ خاص!

منذ أيامٍ تروحُ أمامي وتجيءُ كلُّ الحيواتِ التي رأيتُها تنتهي على نحوٍ مؤسفٍ في طريقِ الحياةِ السريع والمحفوفِ بالمخاطر. أولَ أمس زارتْني زينب كُريِّم، قالت لي وهي تفكُّ أخيرًا رباطَها الضاغطَ عن كفِّ يدي اليسرى:

"أنا لم أفهم القاهرة، ولن أستطيعَ فهمَها أبدًا".

وأخبرتْني أنَّها لم تُقابل كاميليا يزن بعد، مع أنَّ كاميليا في الحقيقةِ اختفتْ ثم ظهرت ثم عاودتِ الاختفاءَ بعدَ مقتلِ زينب، لذلك غمرني شيءٌ كالتصديقِ والحنين؛ هذا يعني أن كاميليا ما زالتْ حيَّةً في مكانٍ ما.

ومنذ قليلٍ كانتْ عندي ميسون أبو سِعدة، وكانت تُمسكُ آلة الكلارينيت خاصتَها، عزفتْ لي لحنَها الحيَّ (طلوع الروح) وسمعتُ أنفاسَها فيه، ثم أخبرتْني بنبرةٍ مُؤسِّيةٍ أنَّها دُفعتْ من الشرفةِ لتموتَ في اليومِ الذي قررتْ فيه أن تتوقفَ عن محاولاتِ الموتِ وأن تؤمنَ بإمكانيةِ بدءِ حياةٍ جديدةٍ مع معاوية؛ الرجلِ الذي أحبَّها ولم تنجح إلا في أن تكونَ مجرَّدَ خرقٍ يتسعُ على الراقعِ في قلبِه.

ليلى عسكراني لم تأتِ، لكنني فكرتُ فيها طويلاً مُؤمنةً الآنَ أنَّها أكثرُ من استطاعَ النجاةَ من هذه المأساةِ الجماعيةِ الكبيرة بإقامتِها الآمنة في المصحِّ العقلي وإلى جانبِها رجلٌ يُحبُّها ويقنعُ برؤيتِها ساعةً يوميًّا أثناء التنزه

في الحديقة. هناك ليس بوسعِها أن تعرفَ شيئا مما يحدثُ خارج حدودِ المشفى، والدنيا خارجَ حدودِ المشفى مخيفة.

لميس فاتح هي الوحيدة التي بقيت متواجدةً في حياتي، لكن كجسدٍ مُترهِّلٍ وروحٍ متبلِّدةٍ وغريبةٍ على كلَينا، ولك أن تتخيل أن تلك الفتاةَ التي تلطفتْ بي وأخذتني أناقتُها في أول ليلةٍ لي في القاهرةِ هي الآن امرأةٌ محطمةٌ تناهزُ الخمسين من العمرِ ولا تجدُ لجسمِها مُفرطِ السمنةِ كُرسيًّا يحتملُها في غرفةِ المشفى. لو أنني لم أكن شاهدةً على مراحلِ تدحرجِها نحو هذه النهايةِ الفظيعةِ شيئًا فشيئًا ما صدَّقتُ أنَّ هذه المرأة ذات الهيئة المُهمَلة والحالةِ المثيرةِ للشفقةِ، التي حظيت بضُرَّتين وزرعَ فيها رجلٌ سيِّءٌ ثلاثَ بذورٍ أنبتتْ كلها أبناءً يتبارون في حرقِ دمِها، والتي تُعيَّرُ دومًا من زوجِها وامرأتَيه بأنَّها "ليست امرأةً ولا يصحُّ أن تعتبرَ نفسَها امرأةً" دونَ أن تؤلمَها روحُها أو يبدو أنها تأبَه، هي نفسُها لميس فاتح التي كانت تتألقُ بآرائها في نقاشاتنا الطويلة في تلك الأيامِ الغابرةِ وتتبعُ أنظمةً غذائيةً قاسيةً لتتخلصَ من بضعة كيلوات زائدة! كلَّما رأيتُ جسمَها الذي يزنُ أكثرَ من مئتين وعشرين كيلوجرامًا بكيتُ بعدَ أن أنصرفت من عندي؛ أُريدُ صديقتي لميس، أين ذهبت؟ لميس التي لم يهزمها كلُّ ما حلَّ فوق رؤوسِنا من مصائبَ واحدةً بعد الأخرى وهزمَها زواجٌ لم يكن على مستوى الحاجةِ النفسيةِ والعقليةِ لبنتٍ كانَ لها أن تُصبح امرأةً جديرة!

آه يا محمد؛ ماذا فعلتْ بنا الحياةُ وماذا فعلنا لها لتُقابلَه بكلِّ هذا السوء!

هل كنَّا نظنُّ أنا وبنات الشقةِ أن زميلتَنا التي كانت تشاركُنا الوقتَ واللقمة ستكونُ سببَ بلاءاتٍ كثيرةٍ لغيرِ واحدةٍ منا؟ بدءًا من تأبيدِ ليلى في المصحِّ العقلي وليس انتهاءً باقتحاماتِ هيئة مراقبة التأقلم الدورية لبيتي وقلبِه رأسًا على عقبٍ وتفتيشِ أوراقي وكتبي؟

لقد هاتفتني قبلَ شهرين، لم أكن أعرفُ من أين حصلتْ على رقمِ هاتفي، لكن حين علمتُ أنَّها زوجةُ وزيرِ الرقابة زال عجبي. كانت مُكالمةً قصيرة، لم تفعل شيئًا سوى السؤال عن حالي، "كيف حالُكِ" ساخرةٌ فقط كانت كافية لأشعر بكل الحقد الذي كبَّرتْه في قلبها طوال أكثر من عشرين عامًا!

لم أكن مخطئةً حين اعتقدتُ في أولِ مناقشةٍ بيني وبين أسماء أبو العزم أنّها ستكونُ واحدةً من أقذرِ نساءِ هذا البلدِ إذا صحَّ لها أن تُكتشفَ موهبتُها في القذارة، ولم أكن مُبالِغةً حين فكرتُ أنَّ هذه البنتِ الخبيثةِ والحادةِ مثلَ سُمٍّ ستكونُ عدوَّتي حتى نهايةِ حياتي.

ثم ومع كلِّ شيءٍ وقبلَ كلِّ شيءٍ وبعدَه هناك أنا وأنت؛ رجلٌ وامرأةٌ وقعا في الحبِّ وخبَّأتْ لهما الحياةُ فخًّا في أولِ النفق، عصفوران على شجرةِ الحظِّ ضربتْهما المأساةُ بحجرٍ واحد. كم سيكونُ مؤسفًا إذا لم تكن حكايتُنا حقيقية، وكم سيكونُ مُرعبًا إذا كانت!

آه يا مُحمَّد؛ يا حسرتي التي لم تجفّ وحياتي التي لم أعشْها، كيف هانَ عليكَ أن تتركَني وأنتَ الذي خفتَ يومًا ما من ألا أعودَ موجودةً في البيتِ الذي أنتَ فيه؟ أحاولُ أن أُحصيَ الآنَ ما تركتَه لي يا خسارتي الفادحة وعمري الحزين؛ تركتَ فيَّ خدرًا لذيذًا وانقباضةً مؤلمةً وولدا، هل يُمكنُني القولُ إنَّ هذا أقلّ ما حصلتْ عليه امرأةٌ من زواجٍ مكسور؟

كيف امتزجْنا رغمَ كلّ ذلك الاختلافِ الذي كانَ بيننا؟ لقد تركَ لي غيابُكَ الطويلُ وقتًا أكثرَ من كافٍ لأُفكِّرَ في كلّ الأسئلةِ المُمكنةِ وغيرِ المُمكنة، الأسئلةِ التي تحزُّ كسكّينٍ والأخرى التي تَخِزُ كالإبَر. كنتَ أديبًا وروائيًّا، وبالنسبةِ لك لم يكن شيءٌ أكثرَ اعتياديةً ويُسرًا من الدخولِ في قصة، وكنتُ كاتبةً مُبتدئة، وبالنسبةِ لي لم يكنْ شيءٌ أصعبَ من العثورِ على كلمةِ البداية.

كنتُ حدثًا في روايةِ حياتِك، وكنتَ قصتي التي وُضعتْ في الدرجِ السُّفليّ فعُلِّقتْ بذلك بينَ عالمَين وظلَّت ناقصةً حتى الموت.

إذا عُدتَ يومًا؛ إذا كنتَ حقيقيًّا وعُدتَ يومًا ما ووجدتَ هذه الرسالة، ستجدُها مع فتًى جميلٍ –حقيقيٌّ أيضًا ما دمتَ أنتَ حقيقيًّا– اسمُه حيَّان، هو نبتتنا اليافعة التي حالفَنا بها الحظُّ السعيد، فتًى أجملُ ما فيه يا محمد أنَّه يُشبهُك، في طريقةِ كلامِه الذي يسيلُ ببساطةٍ وحضورٍ كماء النهر، وفي مشيتِه المتزنةِ كأنَ بين كلّ خطوتين مسافةً لا تزيدُ ولا تنقص، وفي لغةِ جسدِه إذا غضبَ أو فرحَ أو عندما وقعَ في الحب، وفي تعابيرِ وجهِه وهو

مُستغرقٌ في قراءةِ كتابٍ عن دور القوى الاستعماريّة في تقسيمِ الشرقِ الأوسطِ أو وهو يعبِّرُ -كأنَّه ورثَ منكَ هذا الرأيَ كما ورثَ لونَ عينيكَ وقامتَكَ الطويلة- عن جنون نيتشه الذي كانَ يظنُّ نفسَه عظيمًا بينما لم يكنْ سوى مريضٍ نفسيٍّ انبثقتْ كلُّ اضطراباتُه من أنَّه لم تلمسْه يدُ امرأة!

إنني أموتُ الآن وأخيرًا، أصيرُ الحمامةَ الأخيرةَ التي لن أرى بعدها مزيدًا من الحمامِ المُضرجِ في الدماء وطلوع الروح، أموتُ دونَ أن تُجيبَ على أيٍّ من رسائلي الكثيرة، ودونَ أن تمنحني الفرصةَ التي كنتُ أنتظرُها لأُثبتَ لأختي هِندة أنني لم أكن أتخيلُ حينَ قلتُ لها إنني أحببتُ رجلاً اسمُه محمد وأنها أخطأتْ في حقِّي حين اضطرتْني إلى أن أُعانيَ أهوالَ ولادةِ ابنِنا وحدي بعيدًا عنها وأجاهدَ لئلا أجعلَها تراه أو تعرف عنه.

إنني أموتُ الآن دونَ أن أسكنَ معكَ بيتًا في الغابة، ودونَ أن أغسلَ قمصانَك آلافَ المرات، ودونَ أن أُعدَّ حساءً ساخنًا في ليلةٍ شتويةٍ دفَّأتْ فيها البيتَ وأنا أراقبُ لعبَك مع طفلِنا الصغير، ودونَ أن أضعَ رأسي على كتفِك وأبكي قائلةً إنني تعبت. أموتُ الآن ولم أحظَ بسعادةِ أن أكونَ زوجةً تنتظرُ عودةَ زوجِها آخرَ اليومِ سوى لشهرين اثنين. ورغمَ كلِّ هذا لم أتعود أن أقولَ: "هذا ليسَ عدلاً"، لأن استيائي وفقدان احتمالي ليسا الميزان الذي يُوزنُ به العدلُ والاستحقاق، ما لم يكن ينبغي أن يحدث وما كنت أستأهلُ من الحياة، ولأنني جئت إلى هذا العالم كامتحانٍ لا كمكافأة.

تعلَّمتُ أن أؤمنَ بأن الحياةَ رحلةٌ وأننا لسنا مُؤمَّنين ضدَّ حوادثِ المرور، ولا نملكُ إلا أن نختارَ الوجهةَ الصحيحةَ ونُحسنَ القيادة، ونسلِّم حين نكتشف أننا كنا نقود إلى أقدارنا دون مكابح.

وأنتَ كنتَ أجملَ شيءٍ حدثَ لي في هذه الرحلةِ الطويلةِ والمُضنية، لذلك، وحتى إذ لم يتسنَّ لنا أن نتقابلَ مجددًا أثناء الطريق، فإنني آملُ أن نتقابلَ عندَ الوصول.

إلى اللقاء في مكانٍ أجمل يا محمد، مكانٍ فيه كل اليقين وكل الأمان وليس فيه أيٌّ من هذا كلِّه.

رئيفة علاء الدين

الخميس 3 فبراير 141

1:15 بعدَ منتصف الليل

مكتبة
t.me/soramnqraa

(تمت)

الكثير من الامتنان والعرفان

للسيد النبيل محمد ثروت الذي ظلّ دائمًا ناصحًا أمينًا، والذي ساعدت آراؤه ووصاياه هذا العمل وكاتبتَه كثيرًا.

للسيد جمال عبد الحكيم الذي نفذ في وقت قياسي وصعب إلى دعوات أمي الصادقة بحسن المكافأة على مساعدة ابنتها.

للأستاذ محمد لحياني الذي يمنحني إصراره على أنني أستطيع أشياء كثيرة ثقة لا نهائية عندما أوشك على الإيمان بانعدام الجدوى.

للصديقتين الرائعتين أسماء عويس وهاجر عبد الناصر اللتين احتملتا مزاجي المتقلب وأوقاتَ كآبتي ووجومي أثناء كتابة هذه الرواية، وقدَّمتا لي وله عاطفتيهما الصادقتين دون حدودٍ أو شروط.

لليالي الكتابة الطويلة، لغرفتي في سكن المغتربات، ولبسكويت فيري.

السَّيدةُ التِي حسِبتْ نفْسها سُوسَة

لا أستطيع أن أُحصيَ عدد المرات التي راودني فيها الشك، قد لا تكون موجودًا بالفعل إلا في دماغي كما تقول أختي هندة، لكنني في آخر لحظاتي آمنتُ أنَّك حقيقيٌّ وأنك موجود في مكان ما وأنَّك تعرفُني، ولربما حتى كنتُ محظوظة إلى حد أنَّك حدَّثتَ أحدًا عني، قلتَ لأحد ما: " كنتُ أحبُّ امرأة اسمها رئيفة، كانت تُعدُّ الشاي كأنها تصلي، وكانت تحلم ببيت صغير في الغابة تُطلق فيه شعرها المُموَّج للريح، وكانت تُحبُّني وأرادت أن نضع رأسينا تغزُوَّين بالشيب والذكريات على وسادةٍ واحدة ".

telegram @soramnqraa

القاهرة - أمام مسجد عليش - خلف جامع الأزهر
(002) 01111322668 - (002) 01008584820
elmarefa@hotmail.com
DarElmarefah
darelmarefa
01004520496
دار المعرفة
9 789777 642088